أحمد تاوتي

حقوق العصر

تحقيقات في جريمة ازدراء العقل ومعاداة الإنسان

إعادة نشر لطبعة 2016 بعد عقد من الزمن، بإضافة تمهيد وملحق مفاهيمي

جوان 2026

عنوان الكتاب: حقوق العصر. تحقيقات في جريمة ازدراء العقل ومعاداة الإنسان.

اسم المؤلف: أحمد تاوتي.

نسخة المؤلف(PDF) – إعادة نشر.

السنة: 2026.

مكان النشر: نشر ذاتي.

اللغة: العربية.

للتواصل:a07418973@gmail.com

صيغة الاقتباس: (اسم المؤلف، عنوان الكتاب، نسخة المؤلف (PDF)، سنة الإصدار، رقم الصفحة).

DOI:
10.5281/zenodo.20631188

إهداء

إلى جدتي وأبوَيَّ وأبنائي...

في بيت واحد يتكوّن من جَدّة ووالدين وأبناء..

أريحيّة الجدّة، ثقافةٌ سافرة إلى التاريخ، تشيع الدّفء الأزلي والسّكينة بالبيت.

حزم الأبوَين، تحكُّمٌ في الحياة ومصالح الأسرة، يشيع الأمان والضّمان بالبيت.

مرحُ الأبناء وبراءتهم، نزوعٌ إلى المستقبل، يشيع الأملَ الأبديَّ والبهجة بالبيت.

لو حدث خللٌ في الأدوار لانفجرت الأسرة.

لا يمكن لنا أن نضمنَ مصالحَ الأسرةِ بأريحيّة الجدّة، فليس عيبا أن تنكفئ الجدّة في زاوية بحديقة البيت تُحدّث الأبناء وتلاطفهم وتلاعبهم.. العيب كل العيب، أن تخرج الجَدّة عن وقارها، لتنهر هذا، وتراقب تلك، وتؤلب هذا على ذاك، وتذكي العداوة بين ابنها وزوجته، أملا في تطليقها أو إذكاء الفتنة بينهما، والكيد من أجل الاستحواذ على سلطة البيت.

مؤسف جدا، أن جدّتي هذه، تخرج اليوم إلى الجيران أيضا، تشبعهم سبًّا ولعنات.

وعَبَثًا يُحاول الأبُ مضاهاة الجدّة في احتضان الأبناء.. فليس عيبا ألا يكون محبوبا بنفس درجة الجدّة. أما أن يكون مهابًا، فذلك انقضى مع زمن كانت النساء والأولاد فيه متاعا.. فمن أبجديّات العصر أن الأب لم يعد ربًّا لعائلة كما في السابق، بل أضحى صديقا شفوقا بأفراد أسرة وعضوا منها مكلفا بتلقائيته العاطفية الطبيعية، قبل أن يكون مسئولا أمام القانون، بإدارة شؤونها.

وليس وقائيّا تسليم بعض الأبناء كل المفاتيح.. لقد مضى ذلك مع أيام القصور والسراي. أيام كان يقاس الرشد بالأنساب.

وليس من المسؤوليّةِ التَخَلُّصَ من عبءِ الأبناء في توجيههم وتعليمهم، برميِهِم في أحضان الجدّة.. فالحزمُ أن نتعبَ ونجتهدَ في مرافقتهم بواقعهم وعصرهم، وأن نقذفَ بهم إلى المستقبل قذفًا.

...إليهم جميعا..، غُزَيّة التي غَوَيتُ بها.. ثم لم تَرْشُد، فَغَوَيْتُ عنها.،

أهدي هذه التأملات.

تنبيه

هذه الصّفحات تجولُ بنا في أروقةِ جريمةٍ لا تُنبأ عن اسمها، ومجرمٍ مُنزّهٍ عن التّهمة، وضحيّة تدافع عن جلاّدها. وهي أبعد ما تكون عن التلويح بمؤامرة..

مجالها الأفكار على الأغلب.. والأفكار قوّة في الخلق والفعل والواقع.. فالفكرة وعي في شعور، ومآلها حياة في التّاريخ. ولذلك أمكن لها أن تنتظم في تسلسل منطقي. لأنها وعي مترجم إلى حركة في الواقع.. وهذا ما قد يضفي اللبس بين ما يمكن أن يجول بخاطر بعضنا، وبين المؤامرة المدروسة سلفا في حياتنا السياسية...

والفكر الدّيني باعتباره مُجمّع أفكار و نوايا تشعُّ عن أحياء لهم حريّة الاختيار، يُعتبر حياة بما أنه وعي هو الآخر.. هذا الوعي الذي تعاظم تلبّدًا فتشكُّلاً، ثم سُفورا مستقلاّ، على نوايا عاقلة لأجيال متعاقبة منذ أكثر من أربعة آلاف سنة تقديرا، لا يمكن التهوين من خطره. ولا يمكن أن يمشي هكذا على غير حبك ذكيّ، يكاد يأخذ له مع الزمن استجابات آلية إزاء الواقع وإزاء المفاجئة.

فإذا تعاملنا معه على كونه كائنا ذكيّا، أشعّ عن الأفراد بفعل عقائدهم مُشَتَّتًا، ثم انتظم مع المؤسسات بشكل منظومات مستقلّة، وبدأ

في أخذ استقلاله تدريجيا عن الأفراد، عن المؤسسات، عن المنظومة نفسها، ليصبح قاهرا فوق المجتمع.. يُوَجّهه كيفما رسم له منطقه المتماسك، والذي لا يمكن للأفراد أن يخرجوا عنه..، يضرب بهم، يفكر بهم، ويبصر بهم... وليس العكس..،

إذا تعاملنا معه على هذا النحو، فلا يعني ذلك أنه شخص يمشي في الأسواق، ولكنه منطقٌ يُوَجِّهُ الأسواق..

تمهيد للطبعة الحالية

كُتب هذا النص في لحظة لم تكن هادئة. لم يُكتب بوصفه مشروعًا أكاديميًا، ولا بيانًا سياسيًا، ولا دعوة إصلاحية. بل كُتب بوصفه تشخيصًا.

تشخيصٌ لتراكم طويل من الملاحظات، امتدّ على ما يقارب ثلاثة عقود، ليُكتب بنفَسٍ واحد في ظرف ثلاثة أشهر، صادما في لغته، لأن الواقع الذي كان يحاول تسميته لم يكن أقل صدمة.

منذ ذلك التاريخ، تغيّر الكثير في العالم، بيد أنّ كثيرا مما وُصف في هذه الصفحات لم يتغير، بل ازداد وضوحًا، واتخذ أشكالًا أكثر تنظيمًا، وأصبح قابلًا للتعيين والتسمية.

المفارقة التي ينطلق منها هذا النص هي أن السلطة لا تُمارَس فقط من أعلى، بل تُنتَج وتُعاد صياغتها عبر المعرفة، وعبر الخطاب، وعبر المعنى الذي يُمنح للناس بوصفه تفسيرًا للعالم.

لذلك، لا يوجّه هذا الكتاب اتهامه إلى جهة واحدة.

لا إلى الدين وحده، ولا إلى الدولة وحدها، ولا إلى الغرب ولا إلى الشرق بوصفهما كيانين متقابلين.

الاتهام موجّه إلى بنية كاملة.. بنية تقوم على تشطير الإنسان، تشطير إرادته، وتشطير وعيه، وتوزيع انشغاله بين سماء وسلطة.

وإذا كان العالم العربي حاضرًا في هذه الصفحات بوصفه مجال التحليل الأوضح، فليس لأنه استثناء في البؤس، بل لأنه المجال الذي تتكثّف فيه الأزمة دون أقنعة.

أما المجتمعات المسمّاة مُتقدّمة، فهي ليست خارج هذا المنطق، بل تعيشه بصيغ أكثر تهذيبًا، وأدوات أكثر تطورًا، وملهيات سياسية واقتصادية تؤجّل مواجهة الأسئلة بدل حلّها.

هذا الكتاب لا يقدّم حلولًا. ولا يقترح برامج. ولا يرسم طريق خلاص.

ما يفعله هو **تسمية الأشياء بأسمائها**، وتتبّع نتائجها حين تُترك دون مساءلة. **وهذا ما نحتاجه اليوم أوّلا وعاجلا وحصرا وقبل كلّ شيء.**

لذلك قد يبدو قاسيًا وحادًا وغير تصالحي في بعض مقاطعه. حدّة أملتها قناعة راسخة بأنّ تشخيص العلل لا يمكن أن يتمّ بمراعاة الموائم سياسيّا.

إعادة نشر هذا النص اليوم لا تعني المصادقة عليه بوصفه حقيقة نهائية، ولا تعني الدعوة إلى تبنّي أطروحاته كما هي، بل تعني وضعه في التداول بوصفه وثيقة فكرية تنتمي إلى لحظة محددة، وتتوجّه إلى عقل القارئ لا إلى هويته.

هو نص كُتب خارج المؤسسات، وخارج المواقع، وخارج الحسابات.

وسيُعاد نشره اليوم بالروح نفسها ليُقرأ، ويُختلف معه ويُناقش أو يُرفض...

ننشره بصيغته الأصلية، مع توضيحات إضافية محدودة. إضافات لا تراجع الأطروحات المعروضة، ولا تعدّل في الاستنتاجات، بل تعزّز الحجّة عبر زيادة البيان والدلائل، استجابة لاعتراضات سابقة كشفت الحاجة إلى مزيد من الإيضاح، دون أن تمسّ جوهر التشخيص أو اتجاهه العام.

نشير أخيرا إلى أنّ خلوّ هذا النص من أسلوب الإحالة في سواده الأكبر، لم يكن رغبةً في القطيعة مع التراث الفلسفي، بل انسيابا عفويا لطبيعة الكتابة التي ينتمي إليها.

فقد كُتب هذا العمل خارج الفضاء الأكاديمي، وبمنهج تشخيصي لا توليفي، تُختبَر فيه الأفكار في علاقتها بالواقع التاريخي والاجتماعي، لا في انتسابها المدرسي.

إنّ غياب الإحالة هنا لا يعني غياب الجذور، بل يعني أن هذه الجذور لم تكن وسائط تفكير، بل نتائج متوازية لمسار فكري تشكّل، في لحظته، بمعزل عن الاصطفاف المدرسي، ومتقاطعًا مع آخرين في سياقات مختلفة.

وللقارئ الأكاديمي، أُدرج في ختام الكتاب، ضمن الملحق المفاهيمي، جردًا بتقاطعات فكرية، بوصفها أفقًا عامًا للقراءة لا قائمة مراجع ملزِمة. اختيارٌ قد يخدم الحوار مع الفكر الفلسفي، بنقله من مستوى التوثيق إلى مستوى الاختبار.

لكل نظام:

بنية، سياسات، وقيادات..

إذا كان مبلغ العمل، إسقاط القيادات، بقيت نفس البنية ونفس السياسات، لتصوغ لك نفس القيادات من جديد.

وإذا أسقطت السياسات، بقيت نفس البنية، لتصوغ لك نفس السياسات بقياداتها على المقاس من جديد.

يراودني السؤال التالي؛

...بفوضانا "الخلاقة" الراهنة، من أولى بالتقويم، الحُكّام أم الأديان؟

لنرى عن كثبٍ وَضْعَ الحكّام ووضع الأديان إزاء الإنسان.

أولا: لكل شخص سلوك.. ووراء كل سلوك فكرة. فأين نُصنِّف الدين، وأين نصنف الحاكم؟

الحاكم يُصنَّف في خانة الأشخاص، والسياسة تُصنَّف في خانة السلوك، أما الدين فيصنَّف في خانة الأفكار.

من حرّر حاله كلّه، بمجال الإبداع والخلق في ذاته، يحاسب الأفكار.، يوجه السلوك ويلهم الأشخاص.

ومن حرّر إرادته فقط، بمجال الإبداع والخلق في ذاته، يحاسب السلوك.، ويوجه الأشخاص.

أما من حُرم من طرق ذلك المجال الحيوي الخصب، وأوكله إلى قوى ما ورائية وهمية، فلا يجد له مندوحة من أن يحاسب الأشخاص ويسُبّهم فحسب.

ولذلك تجد في فضائيات وحوارات وخطابات المودعين سرائرهم إلى غيب مبهم ومشبوه، أكثر الناس شتمًا للناس.

ثانيا: "يفترض" في الحاكم أنه يُسيّر الشأن العام.. وهناك "قنوات" متواضع عليها لمحاسبته..

أما الدين فيهتم بالشأن العام.. ويحشر أنفه أيضا في الشأن الخاص.. ثم لا توجد قنوات متواضع عليها لمحاسبته.. أكثر من ذلك، لا تجوز محاسبته.. فلا اجتهاد مع النص، وليس بعد الحق إلا الضلال كما يردد أنصاره..

لقد طال الأمد بهذا الوضع لمدة قرون، اكتسب فيها الحاكم العربي جميع أوصاف الدين، من حشر أنف أجهزته في الحياة الخاصة للمواطنين، إلى فرض عدم جواز انتقاد حكمه.. فلا تفلسف مع "المصالح العليا" للوطن، وليس بعد "الثورة" زمن الوطنيات الصاخبة، أو بعد "النظام" بزمننا هذا، إلا الخيانة كما يردد أتباعه..

أمام هكذا وضع، وجب نقد الأفكار الهدامة التي أفسدت الحكام والسياسات والمواطنين على سواء.

بهذه الصفحات، سوف نسلط الضوء على محاور عدة، مع التركيز بطبيعة الحال على الدين والمرجعية الفكرية، أي البنية الثقافية الأساس بتربتنا، لاعتبارنا بأن مشاكلنا ثقافية بالأساس، قبل أن تفرع عرفا اجتماعيا، وأغصانا سياسية واقتصادية.

وأنا سعيد اليوم، عندما انحاز إلينا كثير ممن يسمون بالمسلمين المعتدلين بعد طول عنت معهم، وأضحوا يرون معنا أخيرا وبعد خراب البصرة، بأن مشاكلنا ثقافية بالأساس قبل أن تكون غير ذلك.

فبالقدر الذي أنا حزين –بالطبع- على خراب البصرة، لا بد من الاستبشار باستفاقة جزء كبير من هؤلاء "المعتدلين" الذين كنت لا افهم اعتدالهم إلا كما أفهم "الحنيفيّة السمحة" بمعناها الوضعي[1].

سيجد القارئ الكريم، أسلوبا موجها إلى العموم، ينزع إلى أسئلة الحياة بدلا عن منظومة المفاهيم.. وإن دعت الضرورة أحيانا إلى معالجة مسائل مجردة. وعمدت قصدا إلى التمثيل غالبا بما يفكر به المواطن البسيط والأفكار المشاعة على مستوى عريض وإن كانت مبتذلة.. كما عمدت إلى استعمال حتى النبرة الشعبية البسيطة، قصيرة النفس، سافرة التبرّم والتأفّف.. أمرٌ قد يجعل بعض الذين ألِفوا الأساليب النخبوية التقليدية غير راضين عنها. وهم معذورون في ذلك

---

[1] إذا غفلنا ما جرى الاصطلاح عليه فيما بعد مع الثقافة العبرانية، فإن المعنى الوضعي الأوّل هو الميل والالتواء والاعوجاج خصوصا في الساقين (مما يتضمن المشي والقصد المنحرف). كان العرب يقولون: حنف فلان، إذا مال عن جادّة عرفهم ومنطقهم. ومنه وصف "الحنيف" الذي أطلقوه على من تأثر بالتوحيد الإبراهيمي آنذاك. طبعا بعد الغزو العبراني للثقافة العربية، أصبح المعنى هو الميل عن الباطل إلى الحق، وهنا يكون الأمر مفهوما، **حيث أنّ التقرير الثقافي لمن غلب**. انظر مادّة: حَنَفَ. في مقاييس اللغة لابن فارس، والعين للفراهيدي وفي لسان العرب لابن منظور..

لأن هذه الانشطارية بين ما يمكن تصوره ثقافة "أهل الكتاب"، وما يقال عنه ثقافة الدهماء، خللٌ ترسخ في عقولنا منذ دخول العصر الإسلامي الأول (عصر النبوة والراشدين)، وتأكد فيما بعد مع العصر الإسلامي الثاني (عصر الضعف)، وعاود ظهوره بقوة بالعصر الإسلامي الثالث (عصرنا هذا منذ سبعينيات القرن الماضي).. حتى أصبحنا نصنف مسائل من مثل كسب الأشعري أو خلق القرآن ضمن الثقافة "العالمة"، ومسائل مثل اتجاهات التنكيت الشعبي مكثفة الاستثمار في الحياة السياسية، وافرة الدلائل للأبحاث الاجتماعية، ضمن الثقافة "المبتذلة".. كما صرنا نناقش على سبيل المثال، بمواقع التواصل الاجتماعي، مسالة الإرجاء أكثر من مناقشتنا مسالة العدالة الانتقالية... وأصبح أبطالنا التاريخيون، يتبارون من لظى قبورهم الغابرة، في انتخاباتنا "الديمقراطية" الحالية.

ولم يقتصر الأمر على نخبنا التقليدية في ذلك.. فلقد سارت على نفس النهج حتى الكتابة النخبوية الجامعية عندنا..

وهذا التهويم خارج التاريخ للانشغال بالمُلهيات النظرية التقليدية المُميّعَة، يساعد كثيرا دعاة الفكر الديني على الإمعان في تحريف العقول القلِقة من الناشئة عن المناطق التي يعتبرونها مواضع خطر على مُحْكَماتهم ومحمِياتهم.. وقطع الطريق على مجرّد التفكير في

استفادة محتملة من "صيحات البريّة" العديدة والمتلاحقة التي أطلقتها وما زالت تدوي بها قامات فكرية في العلوم الإنسانية لا يشق لها غبار بعالمنا العربي منذ الصدمة إلى اليوم.

وللحقيقة، فإن بعض الكتابة النخبوية تقليدية أو معاصرة، ضرورة.. وكلنا أفاد منها.. ولولاها على كل حال لما فهمنا كثيرا من هذا الركام الذي وُلدنا بين أوحاله.. وهي كتابة - على علاتها- لا تدخل كلها ضمن النهج المشار إليه.

ولكن عندما يتعلق الأمر بالكتابة من أجل التغيير الثقافي والانتقال المعرفي العريض حسب الإيقاع البطيء لسير الشعوب، يجب التبسيط، ويجب التمثيل بالملاحظة، ويجب مناقشة الأفكار البسيطة المبتذلة وحتى الأفكار الخرافية التي تصنع المزاج العام عندنا.. ويجب التحرر من مقولات الكتب إلى معالجة مقولات الرّصيف.. ويجب النزول من بروج الإشكاليات إلى شعاب وأودية الاستفهام البسيط في مبناه، ثقيل العيار في معناه..، حيث العقل السائد الشائع..

من جهة أخرى، جرى تقليد عندنا، محاولة تغيير الذهنيات ومعالجة أفكار الشعوب ومعتقداتها عن طريق الإبداع الأدبي بأنواعه.. وهو فضلا عن كونه أسلوب غير مباشر، عفا عنه جهل جارف باللغة وبالفن. وعزوف عن متابعة الإبداع بصفة عامة لدى

شعوبنا بالزمن الحاضر.. وإذا جاز استعارة لغة المنشطين بالتلفزيون، يمكنني أن أقول بالنظر إلى بؤس واقعنا الثقافي والسياسي، بأن "الوقت داهمنا" ولم يعد أمامنا إلا الحسم الفوري والمباشر في قضيتنا الأساسية العالقة..، وهي التخلف الذي يعود إلى بنيتنا الثقافية العبرانية المقدسة..

ومن أجل الوضوح منذ البداية، فإن استعمالنا لمصطلح «البنية العبرانية» لا يراد به توصيفًا دينيًا، ولا إحالةً عرقية أو قومية، ولا تخصيصًا لشعب أو ديانة بعينها.

هذه التسمية اختيار اصطلاحي احترازي، يروم تفادي الخلط بين البنى الفكرية من جهة، والديانات أو الشعوب التاريخية من جهة أخرى. فموضوع هذا الكتاب ليس الأديان بل أنساقها وما تؤدي إليه. وليس الشعوب بل هواجسها وما تصلّبت عليه. بُنى فكرية وشعورية دخيلة على فطرة الإنسان، قابلة لأن تتجسّد في سياقات دينية أو سياسية أو أخلاقية مختلفة، حيثما وُجدت شروطها.

وعليه، فإن «العبرانية» تُستعمل هنا استعمالًا مفهوميًا صرفًا، بوصفها اسمًا لبنية فكرية، لا بوصفها توصيفًا تاريخيًا أو إثنيًا.

وإذا وردت كلمة "دين" على طول هذا الكتاب، أو كلمة إسلام أو يهودية أو مسيحية، فإنما نقصد بها النسق المترتب على تعاليمه

والمتجسد على أرض الواقع والمحفور في نكبات التاريخ. وتبقى صورته الرومنسية المنتعشة في خيال الناس شأنا آخر لا يدخل في انشغال هذه الصفحات.

بمعنى أنّ تركيزنا على تلك البنية بتحليلنا، سيكون تركيزا على ما يقدمه لنا التراث والتاريخ كمساعد رئيس لكشف منطق البنية.. والأحكام المترتبة عن ذلك، تكون متعلقة بالبنية وليس بأحلام الشعوب التي تبقى مقدسة ومحترمة ومنزهة عن التحليل.

فأحلام جدتي حق فطري لها، وليس لأحد أن يمنعها.. ولن يكون بمقدوره ذلك وإن أراده، ثم لا يسعه إلا احترامها.

فإذا كانت الشعوب ترى في الآلهة رمزية الحق المطلق، وترى في الأنبياء رمزية المثال المطلق، وترى في الكتب المقدسة رمزية الخير المطلق..، فاحترام ذلك واجب حتى على الأجانب عنها، لأن الرمزية هنا تتعلق بقيم فطرية إنسانية عالمية (الحق، المثال، الخير)، وإن كانت من ناحية الشكل، أي الرمز الذي يدل عليها (الآلهة، الأنبياء، الكتب)، تخص ثقافة محلية خاصة.

والناس على مختلف اتجاهاتهم من أنقى الفطرة إلى أقوى العقائد، قد يختلفون في أسلوب ترميزهم للقيم المطلقة ولكن لا يختلفون في إجماعهم عليها وفي تقديرهم لها وفي السعي لتحقيقها وإن لمآرب

مختلفة أو متعارضة أحيانا مع جوهرها، بل لا يتفاوتون في ذلك باعتبارها قاسم فطري إنساني مشترك.. وعلى مستوى تقديسها- وهو مستوى رمزي- كل الناس سواء وإن اختلفوا في تعبيرهم عن ذلك.

فمستوى المقدس إذن، يستغرق المسافة التي تنساب عليها بديهة الإنسان في تقبُّلِها لكليات الخير بالرّمزية التي تُقِرُّها كل ثقافة إلى تلك الكليات.. وهو مستوى قابل للجريان بنفس الجرعة – إن جاز التعبير- على كل الثقافات والحضارات والشعوب كيفما كان الخلاف بينها.. هو فضاء مشترك إنساني طبيعي لا يحتكره دين أو عرق أو لا دين.

أما ما يجري امتدادا لها – أي لتلك الرمزيات- بالتاريخ، فيبطل عن أن يكون رمزا ممتنعا عن الدراسة بجميع الأدوات المتاحة، لأنه أصبح مجسدا موضوعيا قابلا، بل طالبا بإلحاح، للتقييم والتقدير والمساءلة. وذلك من أجل عمليتي الاختبار والاعتبار الضروريتان في مسيرة التقدم والتطور الإنساني.

فالله أو يهوه، رمز الحق، يبقى معبودا كرمز للحق.. ويستبعد من تحليلات السياسة.. أما الله في التاريخ، فتطور سياسي لأفكار الحكم.

والأنبياء رمز المثال، يحضون بالتقديس كرموز لذلك.. أما الأنبياء في التاريخ، فتطور سياسي للزعامة في القيادة، أو للزعامة في الإصلاح، حسب طبيعة سياق الديانة.

والكتب المقدسة رمز الخير، تبقى مقدسة كرمز للخير.. أما الكتب المقدسة في التاريخ، فتطور ثقافي لصياغة القانون، أو لأساليب التربية، حسب طبيعة سياق الديانة أيضا.

وعَودٌ على الصورة من زاوية أخرى لتمام الرؤية..،

كلما جرى الرمز بالتاريخ، بدا للمؤمنين به بأن ترجمته إلى الواقع ليست دقيقة، فتعددت محاولات الترجمة وتفرقت إلى مذاهب وعقائد وسياسات أدت جميعها إلى اصطدامنا بصخور العصبية..

و "كحلّ مُريح"، أضحت حجّة عدم تمثيل الدين الذي في مروي التاريخ وفي مُتداول النص وفي مُتواتر التراث، للدين الذي في "الرؤوس"، حجة شائعة، ورياضة مُمارَسَة على صعيدٍ واسع..

فجميع البدايات – والبدايات عادة ما تبدو واعدة- تُمَثِّل الدِّين.. ثم نهاياتها جميعا – ونهاياتها عادة ما تكون كعاداتها- لا تُمَثِّلُ الدِّين...

وهكذا يكون الإنسان، هو ابن الكلب أولا وأخيرا، حسب هذا المنطق العجيب... إذا أصاب، فذلك من الدين.. وإذا أخطأ، فذلك لأنه كذلك من الأصل، وهو لا يمثل الدين...

ولهؤلاء الذين يجدون الرمز في رؤوسهم ولا يكادون يتفقون على الإفصاح عنه بجملة مفيدة تدل على فهمهم لما يعتقدون، أطمئنهم

منذ البداية بأننا في هذه الصفحات نعدكم بان هذا "الشيء" الذي برؤوسكم سيبقى مصونا ومنزها عن أي نقد وأية معالجة من طرفنا.. بل نذهب حتى تقديسه معكم.. وبأنَّ نقدَنا وتحليلَنا سَيَنْصَبُّ على النصّ المقروء، والواقع المكابد، والتاريخ السافر، والتراث المتداول، الذي لا يمثل –باعترافكم- الدين الذي برؤوسكم.. والذي يمثل –مع الأسف- قصارى ما نجد، وما تجدون أنتم أيضا عن الدين إذا ما اضطرتكم الظروف إلى الإفصاح.. ويمثل جماع السفينة المخرقة التي تقلّنا معا.. وإن أبَتْ لكم راحة الوهم الإقرار بذلك..

نقطة أخرى محورية بهذه الصفحات، أود أن يتمعّن بها القارئ جيدا لفهم ما يستقبله من أفكار...

إعجاز الديانات العبرانية، وإذا اعتبرنا افتراضا أنه إعجاز حقيقي وليس طلسمي ولعب بالألفاظ وبالعواطف، وهو كذلك إلا أننا نسلم معها افتراضا، للتقدم في التوضيح..،

فهذا الإعجاز المؤسس أساسا على إعجاز "الاستثمار" في الكوارث الطبيعية قبل الإسلام، وعلى إعجاز "الاستثمار" في البلاغي والغيبي والمعرفي وحتى الجنسي مع الإسلام، لا يستلزم - منطقا ووضعا- الحقيقة أو العدالة أو الفضيلة. ولا يدل - منطقا ووضعا- بالضرورة على أنه يصدر عن الخير المطلق بهذا العالَم..

فالعلم والقوة قد يجتمعان في أيقونة شر.. ولذلك لا يصح إعجازٌ، كداعٍ إلى الاستئناس بالبرامج الموجهة إلى إصلاح البشرية إلا إعجاز العدالة التي يستحيل منطقا ووضعا أن تجتمع مع الشر.

ونؤكد مرة أخرى.. إعجاز العلم والقوة المتداول كثيرا بالأدبيات العبرانية لا يدل إطلاقا على صدق في الدعوى.. فنحن نسلم معها في ذلك لسير النقاش كما قدمنا، ليس إلا.. ونعفو عن كونه يدل على أن الدين لجأ إليها لأن طلاسمها والمخادعات والمغالطات بها متوفرة، ومجالها شاسع مفتوح، ويمكن أن تنطلي على الإنسان العادي..

أما إعجاز العدل، فلأنه يمس مباشرة مُسلّمات الفطرة بالإنسان العادي في شؤونه العملية، ومعاملاته اليومية..، أضحى متمنّعا عن أن يعبث به الدين ويلوي عنق حقائقه كما في العلم.

وبعبارة بسيطة..،

العلم والقوة يمكن أن يجتمعا في كيان شرّير.. أما مع العدالة فيستحيل ذلك.. وحتى على مستوى الأشخاص..، لا يمكن أن تصادف عدلا فاضلا وشرّيرا في نفس الوقت.. ولكن يمكن أن تجد عالما، قويا..، وشرّيرا في آن واحد.

ولهذا السبب، ومن أجل طمس هذه الحقيقة، تم التركيز بإلحاح غريب وغير طبيعي في الأدبيات العبرانية على إمكان وجود الدولة

العادلة "الكافرة"، في محاولة فاشلة لتثبيت عكس تلك الحقيقة[2] في الوعي الجمعي للمؤمنين، لعلم الدين العبراني مسبقا بأن العدالة والأخلاق والتشريع، هي مادته الراسب فيها حتما بأوضاع يستحيل عليه إخفاؤها.. وعليه بالتالي أن يُهوِّن من قيمتها، وأن يوهم المؤمنين بأنها قد تجتمع مع "الكفر"، والكفر ببضاعته، كما دلس عليهم، جماع الشر.

وعلى هذا، إذا أردنا أن نتكلم في الإعجاز مرة أخرى، علينا أن نتكلم عن إعجاز العدالة والتشريع والحقوق.

فكفانا زغلوليات وكياليات تخويف أطفال، دام فضلكم...

حتى ما يسمى بالإعجاز العددي.. وهو ضرب من الانتقائيات المخادعة لكلمات تخدم توافقا عدديا عبثيا محددا مسبقا برؤوسنا..، وإذا اعتبرنا - افتراضا - أنه صحيح هو أيضا..، فإنه لا يدل بأي منطق على أن موضوعه (النص المقدس) صادر عن الحق المطلق.. لأنه إذا صح - على كونه لم يصح[3]- لا يعدو أن يكون دليل تحكم في لعبة الكلمات لا أكثر ولا أقل.. وهذه كانت رياضة من الرياضات

---

[2] حقيقة **ألاّ يمكن** أن تصادف عدلا فاضلا (دولة عادلة)، وشريرا (وكافرة "في منطقهم") في نفس الوقت.

[3]أنظر: الرد على الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (يمكن تحميله). مجموعة من الفضلاء. نشر موقع شبكة الملحدين العرب.

العبثية الطلسمية للنساطرة قديما بقصد التعالي على الناس.. وحرفة إقطاعية الهوى من حرف "أهل الكتاب" عموما..

أما الإنسان السَّوِيّ، فاتّجه بفطرته السليمة في الحضارة العربية الإنسانية، إلى إبداع فنٍّ أدبيٍّ على نحو اللُّزوميات، وإلى تأسيس علم رياضي على نحو الجبر.. ثم انتهى اليوم في الحضارة الأوروبية الإنسانية إلى الرقمية العددية التي لم يدعي أحد من روادها بأنه يصدر عن وحي من الحق المطلق.. ولم يبشِّر أحد منهم بدين جديد.

الديانات العبرانية تعلم جيّدا، بأن المجال الحقيقي للإعجاز، **إعجاز العدل،** هو **مطبتها الأولى والأبدية**.. ولذلك حاولت منذ الطور الثالث بها(الإسلام)، استطرادا لبداية غير موفقة مع اليهودية، حاولت الاستحواذ على هذا المجال "الشَّرود «، بجعل مقولاته جميعا توقيفية.. رسمتها بعنايتها، وأعفت عقول المؤمنين من الاشتغال بها، إلا على سبيل الجمباز داخل قُبتها لا عادين خارجها ولا متكلفين، تخريجا واستنباطا ومقابلة وقياسا..

فالتشريع لحياتنا الاجتماعية، بما فيها اقتصادنا وسياستنا، توقيفيّا..

والأخلاق توقيفية..

وحتى الغيب، باعتباره "موطن" العدل العبراني أين "يتأول" جميع تناقضاته تحت مسمى الحكمة الغائبة عن أفهامنا، والشبكة الأخيرة لنجاته من مآزقه وحرجه المنطقي والإنساني مع العقل البشري..، فحتى هذا الغيب، رُسمت تضاريسه مُقدَّما، وجُفّت به الأقلام، وصارت معارفنا عنه توقيفية.

بهذه الحيلة، سُدّت "ثغرة" القلق المعرفي والوجودي والأخلاقي للإنسان، وحيل بينه وبين أن يجرأ على مجرد المحاولة في السؤال حول هذه الأوثان الوقفية الماثلة كأشد صفاقة من أصنام الكعبة، بوصفها معلومات من الدين بالضرورة لا يراجعها إلا فاسق مرتد.

لا يُشَكك في ذلك مسألة "أننا أعلم بأمور دنيانا" التي يوردها المحرّفون الجدد بكل مناسبة، قاصدين بها مسائل التشريع[4]. فواضح في الأثر وسياقه أنها تتعلق بالمسائل التقنية.. وهذا ما تطبقه جيّدا دول الخليج والمملكة السعودية الإسلامية والدول الإسلامية والعربية الأخرى أيضا، في تعاملها مع التقانة والتكنولوجيا والخدمة الغربية عموما. في الوقت الذي تحافظ فيه بقوانينها، وبتعاطيها مع الهيئات الدولية وبرامجها، على خصوصيتها التشريعية لذات السبب المتقدم،

---

[4] - أنظر على سبيل المثال "الدين والسياسة تمييز لا فصل". للدكتور سعد الدين العثماني. أو الدكتور عدنان إبراهيم في برنامج صحوة بقناة اليوتيوب: روتانا خليجية.

وتتحفظ على كثير من لوائحها بما يحرمها أحيانا حتى من بعض الامتيازات.[5] ونحن نؤيّد التحفظ من حيث المبدأ، ونرى بأنه عنوان سيادة. فقط الرهين أوالأسير أوالعبد، هو الذي لا يجرأ على إبداء تحفّظٍ ما. فلكل مجتمعٍ الحق في الحفاظ على منظومته القيمية والاجتماعية والاقتصادية بما يراه مناسبا لانسجامه. لكن ما لا نفهمه وننكره هو مراوغة العصر في محاولات التحريفيين الجدد لتقديم الزاد العبراني الدخيل، وزجّه زجاً في اللياقة الحقوقية المعاصرة[6].

والغرب مع الأسف لا يعتبر من تلك الخصوصية إلا بما تمليه عليه رؤيته المقتصدة...

فالبرامج الإنمائية الأممية والبرامج الأوروبية الموجهة إلينا، في تعليم المواطنة والخبرة الغربية عموما، والتي درست سياقاتنا المختلفة وظيفيا..، عَفَتْ عن تَحَرِّيها معرفيّا، إلا ما كان بداية محتشمة مع

[5] - لأخذ فكرة ليست شاملة ولكن مركّزة على ما نتناوله هنا، أنظر:
- التحفظ على معاهدات حقوق الإنسان كآلية لحماية النظام العام الوطني. باية عبد القادر. دفاتر السياسة والقانون. العدد2. 2020. جامعة تيسمسيلت. الجزائر.
- خصوصية التحفظ في اتفاقيات حقوق الإنسان. فتيحة بشور، خدوجة خلوفي. مجلة العلوم القانونية والسياسية. عدد2. 2021. جامعة البويرة. الجزائر.
- حقوق الانسان بين الإسلام والوثائق الوضعية. سليمان عبد الرحمان الحقيل. 2006/11/16. موقع إسلام ويب.
- السياسة الشرعية في التحفظ على المعاهدات في القانون الدولي وأحكام الشريعة الإسلامية، المملكة العربية السعودية نموذجا. د. حسن بن محمد سفر. مجلة البحوث القانونية والاقتصادية. جامعة الملك عبد العزيز.

[6] - راجع: الدين والسياسة تمييز لا فصل. مرجع سابق.

الاستشراق الألماني غير المُسيّس.. وهو قليل ومتجاوز منهجيا في الوقت الحاضر بالنسبة للغرب، وملحاح الحاجة إلى التوقف عنده ومراجعته ثم تجاوزه بالنسبة إلينا.. فضلا عن كون السياسة الغربية، و منذ تحرر الشرق، دفعت بالمؤسسة العلمية الرسمية إلى عدم إخضاع العالم الإسلامي إلى نفس المشارح العلمية التي خضع لها العالم المسيحي و كنيسته من قبل، نظرا لمبدأ احترام الثقافات المحلية أو مبدأ عدم التدخل في الشأن الداخلي، أو كما يبدو، أولوية مصالحه الاقتصادية مع الشرق... و هذا ما يفسر الغربة التي عاشها كثير من المفكرين العرب الأحرار في المحيط العلمي الرسمي الغربي بالقرن الماضي، و محمد أركون أفضل مثال لذلك، في الوقت الذي حضي فيه دعاة الفكر الوهابي و الإخواني و الملالوي و الطرقي و القومي الوطني السلفي شبه العلماني – أي ما يمثل مجتمعا أو أحدها، إجماع إسلام هذا العصر- بكل الاهتمام و الترويج و الاحتضان و الاحتفاء لديهم طوال النصف الثاني من القرن العشرين، و لا يزالون – فيما يبدو- إلى اليوم ولكن من مقاربة أخرى اقتضاها – كالعادة- تغيّر جلد الأفعى بما يداهن العصر والواقع المتجدّد.

فقصارى ما عنونت به الهيآت الدولية والأوروبية برامجها الموجهة إلى الشعوب الكادحة في طريق النمو، العربية خصوصا،

هو حقوق المرأة وحقوق الطفل وشيئا من مبادئ المواطنة الفعالة كما يتصورها المربي الأوربي على أرضيته المستوية على سمت الاستقرار الديمقراطي منذ عقود.. وهذا التركيز جدي ومفيد ولكنه ليس كل شيء..

هناك حقبة لا يزال العالم العربي مُترسِّبًا بها، وما تقتضيه طبيعة هذه الحقبة من محاور للمعالجة في مجال المواطنة، تختلف كليّا عن المحاور الواجب معالجتها في الدول النامية[7] التي نخشى اليوم مع الأسف – بفعل القَرْوَسَطَة[8] المتنامية هناك تجاوبا مع بضاعتنا المصدرة - أن تكون دولا عائدة من طريق النمو.

ماذا يفيد في مجال التقريب بين الجماعات ونشر ثقافة التسامح، أن نُعَلِّمَ في المدارس أو المخيمات مثلا، اختلاف الاستعارات من جهة إلى أخرى، أو تحديد الإشارات والإيماءات الدالة على السخط أو الرضي من ثقافة إلى أخرى أو أغرب من ذلك أنواع الأطعمة الملعونة من منطقة إلى أخرى، تفاديا لسوء الفهم، إذا كانت هذه الثقافات تنظر إلى بعضها البعض ابتداء بعين التدنيس؟

---

[7] كما أن مصطلح دول نامية هو تسمية مهذبة للدول المتخلفة في الواقع، يغدو مصطلح الدول المتقدمة تسمية مهذبة، أو مغرورة فيما يبدو، للدول النامية في الواقع. والمؤشر في ذلك، هو الإنسان و مدى محوريّته صعودا و انخفاضا في سياسات الأنظمة، و ليس التصنيع أو التكرير أو التخصيب أو التشريح بالضرورة.

[8] روح القرون الوسطى.

ألسنا هنا في عمل شكلي وعبثي صرف، في صورة انفتاح منافق ومخادع، لا يزيد الانغلاق إلا تحكما والعلاقات إلا توجّسا على مقولة (من تعلم لغة قوم أمن شرهم) بدلا مِن؛ مَن تعلم لغة قوم اكتشف إيجابياتهم أو محاسنهم أو مواطن الجمال في ثقافتهم؟

ماذا يفيد في مجال مكافحة العنصرية تعليم خطر الصور النمطية السلبية إزاء الآخر في مجتمع لا يزال يفكر ويتحرك بمُسَلَّمات نمطية مقدسة؟

وماذا يفيد في مجال مكافحة العنف أن نعلم أساليب الوساطة مثلا ونعفو عن مؤسسة صامتة لم تفتأ ممونا رئيسا وخزّانًا دائما لأحكامنا المَرَضِيّة إزاء الآخر؟

ماذا يفيد في مجال مكافحة الإرهاب، تحريف ظاهري لمضامين الديانات وتقديمها على غير حقيقتها، حينما نعلم أن نتائج نفس المضامين ينتهي إليها السالك سواء اختار طريقا لطيفا أو طريقا شديدا.

الوطن الكبير مهدد من الداخل قبل الخارج.. ومعاول هدمه أيادينا وليست أياد أجنبية بالضرورة...

باسم الحي والجهة والبلد والعشيرة والقبيلة والطائفة والفئة واللون والعقيدة، انجرف الجميع في حرب على الجميع.

ولذلك نحن نسعى في هذه الكتابة، إلى اكتشاف المؤسسة الصامتة التي تمثل الأرضية المشتركة الأساس لنا جميعا، والتي يصحُّ فيها بامتياز وصف المذنب الأول والحقيقي والحصري الذي لا تطاله الشكوك.. وإلى استجلاء ما يمكن أن يكون تصورا واقعيا لمفهوم المواطنة، أي مُكيّفا على مقاس بيئتنا وطبيعة مشاكلنا المعرفية والثقافية والسياسية المستجدة بعد ثورات ربيع العرب..

وللقارئ المستعجل أقدم خلاصة التحريات العامة في تحليلنا بثلاث كلمات:

عدم تسامح صارم مع ما يحمي الرمز (الآلهة، الأنبياء، الكتب) ويدوس على القيم المرموز لها (الحق، المثال، الخير).

وتسامح كريم مع ما يحمي الرمز (الآلهة، الأنبياء، الكتب) ويحافظ في نفس الوقت على القيم المرموز لها (الحق، المثال، الخير).

وتوافق كلي مع من يحافظ على تلك القيم المطلقة بدون كبير حاجة إلى رموز تقربه إليها زلفى..

ومهما كان اختلافنا مع المؤمنين الذين يعتقدون في اتحاد رمزهم ومرموزهم، فإننا ندعوهم إلى معالجة المسألة من حيث وضعها على

الساحة السياسية اليوم، لكي نصل إلى تعقل واقعي للدوار الحاصل حول المقدّس وعلاقته بالحقوق وبكرامة الإنسان.. ذلك أن اعتقادهم نفسه يبقى إيمانا وليس إدراكا.. والإيمان كما الرؤيا.. أصله وحي، أي رؤيا "مكيّفة" إن جاز التواضع.. يلزم أصحابه وفقط.. ولا يفرض على المجال العام.. فلا يمكن مثلا، أن نُقْدِمَ على احتلال دولة جارة لنا، بدعوى أن رئيس دولتنا زاره طائف في المنام، أو تمثّل له شيخه، أو أتاه ملاك، وأخبره بأن تلك الدولة أو طائفة منها أرادت به شرا..

هذا مع افتراض بطبيعة الحال، أننا وصلنا إلى درجة من الغبن، بحيث نُتَوِّج على أقدارنا رئيسا على هذا المستوى المتقدّم من المسخ.

ثم أنه (الإيمان) لا يختلف كثيرا من حيث السند المنطقي عن الرمزية.، بل لا يرقى إلى قوتها وصلاحيتها إذا علمنا بأن الرمزية الأنثروبولوجية لها دور واضح ومحدود على الأقل، وليس مميّعا وعائما على رحلي، وعلى رحل جاري، ورحل قادم محتمل، ورحل حتى ماض يحتمل اكتشافه مستقبلا من دلائل التاريخ باستخدام رياضتنا الوطنية، رياضة لوي عنق القرائن - المحبّبة إلى جماهيرنا- في حالة عدم تأييدها لدعاوى مركزيّتنا العبرانية.

هذا على مستوى الانشغال النظري.

أما على مستوى الواقع فقد تقتضي اللياقة بك، احترام حتى بعض الحيوانات التي يقدسها جارك مثلا..

فإذا ما كان لهذا الجار أفعى يُقدِّسُها، ويرمز بها إلى "الحب والسلام والتعايش"..، ثم أخرجها إلى الشارع وهو لا يبالي بتحرّشها بالناس، وجب اقتناصها، ولكن يُستحبُّ عدم قتلها احتراما لمشاعر ذلك الجار الطيب الساذج.. والحل المبدئي هو ضبطها وإعادتها إلى منزل جارنا وتوصيته بمراقبتها وتقييد حركاتها.. (سياق العلمانية).

وأما إذا تركها تتكاثر بأفاعي عديدة وهو لا يبالي بخروجها وقبيلها جميعا على الناس، فماذا يجب هنا؟

سؤال معلق لتأمل القارئ، (استشفافا لسياق ما بعد العلمانية...)

وعلى هذا الاسناد، يكون المثال في تمام المناسبة.. عمدت إليه عن قصد لتقريب الصورة ولو بأهون أشكالها فجاجة، ولإيصال الفكرة حتى إلى الأطفال.. وإلاّ فتعالوا لنرى لطف الأفاعي وسماحتها أمام ما نحن بصدده.

لإدراك واقعنا اليوم، يجب علينا استرجاع الصورة من جديد وتفحّصها وإعادة تصورها على ضوء فهمنا المعاصر.. صورة العالم والإنسان والمحيط والتراث والتاريخ كما انتهى إليها تعقلنا اليوم بفعل تراكم أكوام عملاقة من ثقافتنا العبرانية المشرقية، والتي على خلاف باقي الثقافات البشرية، لم تخضع للقطيعة الوضعية للعصر الحديث، ولم تندمج بالتالي في ثقافة العصر إلا بطريقة ذئبيه مراوغة.

بؤسٌ بالوصف المضاعف، إذا علمنا بان ثقافة العصر هي نفسها وإن تخلصت نسبيا، من براديغما مؤسسة على ما يسمى الميتافيزيقا، لم تتخلص بعد من براديغما الندرة والحرب والمنافسة.

لنتفحص مفهوم الدين أولا..،

هل يمكن أن نعتبر إقامة الصلاة بالمساجد، ومراعاة طقوس الأحد بالكنائس، وتعهد حائط المبكى بالمناجاة، والجهر بالأذان ودق الأجراس في المدن، وصيام رمضان، وإيتاء الزكاة، والحج إلى البيت العتيق هو الدين؟

هل يمكن اعتبار إقامة كيان على تعاليم النصوص المقدسة هو الدين؟

هل نعتبر المؤسسات الاجتماعية والطقوس والأعراف المستمدة من التراث الإسلامي أو اليهودي هي الدين؟

كل ذلك يمثل صورة لَمحِيّة لانعكاس الفكر الديني على لحظة من لحظات التاريخ.. قد تطول أو تقصر..

قد يخفت أثرها فتصبح مجرد علامة على ماضٍ.. وقد يطيب بها المقام على اجتماع راكد.. وحينئذ، فإن الدين كمنظومة أهداف، لا يتثاءب معها طويلا، فهو في شغل من أمره.. وسرعان ما يتحول عنها بعد ما اطمأن وارتاح إلى تعفُّنها تماما وموت الإنسان بها كما اقتضت أهدافه، آخذا معه ما خفّ وغلا من مكره، إلى جغرافيا أخرى. إلى أعراف ومؤسسات وتمثيلات اجتماعية جديدة أبدعها الإنسان بكدّه واجتهاده في معاركة الواقع المتجدد، ليعمل على قتل الإنسان بها هي

أيضا.. يدخلها بأثواب العصر، يتبنّاها ثم يَلعَن مُبدعَها.. ويشيع فيها مسلماته الفكرية التي تخدم أهدافه من دون أن يُعلن عن هويته.. فالدين بأهدافه من الإنسان، وليس بأعرافه في المجتمع.

الدين ليس شكليا.. والمباني ليست من مقاصده.. والغاية عنده تبرر الوسيلة.. ذلك أن الأعمال بالنيات.. فمن كان يرجو "إصلاحا" مثلا، جاز له الكذب.. ومعلوم أن أصحاب الدجل الديني كما السياسيين الفاسدين تماما، يعتقدون بقوة في أن مقاصدهم إصلاحا. لذلك سهل عليهم توسل غاياتهم بذبح الشعوب. وسهل على المؤمن البسيط، الاعتقاد في أساطير:

- عدالة الإله العبراني إذا ما دمر قرية بما فيها (لحكمة تغيب عن عقولنا القاصرة)،

- وفي عدالة الدكتاتوريات إذا ما حشرت آلاف الأبرياء في السجون (لحكمة يعلمها حماة المصالح العليا للوطن).

والدين يربأ بمقاصده عن أن تسكن إلى لحية أو صلاة أو ذبيحة أو تحريم لحم خنزير أو حتى إلى دولة دينية. وهو يعرف جيدا كيف يتخفف من الأسمال ويحافظ على جوهر أهدافه، وإن كانت بأسمال أعداء تاريخيين.. لأن مهمته لا تنصب ابتداء على أتباعه التاريخيين، ولكنها موجهة إلى الإنسان كيفما كان، وأينما كان.

وعلى هذا، يمكن أن نجد متدينا بالعرف القديم في طقوسه، ولا دينيا بأفكاره ومزاجه. والعكس أيضا صحيح.. بحيث يمكن أن نجد غير متسربل بالرسم الذي عُرف من الدين، ولكنه يحمل في فكره ومزاجه اللذان يحددان سلوكه، عصارة الدين ومضغته.

فما هي أهداف الدين؟

هي قطعا، ليست تحريم الربا مثلا.. لأنه لا يختص به.

وهي قطعا ليست تنظيم الميراث ولا تشريع الأوقاف، ولا عقوبة السارق، لأنها مسائل لا تختص به.. فالتشريع الديني للشأن العام هو تمظهر الدين في مؤسسات وأعراف المجتمع الموجودة قبله، ومحاولة منه لتبني اجتهاد الإنسان، والتعديل به، والإلغاء فيه، ثم توجيهه إلى أهدافه.

وعلى هذا، فأهداف الدين يجب أن نبحث عنها فيما يختص به الدين.. وهو العقائد.

ومن أجل الدقة والاختصار في آن واحد، نتوخى استجلاء ما يقدمه الدين في هذه المادة، بآخر طبعاته التقليدية حسب المتعارف عليه، وهي الإسلام.

نركّز مباشرة على ما يمكن تسميته بالعقيدة السداسية أو المُسَلَّمات الستّ.

وهي مسلمات قبليّة، ينبغي على الذات المؤمنة داخل هذه البنية أن تقبل بها ابتداءً، حتى يَهون عليها تطبيق ما يُملى عليها في النص المقدّس. فهي، بهذا المعنى، لا تعمل كمعطيات إيمانية فحسب، بل تؤدي وظيفة مركزية هي تعزيز مشروعية ما يُملى.

فإذا قبلت هذه الذات بـ:

1- وجود إله مفارق يطالب بالعبادة:

(بما ينتج نمطًا نفسيًا يقوم على الطاعة والتبعية)،

2- وأنّه بعث ملائكة:

(احترازًا من شطحات العقل وتأويلاته الحرة)،

3- واصطفى أنبياء من البشر:

(سدًّا لذرائع المبادرة التاريخية "الوضعية" في النضال والإصلاح الإنساني)،

4- وأنزل كتبا تنظّم الحياة:

(احترازًا من استقلال الإنسان بالتفكير والتشريع)،

5- وفرض الإيمان بالقضاء:

(سدًّا لذرائع السؤال المؤدي إلى تأسيس علوم الإنسان والمجتمع).

6- وبشّر بيومٍ للحساب:

(تأجيلًا للعدالة، وقتلًا لشغف الفطرة الباحث عن آليات سياسية دنيوية لها)؛

فإن هذه الذات تكون قد قبلت، بالضرورة، بأن كل ما يُملى عليها لاحقًا يكتسي مشروعية مطلقة، وقداسة منزّهة عن الخطأ.

أما إذا لم تُقبل هذه المسلمات الغيبية ابتداءً، فإن الاعتقاد في مشروعية ما يُملى من "هناك" يغدو مستحيلًا.

وعلى ضوء هذه البنود الستة، وإذا ما عزلنا أدوات العصر الوسيط من إله ووحي وأنبياء وكتب ويوم حساب، واستُبدلت بأدوات نظيرة لعصرنا، أمكن لهذه البنية نفسها أن تقوم وتشتغل داخل أشدّ ما يُسمّى بالدول الإلحادية أو العلمانية.

فالحكم الستاليني، على سبيل المثال، لم يكن امتدادًا لفكر ماركس بقدر ما كان حكمًا يشتغل بنيويًا بمنطق الإيمان والطاعة والقداسة.

وينسحب الأمر ذاته، بدرجات متفاوتة، على مجمل الدكتاتوريات والشموليات الحديثة والمعاصرة.

بل إن بعض السياسات الأمريكية والغربية عموما، وعند تأملها بتمعّن مركّز، تُظهر ميلًا بنيويًا إلى استكمال شروط هذه البنية الدينية نفسها، دون وعيٍ صريح بذلك. غير أن السياق الليبرالي الأشمل، المطعَّم منذ أكثر من قرنين بنبذ السلطة المطلقة والقيد الجمعي -الشرط المفقود في الأنظمة الشمولية - يحدّ من اكتمال هذه العملية.

وفي سياقات أخرى، خصوصًا في دول العالم الثالث، نجد من يطبّق هذه العقيدة السداسيّة بأدقّ من حذافيرها، وهو يحسب - في بلاهة سوداء - أنه يحارب ما أُطلق عليه اسم "الإسلام السياسي"، بينما لا يفعل في الواقع سوى إعادة إنتاج البنية ذاتها بأدوات مُحَيّنة.

لا علينا... نُواصل.

فالمعقول في مثل هذا الأمر الخطير، أمر تعقلنا للكون والحياة وتسيير شأننا العام وشؤوننا الخاصة، أن يكون العرض المتعلق بها، عرض الأنبياء قديما والدعاة حديثا، محل نظر وتمحيص دقيقين، ثم محل تثبت استقصائي عن مصدرها أيضا.

فإذا كان العارض يؤكد بإلحاح على نزاهة المصدر لعرضه واشتراط التسليم له قبل معرفة محتوى العرض، يكون الشاري القابل

بهذا الشرط، قد فقد نصف عقله.. أما إذا اكتشف بعد ذلك بأن المصدر هو الآخر مشروط بالتسليم به غيبا دون معرفته، فإن الشاري يكون هنا قد فقد عقله كله.

أن تشتري بضاعة دون فحصها ولا حتى معرفة محتواها مسبقا، ارتياحا إلى أن مصدرها هو الحاج عمر الذي "قيل" بأنه مشهور بأمانته، تكون تخلّيت عن نصف التحري.

أما أن تأخذ بضاعة دون فحصها، ودون معرفة ماهيتها ولا حتى معرفة مصدرها، ارتياحا إلى أنه قيل لك بأنها صنعت بمختبرات شبحية لا يمكنك التعرف عليها ولو افتراضيا، - ولكنهم "قالوا" أنها موثوقة-، فإنك تكون في هذه الحالة قد تخليت عن التحرّي كله.

وعملية الإيمان بالدين سارت على هذا النحو.. نسف التحرّي كله، منذ فجر الإسلام إلى اليوم.

يحدثنا كُتاب السيرة والتاريخ، عن نوعين من الدخول في الإسلام.. إسلام الأفراد، وإسلام القبائل..،

فإسلام الأفراد يتم مباشرة بعد إقناعهم بفساد الواقع، ثم القبول رأسًا بضرورة التحوّل عنه.. ولا شيء بعد ذلك واضحٌ من البديل، بحيث يتمكن المسلمون الأوائل من تفحصه واختباره.. لأن الإسلام كان لا يزال فكرة جنينية أولى تعتمد على تسفيه وثنية وهمية لم تكن

موجودة في كثير من خصائصها، إلا بوصفها خادمة للتجارة والسياحة، وتمجيد معبود واحد في السماء كانت تعرفه الحجاز في إلهها، وتعرفه اليمامة واليمن في رحمانها قبل ظهور الإسلام..

لم يكتمل الإسلام كدين - حسب الرواية الرسمية - إلا عند السنة العاشرة من الهجرة، سنة وفاة الرسول وإتمام النعمة.. أما حسب علم التاريخ فلم يكتمل كديكور ديني إلا مع عبد الملك بن مروان.. ولم يكتمل كإعادة صياغة كاملة من الجذور، وانطلاقا من "سياسة" الخلفاء، وليس من وحي سماء ولا هم يعرجون، تأريخا جديدا وسِيرا وسُنة وفقها، كما نُقل إلينا..، إلا مع العباسيين.

فالقول بدخول المسلمين الأوائل إلى الدين عن اقتناع، فيه مبالغة. والمنطقي أن نقول بخروج المسلمين عن الواقع "الوثني" عن اقتناع.[9] أو بالأحرى، أنّ سادة القبائل وأصحاب القرار، ساروا على رؤية واستراتيجيا "بدت واعدة" بعد إمعان النظر في الدعوة الجديدة والانتباه إلى توافقها مع حلمهم القومي المختمر منذ زمن، عن حكمة وطموح سياسيين، يتجاوزان السقف القبلي إلى سقف أُمّة.. نفهم ذلك فيما يلي من فقرات قريبة.

[9] مع التحفظ هنا أيضا. وإنما نورد هذا الكلام استصحابا للرواية الرسمية لأنها السائدة، تغليبا لتقريب الفكرة.

فمع إسلام الأفراد، كأنني – إذا عملنا بالرواية الرسمية - قبلتُ ببضاعة الحاج عمر، ليس لأنني فحصتها أو على الأقل عرفت محتواها، ولكن لان الحاج عمر نبّهني إلى أن البضاعة التي بحوزتي فاسدة...

وهذا ما يفسر- ما دامت الرواية الرسمية هي التي سادت **وصاغت العقول** فيما بعد - ما يجري في منابرنا اليوم...

لا أحد من دعاتنا بمقدوره أن يدعو الناس إلى الإسلام بدون أن يملك نفسه عن الكلام في "فساد" بضاعة غير المسلمين.. ولا تكاد تخلو خطبة منبرية من لعن الآخرين.. أو تسفيههم على الأقل.. أو مع بعض أصحاب الإسلام الإشهاري الذين "فطنوا" مؤخرا للمأزق، خصوصا منهم، المتواجدون بأوروبا وأمريكا، التعريض بالمُختلِف ولو على استحياء، كأضعف الإيمان. وعندما يحاول أولئك الدعاة أن يفصحوا عن بضاعتهم، فلا شيء غير الاستثمار في فطرة الإنسان الموجودة قبل ظهور الثقافة العبرانية، وادعاء حصريّتها عنهم.. ولا شيء غير السطو على إبداع واجتهاد الإنسان بمختلف جوانب الحياة بوقتنا الحاضر وتبنّيه.

فهذا عن إسلام الأفراد...

أما إسلام القبائل، فيكفي أن نتخيل سعد بن معاذ ينادي في قومه بعد أن أسلم هو على طريقة الأفراد، وكيف قال لهم:

[يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله. قالا، فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلم ومسلمة ...][10]

تلك الأبوة السياسية لا تزال تقليدا راسخا عندنا حتى اليوم، مع **مجتمعات مُتّهمة بالبعد عن الدين وأنظمة مُتّهمة بالعلمانية.**

ولقد لفت انتباهي بزمن الرشد العربي الأول وأنا أراجع مسألة إسلام القبائل، أمر الدعوة الجديدة في شعاب مكة وأسواقها..

فعندما تقرأ عن عرض رسول الله (ص) نفسه على أحياء العرب، تشعر بأن الجو العام قبل سلطة الإسلام، - على شدة وغلظة كانتا لازمتين في الطبع العربي لا يمكن إنكارها، لم تكن لتخطأ شخصا عاديا، بله فتى يريد قلب الأعراف- كان تعدديا وكان ديمقراطيا وكان إنسانيا تعايشيّا ومتقبّلا للاختلاف.. وإذا تتبعت خطوات الرسول وحريته في التنقل من حي إلى حي ومن قبيلة إلى قبيلة لعرض نفسه،

---

[10] سيرة ابن هشام. أمر العقبة الثانية. ص 201. ط 2 دار ابن حزم 2009

تعرف بأن ما يصف به المحرفون الجدد رشدنا الأول من جاهلية وتخلف، بعيد عن الحقيقة..

ولكن دعنا هنا نتعرف على بعض أساليب عرض الإسلام على القبائل:

بعدما انصرف الرسول عن قبيلة كندة التي رفضت عرضه، اتجه إلى قبيلة بكر بن وائل فقال: ممن القوم؟

قالوا من بكر بن وائل

فقال: من أي بكر بن وائل؟

قالوا من بني قيس بن ثعلبة

قال: **كيف العدد؟**

قالوا: كثير مثل الثرى

قال: **فكيف المنعة؟**

قالوا: لا منعة، جاورنا فارس فنحن لا نمتنع عنهم ولا نجير عليهم

قال: **"** فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم، حتى **تنزلوا منازلهم، وتنكحوا نساءهم، وتستعبدوا أبناءهم،** أن تسبحوا الله ثلاثا وثلاثين وتحمدوه ثلاثا وثلاثين وتكبروه أربعا وثلاثين**"**

قالوا ومن أنت؟

قال: "أنا رسول الله"...[11]

وندع التعليق هنا إلى القارئ... ونُذَكّره بأن يكون جادًّا بعض الشيء.. فقد عَوّدَنا الإعجازيّون على عدم الانتباه في مثل هذا الأثر وأشباهه، إلاّ إلى "الحكمة" الإعجازية الكامنة وراء تخصيص التكبير بأربع وثلاثين، بدلا من ثلاث وثلاثين المخصصة للحمد والتسبيح.. ولا عزاء لنساء تُنكح، وأبناء تُستعبد..

وفي مناسبة أخرى مع بني شيبان، وبعدما دعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم آيات في التوحيد وفي مكارم الأخلاق، أجابه القوم في أدب، معترفين له بالتفرد في هذه الدعوة، وردوه ردا جميلا بتلميحهم إلى أنه لا طاقة لهم باستعداء الفرس والعرب مرة واحدة.. فقال رسول الله:

---

[11] راجع البداية والنهاية. أبن كثير. ص 388. ج 3. ط قطر. 2015
يحسن التنبيه هنا إلى ما ورد في تقديم الكتاب من طرف المحققين، في المدخل، ص 75. حيث نقرأ :
[وفي القسم الثاني (السيرة النبوية، والخلفاء الراشدون) كان منهجه الاعتماد على رواة السيرة الأوائل، وما سجله ابن إسحاق والطبري وغيرهما. ولكنه بقيت شخصيته في الاختيار والنقد ظاهرة. يدرس الأسانيد، ويتكلم على الرواة جرحا وتعديلا، **ولا يهمل المتن إذا ظهرت عليه علائم الغرابة والنكارة]**.. كذا .
ويورد المحقّقون مثالا من "النكارة" التي بدت لابن كثير. وللوهلة الأولى ظننت بأنهم سيوردون النكارة التي أثبتناها بالفقرة التي تلي الرواية، غير أنهم تحدّثوا عن كتاب إسقاط الجزية عن اليهود وكيف أنكره ابن كثير وأثبت زيفه وبطلانه. أمّا ما أنكرناه نحن بمنطق عصرنا الفاجر، وبمنطق حقوق الإنسان الكافر، فيمرّ مرور الكرام في حمى عيني ابن كثير، وفي حمى أعْيُن محقّقينا الفطاحل المعاصرين في غير ما نكارة.
وعلى هذا فنحن نؤسس على ما تتالى مع الأيام عبر أجيال من العلماء والمحققين المسلمين. وما استوعبوه في غير ما " غرابة ونكارة"، وشاع في عموم المسلمين وصنع وجدانهم وتفكيرهم ومواقفهم. والأمر هنا يتعلق بالتاريخ المؤسس للديانة. أما إذا كان **العهد الأول** لتاريخ الإسلام **(عقيدة نبوية سداسية- ديكور أموي- محتوى عباسي)** لا يمثل الإسلام، فنحن قد وعدنا منذ البداية بأننا نلتزم مع جدّاتنا حدود الاحترام وحتى التقديس لإسلام اللا تاريخ الموجود في رؤوسهنّ حصرًا.

" فما أسأتم الرد، إذ أفصحتم بالصدق، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه".

ثم أضاف (ص):

"أرأيتم إن لم تلبثوا إلا يسيرا حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم، ويفرشكم بناتهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟"

فقال له النعمان بن شريك ردًّا على ذلك الإغراء، "غير الإباحي طبعا":

"اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش"..

فتلا رسول الله آيات بينات، ثم نهض قابضا على يد أبي بكر، لفرط تعجبه من مروءة بني شيبان، وقوة أخلاقهم.[12]

والحكم للقارئ...

يتضح جليا إذن كيف تعامل أجدادنا مع استقبال الدين الجديد، والذي ترقبنا نظريا على الأقل أن تكون الدعوة له، ثم الانصياع له، مؤسسان على الإيمان القبلي بالمسلمات الست المذكورة آنفا..

فأين محل تلك المسلمات من التاريخ ومن صناعة مستقبل الدين؟

---

[12] ابن كثير. المرجع السابق. ص 393. ج 3

الأفكار لا تبلى ولا تندثر.. لأنها ليست مادة.. يزول لباسها ولونها وحتى مذاقها المرتبط بسياق المكان والزمان، ولا يزول جوهرها..

والأفكار تسري في الزمان كطائر طليق لا يتحكم فيه نظام مرور.. ولا تعنيه حدود معرفية مرسومة بين العصور، ولا ضوابط عبور مفروضة من خيارات الحقب التاريخية المحلية، والمختلفة من التنوع إلى الخلاف.. وعلى هذا راهن الدين لتأبيد مسلماته الستة.

ولكن في المنطلق، كانت ظروف لمّ الشّمل على جماعة واحدة موحدة.. وعلى هدف واحد واضح.. قريب وعملي.. مغري وملموس المصلحة من أجل تعبئة النفوس..، أهم من المسلمات الستة التي "بُيِتَتْ" لها أدوار وأدوار لما بعد مرحلة الحشد، رأينا لُمَعًا منها آنفا.. وهذا ما يفسر ذلك الأسلوب الإغرائي في عرض الدعوة.

بعد استقرار الجماعة على جُند وثروة بالمدينة، بدأ التفكر في إرساء تعاليم الإيمان "إياها" بتفصيلها، وبدأ الدين الجديد في التميز "الشكلي" تدريجيا عن أرضيته متعددة المشارب (نسطوري، يهودي، وثني).

ولنفحص الآن مفهومنا للإنسان..،

كلمة إنسان في الثقافة العربية الأصيلة قبل الغزو العبراني، مشتقة من الظهور، عكس "الجن" في عرفهم، والذي يتميز بالخفاء.. أنشد ثابت بن جابر:

أتوا ناري فقلت لهم مَنُونَ أنتم... فقالوا الجنُّ قلتُ عِمُوا ظلاما

ومنه الأُنس أيضا، عكس الوحشة، كما جاء في لسان العرب..

فالإنسان في فطرته السويّة، وبالفهم العربي الأول، واضح ظاهر لا يحب التواري.. وهو في سعي دؤوب على استجلاء كل ما خفي من حوله بعالم الطبيعة.. وهو في نفسه واضح بمنطقه.. واضح بسلوكه.. وهذا أمر يجعل الدين في مهمة صعبة، بل تكاد تكون مستحيلة معه.. لأن الدين يعتمد في مجمل أرضيته العقائدية على عكس الوضوح تماما.. يعتمد على الغيب المتواري مثل عالم الجن.. وعلى مسلمات قبلية غير مشروطة بعقل أو بواقع.

وعلى عكس مفهوم كلمة إنسان، زمن الرشد العربي الأول..، نجد المفهوم في التراث العبراني الدخيل، يميل إلى أن الكلمة مشتقة من النسيان.. فقد أورد ابن منظور عن ابن عباس قوله: "إنما سمي

الإنسان إنسانا؛ لأنه عهد إليه فنسي"،[13] كما في قوله تعالى: "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما".[14]

والنسيان على هذا يصبح نقصا أزليا، يبقى عبر القرون عنوانا على الإنسان في الثقافة العبرانية بعدما كان العنوان على الإنسان في الثقافة العربية هو الظهور.. وللوهلة الأولى، يبدو ذلك العنوان عاديا لأن النسيان ظاهرة بالفعل، وإن لم يكن سلوكا وظيفيا ابتداء، بل حالة عارضة..

ولكن إذا علمنا بأنّ:

- **الحفظ**، ظهور على الشيء..
- **التذكر**، ظهور الشيء..،
- **النسيان** اختفاء الشيء..،

فإن البعد الانتقائي السِياسَوي للنسيان الذي يعتبر عارضا مقارنة بوظيفية التذكر والحفظ، يبدو جليّا في ذلك العنوان..

---

[13] الطبري. تفسير سورة طه. الآية 115.
[14] طه 115.

فلم يخطا الرشد العربي الأول إذن، في تعقُّل معنى كلمة إنسان **بمفهوم الظهور**.. وجانَبَ الصَّوابَ مع الأسف فكرنا العبراني الدخيل على أصالتنا العربية، عندما تعقل معنى كلمة إنسان **بمفهوم الاختفاء** استنادا إلى عارض.. وكأنه منذ البداية.. منذ التسمية، أراد أن يمحقه.

حتى وضعيّا..، لا نجد وجها لاشتقاق معنى النسيان من كلمة إنسان.. لأن الكلمة مشتقة من "أنس".. وهو الأُنس، أي **الظهور والحضور والتآلف**، تماما كما كان يجده العربي القديم..

فأين **الاختفاء والغياب والتخالف** العبراني من كل هذا؟

وسياق التفسير الذي أورده ابن عباس، حبر الأمة، يفسر لنا هذا " التَّبْييت " المُسبق للعُدوان.. فهو يحيل على نقائص أخرى مترتبة على النسيان.. وهي الضعف وقلة العزم، ونقض العهد... وهذه بحكم العنوان "المختوم" على جبهة الإنسان – استباقا لاستعباده - تصبح خصائص ومميزات للإنسان، "يُذَكَّر، ويُدعى إلى الانضباط" بها، لدى كل موقف يتطلب منه "تنازلات" عن عقله، أو عن إنسانيته، لصالح التعليمات الدينية المتعارضة مع فطرته.

هذا عن اسمه..، أما عن هويته فالإنسان هو ذلك الكائن "الميتافيزيقي" المخلوق، آدم أبو "أهل الكتاب"، الذين بسبب رؤيتهم

لأنفسهم مركزا للعالم، اعتبروا أباهم الأول، أو أحد بطارقتهم الأوائل، أبًا للبشرية. ومنه حواء المخلوقة من ضلعه الأعوج، ثم ابنيهما قابيل المزارع وهابيل الراعي..

الأول قتل الثاني.. أما سبب القتل فتقول الكتب المقدسة بأن الرب تقبل ذبيحة الراعي هابيل قربانا، ولم يتقبل قربان المزارع قابيل مما أوغر صدره على أخيه فقتله.

النصوص السومرية القديمة من جهتها أوردت ذلك الصراع بين الراعي والمزارع، وحسمته لصالح المزارع على عكس النصوص العبرانية المقدسة اللاحقة، التوراة والقرآن التي ركزت على كون المزارع لم يكن محسنا وكان مشرفا على الخطيئة (العهد القديم. سفر التكوين. الإصحاح الرابع: 1. 11.)، ولم يكن تقيا (القرآن: المائدة 27).

يمكن رصد الانسجام في الخط العبراني بهذه النقطة إذا علمنا الأصل الرعوي للشعوب السامية والمجتمع البدوي الأول من جهة، ومن جهة أخرى - كامتداد طبيعي- تقرير الإسلام بأنه ما من نبي إلا ورعى الغنم[15]. كما وردت أحاديث بخصوص التهوين من الرزق

15 - سيرة ابن هشام. مرجع سابق. ص 79

الذي يأتي عن طريق المزارعة، وكذا بخصوص اعتماد سياسة حرق النخيل في حصار العدو.

لعل تقديرا عاما يكون وجيها إذا علمنا بأن تاريخ العالم كله، وبالأخص تاريخ الهلال الخصيب وامتداده الجنوبي، وكذا تاريخ العالم العربي من الخليج إلى المحيط، عبارة عن سيمفونية رتيبة الإيقاع في الغارات التي يقوم بها البدو الرعاة على المزارعين الحضر.. ورد الفعل الذي يقوم به هؤلاء على أولئك.. وذلك إلى اليوم بسفور أقل، كأن يكاد يطبع حتى بعض النزاعات التنظيمية في مؤسسات حديثة، بل يكاد يفسر حتى بعض الثورات والحركات السياسية..

ومهما كان الأمر، فإن قضية:

القربان الهابيلي **الذبائحي** (الدموي) **المُتقبّل،**

والقربان القابيلي **الزراعي** (الإنتاجي الإبداعي) **غير المُتقبّل**..،

وسواء ثبتت الأسطورة أم لم تثبت تاريخيا، إذ لا طائل من وراء البحث في ذلك **ما دام أثرها في التفكير والاجتماع ثبت وعمل عمله..،**

فإنها تبقى في مدلولها الرمزي الذي يصنع تاريخ الأديان التوحيدية فيما بعد، ويحدد طبيعتها الدموية، ويُأبد سخطها على الإنسان وإبداعه، تبقى ذات خطر وأثر عميقين.. لا علينا...

ما يهمنا في محاور هذه التأملات هو أن الإنسان من بين كل الكائنات المعروفة لدينا، استطاع:

أن يستثمر ما في الأرض لصالح أغراضه بداية بالإنسان العاقل.

ويضيف إلى مثولها الطبيعي أشكالا جديدة من الحياة..، الإنسان الثقافي والحضاري.

ويسري على حطه وترحاله واجتماعه أنماطا معقدة من العلاقات..، الإنسان الاجتماعي والسياسي.

الإنسان العملي أولا..، فالإنسان المتأمل، فالمدرك أخيرا.

الطريق لا يزال شاقا.. وواعدا أيضا، لولا أن محاذير كثيرة تترصده؛

لقد تم التشويش على الإنسان العملي برعود السماء ووعيدها من خلال ظواهر الطبيعة غير المفهومة آنئذ.

وتم التشويش على الإنسان المتأمل بقذائف الغيب والسحر والطلاسم.

أما الإنسان المدرك فيتم التشويش عليه اليوم بالتركات الهائلة لهويات ما قبل السياسي. والوثوقيات التسلطية لما قبل الاجتماعي، والتكتلات والعصبويّات السادية لما قبل الراهن حيث انتشار ثقافة المستقبليات والنبوءات والنهايات فيما بين شباب الشرق والغرب أو الشمال والجنوب على سواء.. والعجيب أنها جميعا نبوءات لا تبشر إلا بالحروب والكروب.

قد تكون المراحل الثلاثة منظومة متكاملة تصف الإنسان الحديث الذي تمّ إلى اليوم رصد أثاره إلى 300 ألف سنة تقريبا[16]. ولا يمكن أن ننفي أو نثبت في هذه اللحظة وجود منظومات شبيهة أو مختلفة طبعت أجيالا متقدمة من مثال الإنسان في لعبة الكر والفر بين عقل الإنسان وبين الوضع المؤسس قبله على امتداد ملايين السنين.

وبعيدا عن حكاية القرود التي لولا المؤمنون بمقولة الخلق داخل هذه المؤسسة العلمية نفسها لما سمعنا بها،[17] يجمع العقلاء على أن وجاهة نظرية التطور تعود إلى فكرة الانتخاب الطبيعي كأداة إجرائية مؤقتة لتفسير ما هو مدرك إلى حد الآن. فلا مناص من تنضيد الكم

---

[16] Jean Jacques Hublin. Abdelouahed Ben-Ncer et al, » New fossils from Jebel Irhoud, Morocco and the pan-African origin of Homo sapiens », Nature, Vol. 546.n 7656, 7 juin 2017. P. 289-292. (DOI 10, 1038 /nature 22336)

[17] - حكاية أحفاد القرود لم يقل بها ولا واحد من التطوّريين. إنما كادها وردّدها المؤمنون، أصحاب قصة الخلق، سخريّة من التطوّريين وبَلَهًا كعادتهم.

الهائل من معارفنا في جهاز يتيح التفسير المبدئي، ويتيح الحركة أيضا والتقدم في استكشاف التطور البيولوجي للجسد بمعزل عن جوهره الإنساني، وفي نفس الوقت لا يغلق آفاق البحث بأيقونة المفاهيم. علما بان دارون - خلّده التاريخ- لم يغلق البحث فيها إلى نهاية حياته، ولكنهم رجال حماية السياسة العلمية – كما العادة – أو ما يمكن تسميتهم بالنسخة المستحدثة لسدنة الديانات، هم الذين سقّفوا أبعادها وخنقوا تنبّؤها وجعلوا منها صنما أكاديميا مقدّسا. ولا داعي للتمثيل بأنواع نهايات التاريخ والنظريات "المُتمِّمة للنعم"، والتي تحتاج إليها الأنظمة المتسلطة لاستقرار نفوذها ونموذجها.

فالمؤسسة الدينية إذن، والمؤسسة العلمية الرسمية التابعة لحكومات الشعوب، مؤسستان تعملان على تثبيت عملة واحدة تحدد وجهتي الاختلاف بين سكان الكوكب وتربطهم ربطا محكما إليها موزعة إياهم على وجهي العملة وفقط.

إذا كنت مؤمنا، فهذه نظرية الخلق.. خذها بقوة، والعن غير المؤمنين بها... وهاك مفاتيح الجوامع والمعابد والكنائس لتوجه منها الجموع انطلاقا من كون الإنسان لم يكن شيئا مذكورا.. وهو بذلك مدين بدين أزلي لمن جعله "شيئا يذكر".. وتحت تأثير هذا الدَّين المُبَكِّت، سنُفصِّلُ لكم أيها الظالمون أنفسكم السلوك الذي طلب منكم،

وحدود التفكير التي عليكم أن ترقبوها... وخذي يا حكومات في تفصيل وتصميم مجتمعات الإيعاز على ضوء هذا الشرط.

وإذا لم تكن مؤمنا، فهذا الشق المسيّس والمحرّف عن قصد من نظرية التطور.. خذه بقوة، واسخر وتفكّه على الباحثين في حضارات بشرية ممكنة تقدمت الإنسان الحديث... وهاك مفاتيح الجامعات والمعاهد "العلمية" لضبط حركة تفكير الإنسان انطلاقا من كون الإنسان لم يكن سوى قرد راقص.. ويمكن رد جميع حركاته بما فيها العقلية والشعورية إلى دورة جينية حيوانية... وخذي يا حكومات في تفصيل وتصميم مجتمعات الرفاه على هذا الشرط.

رؤيتان تبدوان مختلفتان ولكن لهما هدف واحد: ضبط عقل الانسان داخل مصفوفة وعدم السماح مطلقا بتجاوزها.

لا سماح بالمطلق لتجاوز وجهتي النظر هاتين، " المكرّمتين للإنسان تكريما يُحمدون عليه"، والمقترحتين من وجهي العملة الدينية الواحدة... وبهذا أمكن الحفاظ على أزرار الخلاف والحروب بأوج مرونتها ونجاعتها.. وأمكن مراقبة التفكير، وتوجيهه وحشر الإنسان في دوامة شكوك وعدم ثقة في أنه جزء من القوة الخلاقة بهذا الكون.. وأنه مساهم أساسي في تكوين المزيد من تشكلاته ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

بدأ فجر التاريخ، بالمجتمعات الطبيعية..

كان الإنسان العملي، أجدادنا الأُول، يتميز عن الحيوان في لا نمطية الاجتماع.. أي أنه اجتماعي بما يعيه بعقله. ولذلك تعددت أشكال الجماعة. على خلاف بعض الحيوان الذي يعيش في شبه جماعة، ولكن بصورة نمطية على مر العصور إلى اليوم.

وبما أن الطبيعة من حوله قاسية، والكائنات المعاصرة له ضارية، كان يتميز بالعصبية البشرية إن جاز القول.. كان شديد الالتفاف والتلاحم والتعاون.. مسيرة الإنسان العملي تعتبر من أنقى مراحل البشرية وأصفاها براءة وسذاجة وبداهة وعنفوانا. ومن أشقِّها بأسًا من كلّ الجهات على نحره. لقد عانى من الجوع والعراء والخوف والمفاجأة ما يفوق الخيال.

ولذلك كان الإنسان في هذه المرحلة هو المُراعى أولا وأخيرا من طرف أخيه الإنسان. لم تكن هناك حروب مؤسسة عدا صراعات طبيعية تظهر من حين إلى آخر على كلأ أو صيد أو مأوى.

إلى أن جاءت مجتمعات النخاسة...

وهي مجتمعات ما قبل السياسة.. فمع الإنسان المتأمل الذي تم التشويش على تأمله بقذائف الغيب والسحر والطلاسم الدينية كما تقدم، تغير الأمر من رعاية الإنسان إلى رعاية الآلهة.. ودشنت بذلك أول طعنة في ظهر حقوق الإنسان. فبعدما كان الإنسان أولا وقبل كل شيء، خنس وضعه إلى آخر المراتب،

في بعض المجتمعات وراء مرتبة الحجارة المقدسة.

وفي بعضها وراء مرتبة الحيوانات المقدسة

وفي أنعم سوءاتها، ولكن أخطرها وأمكنها، وراء مرتبة الأوهام المقدسة.

في هذا الطور من أطوار التاريخ، طور النخاسة، والذي يعود إلى بداية الديانات المنظمة مع انتقال الإنسان من الصيد إلى الزراعة حوالي 10 آلاف سنة ق م، استبيح الإنسان حيث كان يقدم قربانا لغوائل الطبيعة، ثم أصبح يوظف آلة قتل واقتتال رخيصة في حروب العقائد مع ديانات التوحيد العبرانية المتأخرة بدأً من نهايات الألف الثانية ق م، وإمبراطورياتها الكبرى بدأ من القرن 4 ب م. ثم بعدها مع نسختها المُعَدَّلَة. وهي الإيديولوجيات الشمولية في القرن 20 التي نعرف جميعا كمّ المجازر التي حدثت بأداتها في الحربين العالميتين،

ثم بأداة النظام الدولي التوحيدي المعاصر، والمستحدث هو الآخر من الإيديولوجيات الشمولية.

وديانات التوحيد، انتقل معها الدين من طور التقديس إلى طور العبودية..

حيث كان الإنسان البدائي قبلها يقدس الأشياء الغامضة التي تغيب عن فهمه وإدراكه ولذلك تعددت فيها الآلهة.. إلى أن تسلل الفكر الديني إلى المجتمعات العبرانية مرة ثانية قادما هذه المرة من الرافدين عقب سبي بابل في حسرة، بعد أن تأكد من عدم "وفاء" الإنسان الحضري إلى البضاعة الدينية وملاحظته بأن الحضارة السومرية وامتداداتها ما بين النهرين سرعان ما تحولها إلى عادات و فلكلور وتنصرف إلى جِدِّها الإنساني..، فاختار[18] هذه المرة مع عزرا الكاتب (القرن 5 ق م)، أن يحاول مع البدو المطرودين اليائسين. ويؤسس لهم مما جلبه عن السومريين والبابليين من أساطير أولى وتصورات للكون، ومن تنظيم حضاري وقوانين..،[19]حياة حضرية يكون هو

[18] أرجو من القارئ الكريم أن ينتبه إلى كوننا نرصد الفكر الديني كوعي مستقل بذاته، يوجه الأفراد والجماعات.. تذليلا للفكرة في مشهد.
وللتوسع تاريخيا بهذه النقطة، يفضل الإطلاع على كتاب " الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم"للدكتور فراس السواح.. وهو مخصص لمناقشة أطروحة المؤرخ المرموق كمال الصليبي حول توراته الحجازية..

[19] عاش عزرا مدة من الزمن في الحامية الاخمينية حول القدس في القرن الخامس ق م. وكان متشبعا بالزرادشتية التي أزهرت بعد سقوط بابل وأفادت منها. فأخذ عن محفوظات مجمع القصور الملكية (مدينة الفرس) كل ما سهل له فيما بعد تأسيس الدين اليهودي (بأثر رجعي) أحداثا وأشخاصا وتعاليما.

الرائد فيها و "مبدعها ومنزلها عليهم من السماء".. ولكن، وحتى لا يكرر (أي الدين) خطأه السالف، ثبّت فكرة الإله الواحد الأخناتونية - التي كانت موجودة أصلا – حسب نصوصهم نفسها- في المجتمع الأوّل مع النبي موسى حوالي القرن 13 ق م - إلهً "محليّا" أو قوميّا، ونفى الآلهة الأخرى جميعا.. وبهذا يستطيع إملاء وتمرير ما يريده من سادية عليهم، ثم من خلالهم، إذا نجح في تعبئة جيش وصولة كما في عهدهم الأول مع الأنبياء الملوك، عبر القهر والحرب والإرهاب، على باقي الإنسانية وإن لم ينجح تماما.. وكذلك حاول (الدين) بعد ذلك بنجاح ملحوظ مع العرب لاكتسابه تطورا في الخبرة مع الزمن.

الاختلافات بين الشعوب والمجتمعات شيء طبيعي بعامل الجغرافيا ولا نمطية المسار الحضاري التي تميز الإنسان.

الخلافات، والنزوع أحيانا إلى العنف لحلها شيء طبيعي أيضا لأن الإنسان عقل..، ومع كونه عقلا، حافظ على حيوية جميع غرائزه.

فالاختلافات طبع جيني جغرافي حضاري.

أنظر: سهيل زكار. التوراة، ترجمة عربية عمرها أكثر من ألف عام. ط1 (دمشق. دار قتيبة. 2007) ص 68 وما بعدها.

والخلافات العنيفة حال تعتري الطبيعة وليست فطرة.. وضع سياقي طارئ على العقل بتلاقح مع الغرائز من خارجه. ولا يقوم بها.. بدليل وجود موضوعي لما نعبر عنه بعودة الإنسان إلى رشده.

غير الطبيعي هو أن تكون هذه الخلافات ثابتا طبيعيا معلوما من الهوية بالضرورة.. وهذا ما رسّخته ديانات التوحيد بدوغمائياتها - ونسخها المعاصرة من إيديولوجيات شمولية ثم نظام دولي توحيدي جديد- باكتشاف واستخدام أولى مصائب البشرية وأولى بذرات العنصرية: الهوية المقدسة.

فبتوجه الاهتمام إلى مراقبة قوى متوهمة أسمى من الإنسان واستشفاف طلباتها، دخل لاعب ثالث بين الإنسان وأخيه الإنسان، فانشطر الإنسان على نفسه بهويات متعددة.. وهان عليه جنسه فاستباح استعباده وحاربه على الهوية بعدما كان يحاربه على أغراض حيوية وموضوعية خارجة عن ذاته، قابلة للحل أو التفاوض أو المصالحة بعد الحرب أو حتى قبل وقوعها.. فحروب الهوية، موضوع الحرب يكون فيها، هو الإنسان نفسه بما يتمثله في ذاته لا بما يملكه. الأمر الذي يدع المصالحة مشروطة باستعباد طرف لآخر أو تصفية أحدهما. وبهذا تؤبد الحروب إلى أن يتهالك البشر ويفنوا

بعضهم بعضا أو يخضعوا جميعا إلى نظام واحد أوحد يسوقهم كالأنعام.

روح الإنسان والمادية الدينية

بدأ الإنسان يتحسس مشاعره وعواطفه ويضبطها تفاعلا مع المحيط الاجتماعي من جهة والمحيط الطبيعي من جهة أخرى

تفاعله مع المحيط الاجتماعي أعطاه بديهة تنظيم الحياة الجماعية ومنها إلى تطوير حياة سياسية أسلمت فيما بعد إلى قوانين وحقوق وأنظمة وغيرها.

تفاعله مع المحيط الطبيعي أسلمه – بعد طول عنت من التوجس والمخاوف والطقوس - إلى التجربة والاختبار والمساءلة العقلية كبداية جنينية للعلوم.

فتفاعل المشاعر أولا، ثم تفاعل العقل معها، أدى إلى تمثل الإنسان لإنسانيته كاملة، عقلا وغرائز، أو روحا وجسم. وتحقق من ثمة في نفسه بما يميزه عن الحيوان.

كان هذا هو الخط السليم، لولا أن الديانات العبرانية تدخلت، فحدث أن دشنت الفكر المادي الغريزي الصرف في تاريخ الإنسانية.

فبعدما بدأ الغيب يتكشف إلى الإنسان بوصفه محل حدس مشاعري مشوب بفضول ومغازلة، ثم مساءلة عقلية كعملية إنسانية طبيعية، أصبح الغيب (غير المدرك علميا بحقبة معرفية إنسانية محددة)، أصبح ملأ أعلى مفصول في أمره وليس من اختصاص الإنسان وعقله القاصر.. بحيث جاءت من هناك، شرائع وعقائد.

الشرائع تعفي المؤمنين من تفاعل عقولهم مع المحيط الاجتماعي، ليسند ذلك إلى ألواح، ونصوص مقدسة

والعقائد تعفيهم من تفاعل عقولهم مع المحيط الطبيعي، الكوني خصوصا، ليسند ذلك إلى سدنة المعابد الذين كانوا يحتكرون التقرير في حقائق الكون والطبيعة.

فماذا بقي لعقل الإنسان؟

طبعا، هذان الإعفاءان أبقيا الإنسان في اختصاص دائرة الغرائز وفقط.. أي في طوره الحيواني المادي.

كانت البداية على هذا النحو إذن، ثم تطورت إلى تلبيس أكثر تعقيدا فيما بعد.

ولقد كان أول خط معارضة إنسانية لذلك، بروز مفهوم العلم عند اليونان.. ظهر بشكل تفرقة مفصلية بين معرفة الآلهة والمعرفة

البشرية.. فمعرفة الآلهة ليست متاحة إلا للمؤمنين، وتحصيلها لا يكون بإعمال العقل ولكن يكون بتبني دين الملك أو المؤسسة العرفية القائمة أو مجرد المؤسسة الصامتة ذات الحمولة القيمية المحلية للمحيط.. أي بمجرد اتخاذ موقف سياسي بتوصيفنا المعاصر.، فضلا عن كون الآلهة ماكرة ولا تعطي من العلم إلا ما تريده وتخفي ما تريد (تماما كما أنظمتنا الشمولية والتوحيدية بعدها).. ولهذا لفظها فلاسفة الإغريق وشككوا فيها وعكفوا على المعرفة البشرية التي يتم الحصول عليها بشكل إنساني طبيعي.

أكبر خطأ مفاهيمي يُرسّم بالتقادم:

فالفلاسفة الذين فكروا في الإنسان الطبيعي المشهود لم يرفضوا ما وراء المشهود، ولكن رفضوا بضاعة سماسرة ما وراء المشهود.. ولأن الضغوط كانت عليهم من كل حدب وصوب، ولأن الأمور تسيّست مع الدين الذي لم يرض إلا بتأميم المجال العام، ذهب كثير منهم إلى إنكار وجود ما وراء المشهود.. وهم من عرفوا فيما بعد بما يسمى فلاسفة ماديون.

والخلط الذي حصل في تقييم مسالة الروحي والمادي، هو أننا اعتبرنا منذ قرون بأن ذلك الموقف السياسوي المشبوه موقفا روحيا..

والموقف الإنساني الطبيعي موقفا ماديا. وهذا أكبر خطأ مفاهيمي يرسم بالتقادم على الإطلاق.

الذي يقفز على العقل، ويذهب مرتاحا ومتحللا من عنت التفكير – والتفكير عكس التفكر، عملية روحية بامتياز- إلى هوامات غير مرئية للمحسوس ولا معللة للعقل، منطلقا منها في إسقاط كوارثها على قسر واقعنا وتطويعه ورده في النهاية إلى دورة دم وغنم ونهم، كيف نعتبره سمى بنفسه إلى علياء الروح وخرج من وحل المادة؟؟؟

أين الروح في تعطيل الجانب العقلي في الإنسان وتجميده، وإسناد وظيفته إلى ألواح ونصوص قذفت بها إلى الأرض هوامات ما أسموه عالم ما وراء الطبيعة؟

أين الروح في احتكار التشريع للناس وإيقاف سنن انعتاق العقل بشكل طبيعي تدرجي نحو رشده؟

أين الروح في احتكار حقائق زائفة للطبيعة -وما يسمى تدليسا ما وراء الطبيعة- والكون والحياة وأصل الحياة وترهيب الناس بها؟

أين الروح في العنصرية الدينية، والأمر بقتل المختلفين في الرأي والعقيدة؟

أين الروح في تقسيم البشر إلى شعوب مختارة وإلى همل من المخلوقات وتأليب بعضهم على بعض؟

كيف أمكن لموقف سياسوي انتهازي مصلحي أناني آني، انحاز آنئذ إلى هكذا تعليمات أن يوصف بأنه سلوكا روحيا؟

أو كيف أمكن لموقف ساذج لكنه طماع، بريء لكنه مغفل، محب للخير لكنه عاجز، ارتمى في سراب هكذا تعليمات أن يوصف بأنه سلوكا روحيا؟

والحال أن صاحب الموقف الأول يحتاج إلى حجر وسجن.. أما صاحب الموقف الثاني فيحتاج إلى إسعاف ومصحة نفسية.

لعل التقسيم المعتمد في المدارس الكلاسيكية – التي كيفما كانت لم تتخلص تماما من ثنائية ديانات التوحيد في تصور الوجود- لعالم الروحانيات، وهو جميع ما قالوا بأنه وراء الطبيعة وعالم الماديات وهو جميع ما قام بها، وكون الديانات أقصت وأخفت مصادرها في عالم ما وراء الطبيعة هذا، هو الذي كان وراء هذا اللبس المفاهيمي.

وهذا ما جنيناه من تسييس البحث الأنطولوجي...

قد يقفز إلى ذهن القارئ استفهام منطقي، وهو أن هذه الثنائية عفا عليها الزمن منذ أن تطورت الأبحاث بفيزياء الكم..

هذا جميل.. وهي نظرية تؤول إلى صالح الإنسان.. ولكن المكر الديني يحاول عبثا جرها ولوي عنقها إلى صالحه.

أقول، عبثا.. وفي غير ما كبير جدوى.. لأن المشهود كان و لا يزال في عرف الإنسان وعلومه المُحصّلة بشكل طبيعي، أمرا **نسبيا**.. فلا تمثل له نظرية الكم مشكلة، وإنما هي تقدم في الفهم وتطور في الإدراك.. ثم لا تعدو بعد ذلك مسائلها التفصيلية أن تكون منتظمة هي بدورها – بالنسبة لمراصد البحث العلمي- بعالم المشهود.. لا يثلم في ذلك طول انتظار، ما دام الإدراك العقلي والتوصيف المنطقي للمسألة على الأقل، تم ضبطه.

فالجميل هنا، بداهة القاعدة: مدرك وغير مدرك بعد.

على خلاف اللا مشهود الذي كان و لا يزال في عرف الأديان و "علومها" المُحصّلة بشكل غيبي مشبوه، أمرا **قطعيا**.. وبهذا فإن النظرية تمثل له مشكلة.. ففضلا عن مسالة القطع بعدد الحوت بالبحر، تبرز لدى الدين على حين غرة، صخرة نسبية اللا مشهود المنتظم في مجال واحد مع المشهود.. لا يفصل بينهما طبيعة وجودية.. ولكن الذي يفصل بينهما هو قصور إدراكي نسبي مؤقت - ولو دام عصورا- ليس إلا، يتعلق بفهم الإنسان للوجود وليس بواقع الوجود نفسه.

والقبيح هنا، فجاجة القاعدة: مدرك و "لن" يُدرك.

وليكن..، هذا الذي لن يُدرك..

من الذي يقول ذلك؟ لعل أحدنا أدركه، ثم جاء يُكذب نفسه بقوله لن يُدرك... (دجل)

وما هي مصلحته؟ لعل العالَم نفض يده من العالَم، ثم ذهب يبحث عن شيء لا يُعرف ولا يُدرك... (غباء)

وما الهدف منه؟ لعل أحدنا أراد أن يُسيِّر مدركاتنا بمُدرَك عن غير مُدرَك.. (من أين جئت بالبضاعة إذن؟)

فلا مشكلة للإنسان إذن مع ما يمكن "تخيله" غيرَ مُدرك.. وإنما يبدأ الدوار عندما تبدأ بعض التمويلات في التدفق داخل القطر من الخارج.. ومن أرصدة مجهولة.. فإذا ما ضُبط المشبوهون، قالوا لمصالح التحقيق: لن يمكنكم معرفة أصول هذه التمويلات، لأنها جاءتنا من جهات خارج مجال المراقبة القطرية في بلدانها، وخارج مجال المراقبة الدولية أيضا.. **فهي ليست فوق القانون فقط، ولكنها أيضا، " تغيب " عن القانون!!**

فإذا ما سألتهم المصالح عمّاذا عساهم فاعلين بهذه البضاعة، أجابوا: **"سوف نصنع بها القانون"**...

هذا الثعلب من ذاك الثعلوب...وهنا لا حيلة لي في عدم إغفال حقيقة كون المحتالين بالقانون الذين ننعتهم اليوم بالبعد عن الدين، وب

" العاصين "، يُعتبرون امتدادا طبيعيا لجوهر الدين. وسلوكهم من صميم الدين وحقيقته.

لا علينا...

فكثير إذن، من الأبحاث الروحية الإنسانية اليوم تنهل من إيحاءات نظرية الكم.. وهي أبحاث تخلط الأوراق على الميتافيزيقا التقليدية، خصوصا منها العبرانية التوحيدية المؤسسة على الثنائية التراتبية للروح والمادة.. والتي تحاول اليوم عبثا نقض العهد مع تلك الثنائية، وإعادة صياغة نفسها بما يَحشُرها في وفاق كاذب مع السياق العلمي الجديد.

وبمواقع التواصل أيضا، هناك شغب جديد بدأ يعود إلى معانقة ما كانوا يسمونه فكرا باطنيا "مدسوسا"، ناقضا ما كان معروفا ورأيا للجمهور ماضيا وحاضرا، ومدعيا بأن الغنوص هو الجوهر، تمهيدا لإيجاد تلفيق جديد ينسجم مع نظرية الكم.. وهذا تلاعب مفضوح.. ذلك أن مقتضى المفارقة (التعالي) الفائقة، والذي يعتبر ركيزة العقائد العبرانية جميعا، يتناقض رأسا مع النظرية ومع الغنوص معا.

حتى الحركات الدينية الجديدة المشبوهة التي ظهرت بأمريكا بالعقود الأخيرة ركبت الموجة، كعادة الدين المعروفة على مر التاريخ..، وهي قطع الطريق على إبداع الإنسان وتقدمه في فهم العالم

بمحاولة احتواء، ومن ثمة، توجيه فهمه وفتحه الجديد في معرفة العالم، إلى وجهة متناسبة مع أهداف الدين المشبوهة.

فالأبحاث الروحية الإنسانية اليوم بدأت تشق طريقها نحو شيء من الوضوح الانطباعي على الأقل، وهي لا تزال في مستوى الفرضيات. وكما يمكنها في النهاية أن تسفر عن فرضيات غير ذات قيمة، وهذا لا يوقف الكون..، يمكن أن تنجلي على مرمى سنوات قليلة كثير من الحقائق التي كانت حكرا على السيناريوهات الوهمية للسمسرة الدينية المتاجرة فيما لا تمتلكه.. ونحن لسنا مستعجلين على أي شيء.. فكل إنسان ابن بيئته وعصره وإمكانياته ووسائله وإدراكه.. فالعجلة فرصة من ذهب، للدجل الديني في "إسعاف" الحائرين التائهين المستعجلين.

وقد بدأ بعض الدعاة عندنا منذ مدة في مهاجمة تلك الأبحاث مخلطين بينها وبين الحركات الدينية الجديدة، ولكن على طريقة: هذا لا يقوم عندنا...

لا تدليل ولا دليل ولا بديل. فهم يكتفون بنسبة الاثنين معا إلى الباطنية وكفاهم هُبَل شر القتال...

وهذا دور معروف أيضا عن الدين ومهمة أصيلة فيه، بل هي المهمة الرئيسة.. وهي تقسيم دماغه الخرف إلى سبعة رؤوس.. كل

رأس بشعب ولغة وثقافة.. ثم يخاصم بعضه بعضا... تنكيدا على الإنسان، وشلا للعقل، ومنعا للتطور.

ولكنهم في رياحهم على كل حال..، سوف يستمرون على هذا الضرب من الاستدلال الاستعلائي والتلاعب المقصود ما شاء لهم متاعهم ومراحهم.. ما دامت مجتمعات الإيعاز بهذه الربوع، تسمع وتعي وتُحمدل وتُحوقل.

ونحن في هذه التأملات، لا تمنعنا بداهة النظرية من البسط بعض الشيء في ثنائية المادة والروح.. لأننا نوجه الحديث إلى القارئ العربي بالدرجة الأولى، وهو قارئ بامتياز على عكس ما يروج عنه، إلا أنه مع الأسف لا يزال حبيس تلك الثنائية بسبب السياج العقائدي المحكم على تفكيره.

فعالم الطبيعة إذن، فيه الذهني الذي يدرك صوريا بالتجريد، وفيه الشيئي الذي يدرك حواسيا بالمعاينة، وفيه العاطفي الذي يدرك شعوريا بتفاعل العقلي مع الشيئي.. وفيه أبعاد طاقة أخرى ليست مفهومة بعد، وأخرى قد تكون مفهومة ولكنها غير مرصودة بدقة مقتضى العلوم بعد.. وفيه النماذج الكلية والأنساق والمفاهيم وجميع ما نتعقّلُه بوصفه أفعال وحركات غير مادية تجري في رؤوسنا داخل

الطبيعة وفي عالمنا وليست خارجها.. وهذا كل يؤسس لتمام حركة الإنسان والكون.

ما ينتاب مشاعرنا وما يجول بخاطرنا موجود بوصفه حركة الفعل ذاته. ذلك أن الفكر والشعور عمليات فعلية ماهيتها الحركة وهي ليست أعيانا ذات أساس مادي ملموس.. وكونها ليست أعيانا لا يخرجها من عالم الطبيعة.. تبقى مسالة استقلال وجوده عن الجسم المادي المحسوس من عدمه شيئا لا يغير في حقيقة وجوده بعالم الطبيعة. لأننا بكل بساطة، نجده في ذواتنا.. فالفكرة، حتى وإن كانت وهما، هي موجودة بعالم الطبيعة، لأنها تدور في أذهاننا نحن، ونحن موجودون.. على غرار بديهة ديكارت.. وهذا ما جعلنا نحلل الأوهام في صفحاتنا هذه، ونقيم لها وزنا... لأنها موجودة بالفعل، تسعى على قدمين، وتمارس أنشطتها الإجرامية بكل حرية.. ويقابلها ضحاياها بالبِشر وبالتهليل.

خوف من أسموا أنفسهم بالماديين من مآل محتمل لترسيم فكرة العقول الكلية المفارقة، واعتبارهم بأن ذلك يؤدي إلى دعم الديانات هو الذي أوقعهم في هذا التصلب على نفي ما يسمى خطأ البعد "الميتافيزيائي" بالإنسان. وخوفهم هذا لم يكن سوى رد فعل لسطوة الكنيسة، وإلا ما كان ليكون من أساسه. فهو خوف سياسي ابتداء،

تحول إلى تنظير معرفي. وأسلم إلى كوارث قطعية وثوقية هو الآخر، وتحول إلى دين جعلهم بحق ماديين وظهر عملة لرجال الدين، بتطور أطروحاته إلى حد اعتبار الزمان الإنساني دورة بسيطة منتظمة كما الزمان الحيواني يمكن رصدها وردها إلى أساس جيني بيولوجي.. وهذا بالضبط ما يريده الدين كما سبق وأن أوضحنا. وهو أسلوب آخر، أفاده الحكام من الدين، أي يحدد ما يريد، ثم يرسم نقيضه، ويلبسه طرفا آخر، ثم يعمل على تنميته وتطويره بأسلوب غير مباشر تأجيجا ومحاربة.

فكلمة "ميتا فيزياء" قد تخدم العلوم منهجيا، ولكنها لا تخدم الفلسفة. قد تساعد العلوم على التدقيق التصنيفي وضبط الركام المرصود مبدئيا كما كان الحال مع أرسطو وفلسفته الأولى، ولكنها تضلل الفكر بقطع الطريق أمام رحلة الأمل في الاستكشاف والمساءلة لا المحدودة.

فالكون ليس طبيعة وما وراء طبيعة.. ولكنه مدرك وغير مدرك بعد.. طبيعة متعددة الأبعاد. طبيعة حية، ووحدة متكاملة كما يعيشها الإنسان ويشعر بها في حاجاته البيولوجية وحاجاته النفسية وتأملاته العقلية ككل متجانس.. فيه ما تم ضبطه بما يقتضيه الشرط العلمي، ومنه الذي لم يتم سبر غوره بعد.

وبمنطق براغماتي بحت، أنت تتحرك بجسدك وبشعورك وبإدراكك. هذا أمر يجده كل شخص في تجربته وهو يمارس حياته. طبيعة واحدة بأبعادها الثلاثة. بيولوجي/نفسي/عقلي. لا يمكن أن تغيب عنك مشاعرك.. أنت تعرفها جيّدا لأنك تعيشها، فهي طبيعة. وكذلك أفكارك. أما إذا كان العلم لم يتوصّل بعد إلى ضبط دواليب الشعور كاملة، أو إلى ضبط آليات التفكير كاملة، أو إلى ضبط مستويات أو أبعاد أو أروقة الزمن المتوازية في ذات وجودنا نفسها، فهذا شأنه.

الكون، كل الكون بأعيانه المادية وجواهره المستقلة، وحركاته بتعدد أبعادها، طبيعة. والإدراك البشري مسيرة متواضعة تمشي بخطى متعثرة ولكن دؤوبة في عالم الطبيعة. في هذا التصور لا وجود لشيء اسمه ما وراء الطبيعة.. ولكن يكون من العلمية بمكان الحديث عن ممكن الإدراك. أي المجال الطبيعي الذي لم تصل إليه المعرفة البشرية بعد، ولكنه لا يستحيل على العقل.. وقد لا يصل الإنسان إلى الإحاطة بكلّه أو جلّه أو بعضِه في ملايين السنين.. لسنا ندري.. الثابت الذي ندريه، وعن يقين وخبرة ومنطق ومشاهدة، هو أن الدين بحروبه وتمييزه بين الناس وبفتنه، وباحتقاره للعقل وازدراءه لعلومه ومعاداته للإنسان، ليس مؤهّلا لاختصار تلك المسافة المهولة من الزمن.. ولا حتى لاختصار لحظة من ضُحى.

- ثم ما الدين؟ وما دعواه هنا؟ هل هو علم؟

- كلا.. إنما هو وحي..

- وما الوحي؟

- هو كتب تشرح برنامجا لممارسة الحياة وتصور الكون، نزل به – والعهدة على إخبارييناـ كائن فضائي على بشر من بيننا..

- جميل.. طيب، لا إمكان للتأكد من كائنك الفضائي، ولا للتأكد من إخبارييك الغابرين... **هات البرنامج!**

ادرسوا البرنامج هداكم العقل.. ومن دلّكم على ما يسبق البرنامج، اقبضوا عليه فورا، بجريمة تمرير مخدرات، في محفظة دبلوماسية.

والاختلاف المدرسي الذي طغى على رسم أولويات التفسير منذ اليونان، ثم من هيغل إلى فيورباخ إلى ماركس والمدارس بعدهم، وهو اختلاف منهجي اعتباري، خرج عن طبيعته المنهجية الأداتية مع الفلاسفة أنفسهم وانتقل بفعل عنت السياسة المختلطة بالتيارات الدينية، من أداة تفسير لموضوع إلى تمثيل الموضوع نفسه، واستحال بهذا إلى مفهوم سياسي يجري بالتاريخ بدل أن يحتفظ بوظيفته كأداة اعتبارية وفقط. ومن هنا دخلنا معضلة ثنائية المادية والمثالية.

فالفلاسفة السابقون، المثاليون والماديون دخلوا، من بين عديد من المسائل، في منازلات وجود أو عدم وجود الأساس المادي التشريحي البيولوجي، أعضاء أو أحماض أو غدد، للمشاعر والعمليات العقلية. وبناء على عدم الضبط القاطع بالشرط العلمي لوجود هذا الأساس المادي التشريحي آنئذ، أنكر الماديون وجود الجانب الروحي في الإنسان كجوهر مستقل وأثبت المثاليون ذلك، أي أثبتوه كجوهر مستقل.. أما لاهوتيو الديانات، فلم يلتفتوا إلى روح الإنسان من كل ذلك الجدل إلا لما اختص باستدلالات المثاليين على وجهة نظرهم، من أجل توظيفها في الاستدلال على وجود عالم ما وراء الطبيعة، ليطنبوا بعد ذلك على مقاس نزواتهم ونرجسيتهم الدينية، في وجود الآلهة بصفات ملوكهم، والآخرة وعذاب القبر وغير ذلك.

فأكبر مستفيد من هذه المعضلة/الخطأ هو الدين.

ذلك أن الدين لا يملك شيئا من الشعر أو العقل ابتداء.. فهو ذا أساس غريزي.. يشتغل على مخاوف الناس ورغباتهم ليؤسس منها جهازا تبكيتيّا يوجه به الجموع..

ولأن ذلك الأساس الغريزي سوف لن يعمر في الأرض ولن ينطلي على العقل البشري التائق أبدا إلى رشده، كان الدين في أمس الحاجة إلى هذا الاختلاف بين المفكرين لينقضّ من خلال هذا النزاع

على منظومة يحتاجها هي المثالية، ويطور لها في أوساط الشعوب المتديّنة مفهوما آخر يخرج بها مؤقتا عن مثالية كانط، (عالَم الجانب العقلي والعاطفي في الإنسان) إلى مثالية هيجل، (عالَم الإيمان بما وراء "المحسوس").. وهذا المحسوس لا يكون في مغالطاته سوى ما حدّده مسبّقا بعالم الطبيعة، ليسند من ثمة إلى ذلك العالم المبهم – ما وراء الطبيعة- كل ما أراد من تعليمات ولوائح وكوارث.، ثم يعود بها مرة أخرى على مثالية كانط، عاملا فيها تخريبا وتشويها

تضحى بعد ذلك جميع استدلالات الفلاسفة المثاليين تصب في صالح الدين بطريق مباشر أو غير مباشر. وقد أفاد المد الإخواني الإسلامي المعاصر من هذا جميع تنظيراته التي غزا بها العالمين العربي والإسلامي.

ومن مفارقات هذا الأمر أن أصبحنا نتبنى خلاصات المناقشات حول الإلحاد التي تتم في أوروبا.. أوربا التي تناقش مسائل الإلحاد كمرحلة متقدمة جدا في مجال الحياة.. إذ أن الغاية هناك من تلك المناقشات ليست تطبيق شريعة موسى في المجال العام، فالمواطن هناك سواء كان مؤمنا أو غير مؤمن لا يفكر البتة في العدول عن مكاسب العصر من ضرورة القوانين الوضعية وضرورة النظام العلماني وضرورة المناخ الليبرالي، كمكسب عام وعمومي جوهري

يعود نفعه على الجميع، بما في ذلك الأوكار الدينية. أما عندنا، فنحن نناقش هذه المسائل – من ريع ما نسترقه عن الفكر الإنساني بالطبع- من اجل فرض شريعة من خارج العصر وتجسيدها طوعا أو كرها بالمجال العام.

لقد صادف هذا الأمر توافقا مع الكسل العقلي الذي يطبع كُتّابَنا المسلمين.. فراحوا يدعون لأندلس لدى حصار حلب.. لقد انخرطوا جميعا في حرب – لا علاقة لنا بها - مع أطروحات الإلحاد في أوربا وأمريكا، تحريفا لعقول الشباب الحائر المتسائل عن المنظومة القيمية الدينية واهتراءها البادي جليا بواقعنا واجتماعنا. وتدليسا عليهم وتحريفا لأنظارهم وانشغالهم من التركيز على برنامج ينخر واقعهم إلى التركيز على أصل وهمي لذلك البرنامج.

وحتى إذا افترضنا، وهو افتراض محال، عدم وهمية ذلك الأصل، يبقى هذا النحو من التلاعب وتحريف الاهتمام عملا لا أخلاقيا من قبل أولئك الكتاب والدعاة المسلمين.. كيف؟

لنفترض أن برنامج حكومة معينة تسبب في الفساد الإداري والاقتصادي لبلد ما.. وكلما حاول النواب مناقشة ذلك البرنامج، حرف أعضاء الحكومة النقاش إلى محامد ومناقب وفضائل رئيس حزبهم الذي هو رئيس الدولة أيضا..، وإلى كونه رئيسا شرعيا..

وعلى النواب - والشعب معهم- بدل أن يركزوا على برنامج الحكومة، عليهم أن يركزوا جهودهم على صد الحملة التشيكية الشرسة والمغرضة التي يواجهها رئيس الدولة من طرف أعداء الخارج وأزلامهم في الداخل.

هل هذه "التحويلة" عمل أخلاقي؟؟ مع أنه لا أحد أورد سيرة رئيس الدولة، لا بالخارج ولا بالداخل.. نحن نناقش برنامج الحكومة يا عربة...

أما إذا كان رئيس الدولة غير موجود كما هو الحال مع الديانات، أو ربما يكون موجودا ولكن لا علاقة له بذلك البرنامج كأن ينسب له ويلفق عنه كما هو الحال مع دعاة الديانات، فإن تلك التحويلة لا تعتبر عملا لا أخلاقيا فقط، ولكنها عمل في منتهى السادية ومنتهى معاداة الإنسانية.

من المؤسف أن الافتراض المسوق للمثال ليس خيالا، ولكنه واقع مكابد هو الآخر بعالمنا العربي.. وهو دليل ما قبل العدد اللانهائي على الطابع الديني الذي تتميز به حكوماتنا المتهمة بالعلمانية.

لقد كان منذ التأسيس الأول، كل نقد للإسلام (برنامج الحكومة) حربا معلنة على يهوه أو الله (رئيس الدولة) وارتدادا عن الملة (خيانة الوطن) ... تماما كما غدى كل نقد لبرنامج الحكومة (الإسلام) حربا

معلنة على رئيس الدولة (يهوه او الله) وخيانة للوطن (ارتدادا عن الملة) ...

طبعا مع حفظ الفارق في المثال.. وأذكر به ثانية..، وهو تحقق التاريخية في العلاقة بين الرئيس والحكومة، وعدم بداهتها في العلاقة بين الدين وبين صانع حقيقي (وليس إله الديانات) إن وجد من جهة..، وتحقق تاريخية أصل الحكومة، ووهمية أصل الدين من وجهة أخرى.

لقد حصل من هذه الرؤية الدينية الشاذة عن فطرة التفكير السليم، أن ركب موجة تمجيد الأوطان والتاريخ والأشخاص والتراث على حساب تحليل الواقع وعرض المشكلات والحلول، كثير من السياسيين، حتى أصبحت برامجهم الحزبية عبارة عن قصائد عصماء من العصر الطباشيري.. تماما كما هو الحال مع رجال الدين الذين حرفوا أنظارنا عن تحليل الدين وعرض مشكلاته، لدرجة أننا غدونا نردد معهم في انتشاء مرضي ما قاله بعض فلاسفة الغرب وعلماءه في مدح الإسلام، ولم نتساءل يوما، لماذا لم يدخلوا في الإسلام.

لقد فاتنا أن أولئك العلماء الغربيين كانوا في حملة علمية مركزة على الكنيسة وعلى أفكار العصر الوسيط.. وأنهم قادوا أوربا منذ أنوار القرن 16 إلى القرن 20 في مسيرة فكرية مناهضة للعقل الغيبي ولكل ما من شانه أن يحول بين الإنسان وبين حريته وإرادته

وضميره.. وكان من جملة مراجعاتهم في الكنيسة ومآخذهم عليها، رأيها العقائدي العنصري المغرض إزاء الشعوب الأخرى ودياناتها خصوصا إزاء المسلمين.. ومن هنا كان كلامهم عن الإسلام قدحا وتعريضا بتلك العنصرية الكنسية الدينية التي لم يكونوا، وهم من هم في عقلانيتهم وإنسانيتهم، أن يقبلوها.. ولو عاشوا في سياق إسلامي لقاموا بنفس الموقف إزاء نرجسية الإسلام، ولقالوا كلاما جميلا في ثقافات باقي الشعوب المشنوقة على منابرنا، والتي كلما قضى حبل بدلناها حبالا جديدة...

وجميع كتابنا الأحرار يقومون اليوم بنفس العبء.. فقد يشيرون أحيانا إلى احترام المؤسسة الكاثوليكية للعلم مقارنة بمؤسسة الأزهر، وهذا صحيح.. أو إلى تقدير الأقباط للدولة المدنية وأهميتها مقارنة بالإخوان المسلمين، وهذا صحيح أيضا..، فهل يعني هذا أن أولئك المفكرين الأحرار أضحوا يعتقدون في صحة المسيحية كوحي عن المطلق، ويفضلونها منهاجا لحياتهم؟؟

هل يمكن أن نصدق درويشا مسيحيا، بعد انهيار أوربا – لا ساءت الظروف- بعودتها إلى دينها المسيحي، وبعد نهوض العرب – لا قدر يهوه- بتخلصهم من دينهم..، هل نصدقه إذا ما استشهد بكلام أولئك الكُتاب، الخاص في سياقه عن الكنيسة كما هو الحال اليوم،

قائلا هؤلاء مفكرون عرب كانوا يقولون كذا وكذا في مدح المسيحية عرفانا بالدين المسيحي وصحته؟؟

هذه باختصار قصة سطو الدين على أفكار الإنسان لتحويلها ضد الإنسان.

وهكذا دخلت المادية الدينية الغريزية المتوحشة إلى حياة البشر، متوشحة لباس المثالية.

استحوذ الدين إذن على ما سماه عالم ما وراء الطبيعة. وليته تركه شعرا وحدسا وبعدا جماليا يستشعر وتتمنع أجزاء منه مؤقتا عن الاستشراف.. بل كان أن أضفي عليه سماكين من جليد صاقع:

الأول: المشهد الغرائزي.

الحياة الآخرة امتداد أمين للعطش الروحي والمعنوي الملقم لنا في حياتنا هذه المسماة غمطا وتحريفا، دنيا.

والمشهد الغرائزي هو السماك الأوّل من الجليد الصاقع المضروب على ما يسمونه الآخرة، العالم "الروحي" البحت غير المادي.

وأول ما يصدمك في ذلك العالم "غير المادي"، في مأواك الأخير، جلاوزة شداد غلاظ من بقايا الغيستابو[20] يستنطقون ضميرك عن انتمائك السياسي.

[20] ـ مخابرات هتلر.

بعد نشر وحشر وأهوال تشيب لها الصبيان في العالم "الروحي" الشفاف هذا، تقذف إلى لعبة السيرك، وهي التجربة الرهيبة المرعبة في اجتياز الصراط إلى جنة أو نار.

وماذا أخيرا...؟

الجنة ماخور أخروي.. أنهار من الخمر والعسل وآلاف الجواري والغلمان في الخدمة.

والنار هلوكست أخروي.. شواظ وحجارة ووجوه مشوية.

هذا هو العالم الروحي الجميل.. **يتراوح بين ماخور وهلوكست.** أترك القارئ الكريم، مؤمنا متفهما أو إنسانا مترويا، يحكم بنفسه إذا كانت هذه المشاهد تستجيب للغرائز أو تستجيب للروح.. وما إذا كانت تلك الحياة حياة غرائز أو حياة روح.

ونعرف جميعا الاستدراكات التي بدأت باحتشام في مواقع التواصل الاجتماعي من قبل دعاة المادية الدينية ذات الوشاح المثالي، حول هذه المسائل ومحاولاتهم "المفهومة" لتوجيهها إلى منظومة رمزية تسمو بها من هذا الوحل، باستعمال – دائما كما هو معلوم – بضاعة الفكر الإنساني وما تقدمه الفلسفة "سيّئة السّمعة" والعلوم الإنسانية الوضعية "سيئة الذكر" في هذا المضمار.

الثاني: المادية الصورية.

هي السماك الثاني من الجليد الصاقع المضروب على ما يسمونه الآخرة، العالم "الروحي" البحت غير المادي.

فالمادية الصورية طبعت استدلالاته على إله قابع في السماء يأمر وينهى ويغضب ويزمجر ويتوعد.. كل ذلك باستدلال صوري.. والحد أو التعريف في المنطق الصوري ليس سوى تحديدا ماهيّا بطبيعة تجريدية تسمح بالهروب من مساءلة المنطقية الوضعية من جهة، كما تسمح بالعودة المراوغة من مستوى التجريد إلى مستوى الواقع لتأطيره في حالة نجاح الضحك على ذقون المجتمعات.

ولذلك جميع كتب العقائد تبدأ في أبوابها الأولى بمحاولة إقناعك صوريا قبل كل شيء بوجود الله أو يهوه، ومن ثم، خلق العالم.. ثم بضرورة عدم ترك العالم لعبث الصدفة.. ثم ضرورة عدم ترك الإنسان على غير هدى.. ومنه إلى ضرورة الوحي والأنبياء

والكتب... وكل هذا الجمباز من أجل أن تصل بك في الأخير إلى اقتراح برنامج طائفي[21].

ولكن هذا ليس كل ما في الأمر.. الغريب هنا أنك تجد البرنامج في النهاية أقل بكثير من إنسان زمن ظهوره إذا قورن بالحضارات التي عاصرته أو سبقته، أما إزاء زمننا، فأجدر أن يقذف عرّابوه إلى مصحات المجانين.. ولم أجد من هؤلاء من يطيق مناقشة البرنامج أولا.. جميعهم يروغون بك بطريقة أو بأخرى وبأسلوب مرن إلى الكليات الماورائية حيث لا رقابة عقل ولا معاينة خبر، باستخدام مكاسب الفلسفة المثالية - لفلاسفة "ملاعين في عرفهم" قد يكونوا مؤمنين بعلة أولى ولكنهم لا يؤمنون إطلاقا بالديانات وآلهتها- ثم إذا ما أحكموا مكرهم على عقلك، ساغ لهم بعد ذلك سرد تعليماتهم وبرامجهم، وساغ لك تقبلها لأن حكمتها – على كل حال- قد تفوق عقلك "القاصر" كما يُدلِّسون.

يجب التنبيه..، وتكرار نفس الفكرة على وجوه متعددة، سواء كانت هنا أو بمواضع أخرى، أجدها ضرورية بهذا المقام.

21- لا فرق بين الديانة والطائفة إلا في عدد الأتباع وفي الوضعية الرسمية.. فما نعتبره طائفة اليوم، إذا ما كثر أتباعها وصارت معتمده رسميا بكيان سياسي أو نحوه بمجتمعها، تصبح ديانة. **أما من حيث المضمون، فمضمون الطائفة هو نفس مضمون الدين.** والديانات العبرانية جميعها بدأت طوائف في مجتمعاتها، وأحيانا كطوائف خطرة منبوذة.. ثم بفعل العاملين، البشري والسياسي، أصبحت ديانات.

فيجب التنبيه إذن، إلى كون الإنسان لا اعتراض له على وجود علة أولى، أو خالق للكون، ولا على وجود مدبر في الكون، ولا على إمكان حدوث الخلق الكامل للإنسان بدون تطور، فهذه فروض محض علمية بالنسبة للإنسان ومن محض مجال الاختصاص العلمي المحايد غير المسيس، ولا علاقة لها بالدين.. وهي أمور صحت أم لم تصح، ليست أصل الخلاف بين الإنسان وبين الأديان، وإن أراد دعاة الأديان إيهامنا بذلك، تحريفا للحوار عن مضغة الدين الحقيقية، وعن مناطق ضعفه المحرمة.. كما أن صحتها لا تستلزم منطقيا وجود هكذا ديانات.. ولا تستلزم وجود ديانات من الأصل.

الخلاف الحقيقي بين الإنسان وبين الأديان هو البرنامج العقائدي الطائفي الشبحي العتيد، المخرب للفطرة، الذي يقترحه الدين العبراني في شكل ديانات وطوائف وفرق متناحرة على قتل الحياة، منذ ما يقارب أربعة آلاف سنة ولم يكل ولم يمل. ولأن برامجهم العديدة هذه يمكن اكتشاف عوارها بسهولة، دأب رجال الدين دائما على تحريف النقاش مع الإنسان من مناقشة شرائعهم واضحة الاختلال، إلى الحديث عن الإلحاد ومسائل من مثل وجود المطلق وتناسق العالم، بحيث أنه المدخل الوحيد الذي يمكنهم من تمرير برامجهم – مهما

كانت بشعة- في حالة استساغة الإنسان لمسألة الوحي وحقيقة حدود النسبي (عقل الإنسان) إزاء المطلق (الله أو يهوه في أعرافهم).. وبالتالي قبوله بما لا يجيزه العقل بدعوى قصوره ومحدودية إدراكه للحكمة الكامنة وراءه.

ومفهوم المصلحة العليا للدولة المحبّب إلى الدكتاتوريات والذي يتعارض رأسا مع مفهوم دولة القانون، والذي أدخله الفيلسوف الإيطالي مكيافيلى التداول السياسي ليس سوى امتدادا لهذا المنطق الديني بالأساس.. وتلوّن حربائي ديني بامتياز في القدرة على الانتقال والتسلل "غير الشرعي" من حقبة معرفية إلى أخرى، ومن عصر وسيطي إلى عصر أنواري بأقل الشبهات، وأحيانا، بكل التشريفات.. ولذلك وجد هذا المفهوم الديني بامتياز، قبولا كلما كان في مجتمع أكثر تدينا سواء كان مسلما أو يهوديا أو ذا مرجعية مسيحية.. وكم شوهت مناهج تربوية وحرفت حقائق، وكم هجرت شعوب ودمرت مدن، خصوصا بالقرن العشرين المجنون بحربيه العالميتين وبقنابله الذرية..

تم كل ذلك باسم حماية الدول ومصالحها التي "تغيب" عن الإدراك "المتواضع" للمواطن البسيط، تماما كما تغيب حكمة الله أو يهوه عن عقل المؤمن "القاصر".

ففكرة "الحكمة الإلهية"، تحللت منذ عصر الأنوار من لحيتها وقميصها، من اجل النفاذ إلى بهو الإقلاع نحو العصور الجديدة بدون إثارة انتباه جماركها.. حيث عبرت بهوية "أنوارية" مزورة، **ثم واصلت تنفيذ عملياتها الإجرامية تحت مسمى جديد (المصلحة الوطنية أو القومية)، وبهذا تورط الفكر الإنساني، أو بالأحرى، دُسَتْ عليه الجريمة.. بحيث تكون أصابع الاتهام متجهة إلى الإنسان وأنواره وفكره الإبداعي الجديد.**[22]

ولتقريب الصورة هنا، لنتصور أحد الموظفين النزهاء قاوم الفساد في مؤسسته، وناضل من اجل الخروج بها من أوحال العمولات ونجح في ذلك نسبيا.. إلا أن بعض أباطرة الفساد في دوائر أعلى،

---

[22] - لا زلنا إلى اليوم نعاني من هذا الكيد العبراني. فعلى الرغم -مثلا- من أنّ الحرب على غزة منذ أكتوبر 2023 تسبب فيها المنطق العبراني ممثلا في استيلاء اليمين الديني على حكومة إسرائيل وقبضة حماس في الطرف الفلسطيني، فإن غضب ما يسمّى بالمسلمين المعتدلين موجّه حصرا ضدّ مبادئ حقوق الإنسان، وضد مكاسب العصر من علمانية ومواطنة وديمقراطية. وهذا ما وددت التنبيه إليه سابقا. أي أن العصر الوسيط يقتحم علينا عصرنا. يقوم بالجريمة، ثم يلصقها بمكاسبنا المعاصرة.
العصر الوسيط - المؤمنون المتطرّفون- يبدأ المهمّة القذرة. وأعوانه على إتمامها هم المؤمنون المعتدلون.

ساءهم ذلك، ولكن لم يكن لهم بدا من مسايرة السياسة الجديدة التي سارت عليها تلك المؤسسة.. فماذا فعلوا؟

درسوا السياسة الجديدة للمؤسسة واختبروا الثغرات الممكنة بها.. ومن خلالها دسوا معاونيهم، ومرروا نفس مضمون فسادهم الأول بشكلية تبدو متوافقة مع المرحلة، ثم علقوا النتائج الوخيمة لذلك، على السياسة الجديدة التي قاومتهم ولفظتهم، واتهموا بها غريمهم النزيه.

فهذا كما نلاحظ، لا يسقط الجريمة عن أباطرة الفساد (الدين ودعاته)، كما لا يسقط الغفلة وعدم الحيطة عن الموظف النزيه (الإنسان). ولذلك كانت مهمة هذه الصفحات، تجريم الدين وتأديب الإنسان.

بالرجوع إلى تاريخ الفكر البشري، لا يمكن أن نؤصل هذه الأساليب إلا على مرجعية دينية تحللت عبر ضرورات العصور من شكلياتها الدينية الأولى.. تماما كما لا يمكن أن نؤصل للمصلحة الوطنية في الفكر البشري إلا بفكرة الحكمة الإلهية.

وما دمنا لا نزال نؤصل للفاشيات والدكتاتوريات والشموليات السادية التي عرفها العصر الحديث إلى يومنا هذا بمرجعيات إنسانية غير دينية، فإننا نستمر في إطالة اللبس في مفاهيمنا عن السياسة

والشأن العام.. وإلا ما هو اللاعب الرئيسي ثقافيا بعصور ما قبل الأنوار على مستوى العالم كله؟

هل كان هناك لاعبا ثقافيا آخر بمستوى الدين؟

وقد نرى بأن جرائم الفاشيات تمت باسم الدين.. وقد لا يستقيم من حيث الشكل أن نقول بأنها تمت باسمه، ليس لأن الأمر كذلك، ولكن لأن الدين هو الأصل فيها والبنية النظرية الخفية القابعة كنصب أبي الهول من وراءها، كما قدمنا مع "العبور" المكيافيللي.

فعملية التأصيل تتعامل مع مضامين الأفكار قبل أن تتعامل مع رسومها.

وما دعانا إلى البسط في هذه المسألة، هو أن المؤمنين، سواء كانوا مسلمين أو غيرهم من العبرانيات الأخرى..، إذا ما أرادوا الرد على من تكلم في جرائم الدين بالعصور الوسطى، سواء كانت إسلامية أو مسيحية، يذكرون له جرائم وحروب القرن العشرين وينسبونها إلى العلمانية والبعد عن الدين.. ويتناسون – أو بالأحرى يغيب عنهم - بان تلك الجرائم هي واحدة من الهزات الارتجاعية لكوارث عصور الظلام الدينية.. وعودةُ انتقام، تحرر فيها الدين من عقاله الذي أدماه على امتداد خمسة قرون..، فراح يعبث بالساسة والشعوب على سواء.

وكأنني بسارق يدافع عن يمناه التي سرق بها، قائلا هذه شِمالي أيضا سرقت أكثر من يمناي.. وهو في حالة تخدير كثيف جعله يعتقد بأنها ليست يُسراه، وإنما هي يسرى عَدُوه.

كان جنون القرن العشرين ردة عارمة عن العقلانية الكلاسيكية التي نقضت الدين في العالم الأوروبي.. ولا مجال لما بعد العقل إلا مجال الغيب والدين، وإن بقفاز العصر من دون أن ينبئ عن هويته كما أوضحنا آنفا..

كان ذلك القفاز هو فكرة الشمولية، بنت القرن العشرين. وهي رجوع إلى الصف الواحد الأحد، وعود إلى السلف الأخناتوني الأول.. وإلى الفكر الشمولي المنمّط للبشر على تصفيف فئراني واحد.. ولا يغيب علينا ما ينتج عن هذا الفكر من حروب وفتن.. فقد عُرف القرن العشرون لدى مصنفي الحقب بعصر الحرب الشاملة.. أما القرن الثامن عشر فعرف بعصر التنوير، والقرن التاسع عشر بعصر الايدولوجيا..

ونحن كمسلمين مؤمنين طائعين محتسبين نتقبل جيدا أن يكون **المفهوم الإسلامي للدولة كلي شامل، لا يمكن لإنسان أو ديانة أن توجد خارجه.. وبناء عليه فإن الإسلام نظام كامل.. وبالتالي فإن الدولة الإسلامية تترجم حياة الشعب، وتطورها وتقويها...**

أعتقد بأننا كمسلمين نتقبل هذا الكلام.. أليس كذلك؟

وإذا ما عزلنا ما يكتبه بعض الحاملين للتسمية الغريبة، (علمانيون مسلمون)، وكذا ما يقوله المحرفون الجدد من داخل الديانة العبرانية..، فهذا ما أكده ويؤكده ولم يجرؤ على مخالفته أي داعية أو كاتب مسلم إلى اليوم.. كما تؤكده كتابات المسيري في علمانيتيه الشاملة والجزئية، ولا يتسامح مع القول بضده، لا السنة ولا الشيعة ولا الاتحاد الأشعري الماتوريدي الصوفي (قبل أن ينقسم قريبا بطبيعة الحال ويناحر بعضه)[23] ولا حتى ما يسمى بالمسلمين "المعتدلين"، ولا المسلمين "غير الممارسين".

يقرر موسوليني (قدس سره): «إن **المفهوم الفاشي للدولة كلي شامل، لا يمكن لإنسان أو لقيمة روحية أن توجد خارجه.. وبناء عليه فإن الفاشية نظام شمولي.. وبالتالي فإن الدولة الفاشية تترجم حياة الشعب، وتطورها وتقويها".**[24]

فمن يرى بأن موسوليني وهتلر وستالين وأشباههم، ليسوا امتدادا للفكر الديني، لن نلتفت إليه.. ومن عَلِقَ بالمظاهر والشكليات، نكِلُه

[23] - سنة 2016 دار حوله حديث. يبدو أنّه سرعان ما تلاشى ذكره.

[24] - موسوعة كمبردج. الفكر السياسي في القرن العشرين. ج 1. ص 256.

إلى شكلياته.. وقد نجاريه -مُمازحة لُنذُنيةــفي أنهم بالأحرى، امتداد لعصر المنطق والتنوير بالقرن الثامن عشر.

ذلك، غيض من فيض في استخدام مجالات الفلسفة المثالية المفارقة لتمرير البرامج المادية الغريزية المدمرة..، بالإنسان للإنسان ضد الإنسان.

وبسبب هذا الخلل الظاهر للعين الفاحصة، انحرف الجدل الديني/الإنساني من مناقشة البرامج إلى مناقشة أصول وهمية للبرامج.. مما أعطى للدين مكانة في الفكر الإنساني لا يستحقها..، وانحرفت في المقابل ما يسمى بالفلسفات المادية إلى غلو وشطط لا داعي له بفعل استجابتها له بردود فعل خرجت عن طور الاعتدال .

فالكلي العام الغائي المتجاوز مثلا، ليس بالضرورة ميتافيزياء كما نفهمها بمعناها المتداول المضلل. هو جزء من الطبيعة يمثل بعدا منها وليس وراءها، يتحقق في التفكير الإنساني الذي هو بدوره بعد مستقل في جانبه الروحي عن الأجزاء المادية فيها.. فلا داعي إذن إلى إنكاره كما فعل نيتشه مثلا في نوبة عصبية ضد "بقايا الإله".. فالكل المتجاوز ذاك، هو ظلال عملية التفكير الإنساني في الطبيعة ولا أبسط من ذلك.

حنق الفلاسفة الماديين جعلهم يسلكون في بحوثهم على ضوء كون عالم الطبيعة هو العالم المادي وفقط، أما ما عداه فهو تجلي له غير منفصل أو مستقل كجوهر بذاته.. والحال أن الطبيعة مادة وروح، وإلا كانت عملية التفكير المنفصلة عن العالم المادي عملية غير طبيعية.. وهذا تطرف، انتهزه أهل الدين ليحتكروا لأنفسهم كل ما هو لامادي وأشبعوه تنظيرا بما يتوافق مع المادية الغريزية الدينية، وقصفوا بذلك البعد الجمالي والاستشفاف الروحي في الطبيعة، مع قتل وتدمير منهجي لروح المحبة والتعاون والإخاء والإسعاد والتقارب بين بني الإنسان.

فالإنسان – كما يكرر في المنابر ويحلو لهم تذكيره في عدائية غريبة للإنسان تبدو مجانية - لم يكن سوى مني يمنى، وهو ظلوم وجهول، ولولا الدين لما عرفت له كرامة تذكر (صانعوا الديانات الأُول، لهم عقدة حقيقية مع الإنسان).. والشعر غواية.. والفكر شطحات عقلية.. والفن مجون أو جنون أو تلهية.. والجمال صد عن ذكره.. والحب لا ينبغي لغيره.. والعدل في الآخرة (المطالع الإغريقية).. وفعل الخير لوجهه الكريم وليس من أجل عيون بعضنا البعض.. والدنيا ملعونة.. والموت يقظة.. والآخرة هي "الحيوان"...

جميع الفاشيات التي عرفتها البشرية عبر تاريخها إلى اليوم، تحتفظ بهذه التحرِّيات السايكوباتية مع شعوبها.

يكفي أن نتأمّل جيّدا في هذه التحرّيات والإيحاءات العشر، التي تعتبر بنودا لدستور المؤسسة الصامتة التي تحكمنا كبيرا وصغيرا، أميا ومتعلما، أبيلا أو وجيها، إسلاميا أو علمانيا:

البند الأول يضع الإنسان في الخانة التي أراده لها الدين، ويذكره بها في كل منعرج.. فلا كرامة أصيلة بالإنسان، وكل ما به من خير يعود إلى الدين، وكل ما به من شرور إنما هو صادر منه.. ثم غدى هذا خير مثال على التربية بالمثال.. فلقد استعار هذا المبدأ فيما بعد، الملوك والرؤساء والكبراء والزعماء وأرباب العمل وحتى أرباب الأسر في التعامل مع مرؤوسيهم بالمجتمعات المسلمة، فجميعهم لا يغفرون أن يشرك بهم ويغفرون ما دون ذلك لمن يشاءون. أحرق مدينة بأسرها، سيكون فيها نظر، ولكن ليس لك أن تنكر تفردي المطلق وأنك ملك حصري لي.

عرفنا لونا من هذا في العصر الإسلامي الأول، كما عرفناه في التاريخ القريب مع بعض العقداء بالجيوش العربية الذين أحرقوا مدنا بما حوت وبقوا في حظوة مميزة لدى رؤسائهم لا لشيء إلا لأنهم فعلوا ذلك لوجوه أربابهم الكريمة.. وهو نفس ما تفعله داعش الآن

لوجه الله..، وفي المقابل عرفنا أحرارا من المناضلين أو من المفكرين الذي قُتلوا شرّ قتلة ليس لأنهم احرقوا مدنا، ولكن لأنهم ارتدوا عن الاستسلام، ورفضوا الطبيعة السادية الجبارة المتكبرة ذات الحول والطول للعقيدة العبرانية وما ينجم عنها من سياسات تعسفية في حق الإنسان والمجتمع والتاريخ.

ودعاة الإسلام الميامين ممن يَدْعون بالحكمة والموعظة الحسنة، أمثال الغزالي والشعراوي لا يختلفون عن داعش ولا عما يسمى حكّاما "علمانيين".. فقد صرّح من ذكرنا بما يؤيد قاتل المفكر الإنسان فرج فودة لأنه كان يدعو إلى حكم مدني لا ينكّد فيه فقهاء الدين على الحياة العامة، وهذا الترشيد الذي كان يدعو له شهيد الإنسانية فرج فوده، بمثابة قصف مباشر **لواحدية** رجل الدين وتفرده بالحكم القيمي على رقاب الناس واحتكار المعنى، تلك الواحدية التي لا تقبل شريكا خصوصا مع إنسان يدعو إلى كرامة الإنسان.. أمر خطير، يستشعره عن بعد، ويخشاه جميع الدعاة العبرانيين ومن لفّ لفَّهم، رفثا وشعيرا... ولا عزاء للشعوب إذا لم تفهم بعد أصول ومصادر مصائبها.

البند الثاني يمنع الخيال، الشرط الفطري للإبداع.

البند الثالث يمنع العلم. ونعلم جميعا ما جرى مع فلاسفة أوربا وكنيسة العصور الوسطى، وما يجري اليوم مع المفكرين الأحرار في العالم الإسلامي.

البند الرابع يمنع البديل الإنساني الطبيعي لهوامات ما يسمى ما وراء الطبيعة.

البند الخامس يُهوّن من قيمة الحياة ويربط الإنسان ربطا دائما متواصلا مع الموت.

البند السادس سد منيع في مواجهة مجرد التفكير في تنظيم حياتنا بقوانين وضعية توافقية.

البند السابع يمنع احترام الإنسان وتوقيره لذاته.

البند الثامن يسحق الحوافز الفطرية لتعمير الأرض وتفعيل الحياة.

البند التاسع يربطنا بالعقدة المرضية، عقدة الشيزوفرانيا، فنحن لنا يقظة مزيفة، وهي هذه اليقظة التي أكتب بها الآن في زعمهم، ويقظة حقيقية هي الموت وما يمثله في هذه الدنيا من رؤيا صالحة ومن بشارات وتلميحات الدراويش، أو مجرد المعتقدات الدينية المزاحمة لوعيي هذا.

البند العاشر قنبلة نووية تقصف بالمعنى من أساسه.. المعنى المتحقق في الإنسان منذ فجر ضميره وحضارته إلى اليوم.. قصف سادي للمعنى من منظومة هوامية تدعي بأنها الحامية الحصرية للمعنى.. ادعاء ليس غريبا وليس جديدا ولا هو الأخير، ولنا معه معالجات في الصفحات القادمة.

هذه لوائح عشر.. تيمُّنًا بأسلافنا اليهود..، ثم نتساءل اليوم في حيرة منافقة أو غبية على الأقل، عن كيف لم يتسنى لمجتمعاتنا الدخول في العصر. وكيف لم تنجح دولنا في تجسيد استقرار سياسي.. وكيف لم ننجح في احترام القوانين، ولماذا لم ننجح في تجسيد برامج في السياسة، في الإدارة وفي الاقتصاد مع أننا راعينا جميع شروطها الإجرائية فوق كونها نجحت في بلدان أخرى.. ولماذا كل هذا العنف في كل منعطف اجتماعي أو سياسي.. ولماذا ننكر بعضنا البعض.. وكيف، ولماذا، ولو أن، (وما تجدي لو أن ونحن نسافر في المأساة).

الجواب باختصار عن هذه الأسئلة هو أن دولنا، أنظمة ومجتمعات، لا تزال في مؤسستها الرمزية التي تحكم بتحكّمٍ ظاهرٍ، المسارَ العام لنا، لا تزال مُسْلمة حتى الثمالة، يحكمها الدستور الموضح آنفا ذي اللوائح العشر.. وليس أغرب من النكتة القائلة بأن

دولنا تُسيّر بحكم علماني منذ سقوط الخلافة.. هذه النكتة يكررها الإسلاميون بكل مناسبة، ومن زاوية نظر مركزة، هم لا يكذبوننا في الواقع.. لأن الصراع الحاصل الآن هو صراع حكم وليس صراعا عن الإنسان والتنمية.. نفهم هذا الأمر إذا علمنا بأن الإسلاميين يمثلون الجيوب الباقية من ثقافة الإسلام التاريخي، أما حكامنا الأشاوس فهم يمثلون الامتداد الواقعي المعاصر الطبيعي لنفس الإسلام التاريخي. وهم يشتركون جميعا - ونحن معهم أيضا، وكثير من العلمانيين والشيوعيين العرب، والكفرة الآخرون- في الصدور عن الدستور المذكور.

يبقى الاختلاف بعد ذلك وارد بين جميع هذه الفصائل المؤمنة - والتي لا غبار على إسلامها بشيوعييها وعلمانييها- في مسائل سلوكية كتغييب العقل مدى الحياة عن طريق درر منبرية مباركة بإيقاع أسبوعي، أو تفضيل إجازته من حين إلى آخر عن طريق معاقرة خمر معتقة.. ممارسة الاغتصاب الشرعي (وهو ثري ومتعدد التطبيقات) أو تفضيل البغاء المدني عليه..، وغيرها من الاختلافات المتعلقة بالشكل لا بالمضمون، والخاصة بسلوك الجوارح الذي يختلفون به، لا بنمط التفكير الذي يجمعهم، مع تقدير ما للتفضيل الثاني من يسير

الضرر ووفرة المنافع، ولذلك حرّمه الشارع العبراني.. وما للتفضيل الأول من كوارث متتابعة، ولذلك حرّمه الضمير الإنساني.

ومسألة الشكل هذه يجب التركيز عليها بعناية لتجنب كثير من المغالطات التي تملأ حياتنا القيمية.

فحكوماتنا وأنظمتها المتعاقبة منذ عصر النهضة سايرت الحداثة الاجتماعية.. ذلك أن الهم الذي انطلقت منه النهضة العربية هو التخلف الاجتماعي بالأساس.. ومسايرة الحداثة الاجتماعية يعطي الانطباع على نوع من التحلل من السلوكيات الشكلية المقررة في فروع الشريعة.

تماما كما أنّ الإسلاميين الإصلاحيين أضحوا يسايرون الحداثة السياسية بتبنيهم للديمقراطية.. ذلك أن الهم الذي انطلقت منه الحركات الإسلامية المعاصرة هو سقوط الخلافة العثمانية بالأساس.. وتبني الديمقراطية يعطي الانطباع بالتحلل من أصل بارز في أصول العقيدة الإسلامية.

إذا سمح المقام هنا بمقارنة – غير بريئة – بين الإسلاميين وبين إخوانهم في سدّة الحكم، فإننا نجد بأن من يقال عنهم حكاما علمانيين لم يتخلوا سوى عن بعض شكليات السلوك المقررة في فروع الفقه الإسلامي ولم يطبقوا الديمقراطية وإنما اتبعوا نظام شورى العصب

الإسلامي كما اقتضاه امتدادهم الطبيعي للإسلام التاريخي، أما الإسلاميون فتخلوا عن أصل من أصول العقيدة بتبنيهم للديمقراطية، وإن لم يصلوا إلى تطبيقها، وليس من طبيعة الأساس الجوهري في تعاليمهم وتكوينهم ما يطمئن على تطبيقها.

هذا على مستوى الشكل الذي يعطي الانطباع الخاطئ عن تناقض حكوماتنا مع الإسلاميين. أمّا إذا اعتبرناه غير خاطئ، فأولى أن نعتبر حكامنا المتهمين بالعلمانية – بهذه الحال- أكثر إسلاما من الإسلاميين.

ثم على مستوى الجوهر الذي يشي بوحدة الأساس الجينو- ثقافي – إن جاز التعبير- لنا جميعا، يوجد منطق دستور المؤسسة الصامتة "إياها"، الذي يحكمنا و نصدر عنه آليا و بدون تفكير، و الذي يمنعنا – إسلاميون و تقدميون و مجتمعات – من النجاح في الاختبار التنموي، ناهيكم عن الاختبار التطوري، و إن نجحنا في تحديث بعض مظاهر الحياة الاجتماعية (تهميش الشريعة و فقط) مع حكوماتنا منذ النهضة، أو في تسييس الثقافة الإسلامية (نسف الإنسان) مع دعاة الصحوة منذ سقوط الخلافة، أو في تزييف و تحريف الثقافة الإسلامية مع الإصرار على تقدميتها(الكذب الصريح الصحيح) مع الحركة التصحيحية الحالية بالتيار الإسلامي.

<u>نوايا حسنة في ركاب أهداف لئيمة:</u>

عندما نتوقف هنا لتأمل حجم عقل العقول، وقلب القلوب، وطمس البصر، الذي قامت به المادية الدينية ذات الوشاح المثالي، لا يسعنا إلا أن نتعاطف مع جميع مكونات وطبقات وطوائف واتجاهات مجتمعاتنا الملعوب بها.

لم نتساءل يوما لماذا سقطات بعضنا تعود جرائرها على الجميع في النهاية.

لأنها بالبداية، يشجعها الجميع.. ثم لدى الإرهاصات الأولى للنتائج الوخيمة، ينسلخ سوادنا من المسؤولية، مع –بطبيعة الحال- "سلخ" الدين مقدما من المسؤولية، وفي هذا إبقاء على خيط معاوية مع وَعِيدِ عودة.

سوف نعرف في الصفحات القادمة لماذا ينسلخ سوادنا.. ولماذا "نسلخ" الدين مُقدّما من التّبِعة.

ولم نتساءل يوما لماذا كل مرة نقوم بثورات، ثم نشنق "المجانين" الذين كانوا بمقدِّمتها.

لقد استبشرنا خيرا لدى الرفض الشعبي الغفير لحكم الإخوان المسلمين بتظاهرات 30 يونيو.. ولكن ما راعنا هو المعاملة والأحكام

الظالمة ضد الإخوان.. على كونهم ساهموا هم أنفسهم، في تأجيجها عليهم لحساباتهم العقائدية المغرضة.. إلا أن المسؤولية مهما كان الأمر، تقع على الحكم، لأنه الحاكم بوسائله وبتفويضاته... ثم راعتنا الأحكام المجانية الظالمة ضد العلمانيين أيضا..، ولعلها "موازنة ساداتية" متطورة نحو الأسوأ، التي قام بها النظام المصري الحالي المؤمن حَسَن الإسلام كسلفه، والذي لم يأت بشيء جديد أو بشع على كل حال، إذا ما قورنت أحكامه بأحكام ما يسمى حروب الردة زمن الجهل الأول.

ففي الوقت الذي حكم هذا النظام الديني بالإعدام على الإنسان (المسلم)، راح يدافع على نسخة البخاري التي أفسدت ذلك الإنسان، وورطته فيما أدين به.. فزج بها الإنسان (العلماني) مرة أخرى في غياهب السجون.

فالخاسر بإجرامه بالوكالة، هو الإنسان

والخاسر بإعدامه هو الإنسان

والخاسر بسجنه هو الإنسان

ويطلع الرابح الوحيد من كل ذلك البركان الكارثي الذي حدث بمصر..، هو نسخة البخاري ومناهج الأزهر...

المذنب الأول والوحيد، والمتسبب الحصري في الفتن، مستبعد دائما ومُقدَّمًا من أية شبهة..

وأنا إلى اليوم لم أعد بعدُ من الدهشة لهذا المنطق المقلوب.. ولكنه منطق "مفهوم" إذا ما عرفنا قيمة الإنسان وماذا تساوي في الأجندة الدينية.

فالإنسان بمنظومة الأديان، ضحية "على الطالع وعلى النازل" كما يقولون..،

يخدمها فتلدغه (الإخوان).. يُطَلقها فتحرض عليه (العلمانيون).. يحاول إصلاحها فتجعله جزءا من خطتها (السيسي)...

ما يهم منظومة الأديان في كل هذا، هو استمرار عدم السلام بدعوى البحث عن السلام، واستمرار الفتن بدعوى محاربة الفتنة.. وهدفها الرئيس من كل ذلك، هو شل الإنسان وقطع طريق على عقله وروحه وإبداعه وتطوره.

وهذا الكلام ليس مرسلا.. فأنت ترى أن العهد الإسلامي الأول بدأ..،

بتفرقة وفتنة بين الأهل والأشقاء (وأي هدف نبيل يبرر ذلك؟) في مكة.

وبتعدي وإبادة وتهجير لقبائل اليهود (وأي هدف نبيل يبرر ذلك؟)، ثم حروب إخضاع قسري للقبائل العربية سبيت بها ذرية ونساء ونهبت أموال (وأي هدف نبيل يبرر ذلك؟) زمن النبوة الذي دام عشر سنوات بالمدينة.

وعهد الراشدين، بدأ بحرب أهلية مع خلافة أبي بكر تسبب فيها نقض العهد مع حنيفية اليمامة كهدية مسمومة تركها عهد النبوة إلى خلفه (وأي هدف نبيل يبرر نقض العهد؟)[25] التي دامت سنتين وثلاثة أشهر كادت أن تهلك فيها العرب جميعا بحصيلة عشرة آلاف قتيل.

وكلل أخيرا بحرب أهلية مع خلافة على (وأي هدف نبيل يبرر ذلك؟) دامت أربع سنين وسبعة أشهر وأدت إلى قتله.

تخلّل الحربين الأهليتين:

حكم ستاليني مع عمر، قرأت فيه الجموع "الستوكهولمية" عَدْلًا.. دام عشر سنين وستة أشهر، أدى إلى قتله بسبب لا عدالته مع أحد الموالي.

ثم حكم إقطاعي طبقي مع عثمان دام اثني عشرة سنة وأدى إلى قتله هو الآخر بسبب الميراث المسموم الذي استلمه من سلفه أولا،

---

[25] - راجع " مسلمة الحنفي، قراءة في تاريخ مُحَرم". جمال علي الحلاق. ص 97 وما بعدها. ط.2 2008 منشورات الجمل.

وهو سخط عام من سياسة عمر، تَمَكن ولم يعد ينفع معه مراجعة، لدى الشعوب المحتلة.. ثم بسبب فساد معاونيه وحلفائه مع دعمه لهم.

لم يغلق القوس على هذا الجحيم، إلا الحكم العلماني الأموي على نقائص فادحة هو أيضا.. ولكنها نقائص هينة مقارنة بالجحيم الأول، لأنها لم تختم على سلوكها بختم السماء ولم تدعي القداسة، فأمكن مراجعتها وتجاوزها.

تلكم خلاصة العصر "الزاهر"، الذي يريدوننا أن نعود إليه...

هذا إذا اقتصرنا على التمثيل بزمن الجهل الأول...وهو زمن، على ساديّته السافرة، يعتقد المسلمون بأنه "أرقى" ما وصلت إليه البشرية في "حقوق الإنسان" حصرا ومطلقا... ولا عجب في ذلك. فإذا كان تقرير الحقائق التاريخية على هذا النحو من البساطة..، لا نستغرب أن يعتقد أي شخص ما طاب له من الدعاوى، ما بقينا نؤمن بأن التحقيق التاريخي تشكيكا مأجورا.. والتحليل الفلسفي ردة.. والقراءة الأنثروبولوجية تقليدا لثقافة المستعمر.

لقد تحول الدين عبر القرون إلى فكرة شديدة الصفاقة، احتكرت لنفسها أخلاق الشعوب وقضاياها العادلة، وقسمتها ألوانا متضاربة متعاكسة متنافرة.. وراحت انطلاقا منها تنفخ في الخلاف بينها.

وهذا ما أحال غالبية المناضلين بالعالم، إخوان وشيوعيون وقوميون وعلمانيون وليبراليون ومحمديون ونورانيون وبيئيون وسياسيون وحقوقيون.. وعديد الأصناف الأخرى من الحركيين والناشطين..، من وجهة نظري، على نوايا حسنة بالأساس، مع استثناءات التأكيد..، ولكن في ركاب أهداف لئيمة لا ينتبهون إليها.

بين المجاهرة بعداء الإنسان والمجاهرة بعداء الأديان

من هذا العرض السريع والمركز على العمل التخريبي الذي يقوم به الدين على فطرة الإنسان، يتبين بأن سدنة الغزو العبراني عندنا، نسوا أو تناسوا بأنهم بدعوتهم وصياحهم وصراخهم "المرخص له والممون والمؤيد" من طرف الحكومات المسلمة المتهمة بالعلمانية، في مجاهرة مكشوفة وصريحة بعدائهم للإنسان.

ومع ذلك لا ينتبه أحد إلى هذه الجريمة.

لا المدعي العام، ولا نواب الشعب، ولا وزراء التربية، ولا أرباب الأسر، ولا حتى وزير الخزينة الذي يقتطع سنويا - من عرق الإنسان - إلى نشاطاتهم المجاهرة بمعاداة الإنسان، ما يعزز ويقوي به تلك الجريمة..، ولا الأكاديميين.. ولا حتى النقابيين الذين عليهم أن يغيروا من أساليبهم التقليدية المرابطة على ثغور الشعير..

ووسط هذا التواطؤ العام، إذا تذمر الإنسان قليلا، وله منطقا وضرورة أكثر من ذلك، ثم تلفظ بربع كلمة تعبيرا عن قلقه، تقوم عليه الدنيا ولا تقعد. وينبري له الدعاة إلى الجحيم، والمدعي العام ونواب الشعب ووزراء التربية وأرباب الأسر ووزير الخزينة إياه،

والأكاديميون والنقابيون، وسواد الرعية معهم.. والراعي، والذئب أيضا..، شاهرين في وجهه تهمة المجاهرة بعداء الأديان.

الصورة قاتمة.. والوضع بائس.. فتعالوا لنرى مثالا بسيطا من الآراء المجاهرة بمناهضة الأديان ومثالا آخر من الغل اليهووي المجاهر بمعاداة الإنسان، ثم لنقارن.

وإيثارا لاختصار الطريق، وتعميم الاعتبار قدر المستطاع، سوف نختار المثال الأكثر شهرة في العالم.. وكم كنت أرجو ألا أصل إلى ترديده مع من ردده.. ولكن مليار ونصف من الأنفس المعذبة في زنزانات الجلد اليومي السادي "الناعم المخدر في أغلبه" للفاشية الدينية، لا يترك لي مجالا لذلك، وإلا فإني متواطئ معها ضد ذلك العدد الغفير من إخواني:

كتب الروائي البريطاني سلمان رشدي آياته الشيطانية.. ولم يزد على توظيف بعض الأساطير المتعلقة بمناة واللات والعزى، وما دار حول زمزم من أخبار، وكذا استخدام "ما رأى فيه" بعض المسلمين تجسيدا خياليا للنبي والصحابة في روايته.

ثار عليه مليار ونصف من المغيبين بإشارة واحدة من شيخ موتور لا يفقه في الأدب..، فضاق به الكوكب.

وكتب نفس الشيخ إيّاه: " لا يجوز وطء الزوجة قبل إكمال تسع سنين، دواما كان النكاح أو منقطعا، **وأما سائر الاستمتاع كاللمس بشهوة والضم والتفخيذ فلا باس بها حتى في الرضيعة**، ولو وطأها قبل التسع ولم يفضها لم يترتب عليه شيء غير الإثم على الأقوى."[26]

على الأقوى...

لم ينتبه أحد إلى هذا النوع السادي من المجاهرة بامتهان كرامة الإنسان.

هذه مفارقة غريبة على كل حال..

فأن يكون أصل "الثوران" على الروائي المحترم، والمحرض عليه، هو نفس الشخص "إياه" (قدس سره) المجاهر بعدائه للإنسان وامتهان كرامته..، فالمفارقة هنا أدعى إلى التفكير بجدية في تأسيس علم نفس مرضي جديد خاص بأعراض الدين وخطره على الصحة النفسية للمجتمع.

ولا بأس من الاستئناس بواحدة أخرى أقل شهرة ولكنها أبلغ

قال المفكر فرج فوده في مناظرته الأخيرة مع العبرانيين: " هي وحدة هذا الوطن.. هذا الوطن وحضارة الإنسان تأبى الحكم الديني الآن.. مهما قلتم في النِسب، لا يقبل منا أحد أن ينقسم هذا الوطن، وأن

---

[26] تحرير الوسيلة لسماحة المرجع الديني الأعلى الإمام روح الله الموسوي الخميني. ج 2. ص 221.

يشعر فريق من المواطنين قل أو كثر بالخوف من أن يُحكم بعقيدة الآخرين، ويشعر فريق آخر بالزهو لحكمه بعقيدته..."[27]

دفع حياته ثمنا لذلك..

والمفارقة هنا.. أن يستشهد قاتله بآراء شيخ آخر موتور في مفكرنا الشهيد (عمر عبد الرحمان)، ثم يؤتى ب (الشيخ الغزالي) ليشهد بأن **فرج فودة مهدور الدم والقاتل لم يزد على الافتئات على صلاحيات الحاكم..**، ثم لا ينتبه القاضي ولا الوكيل ولا الحضور ولا الشعب ولا نوابه ولا رئيس الدولة إلى هذه "الزندقة" العبرانية الصريحة والمُجاهِرة بمعاداة الإنسان، غير المبالية لا بهيبة القانون ولا باحترام المواطن ولا بحقوق الحياة، في عز حرم العدالة وداخل أسواره..، فهذا يفسر لنا ما حدث من تقهقر نحو الهاوية بالسنين المتلاحقة بعده.

يبدو أن القاضي كان مرتدا عن إنسانيته.. وإلا لكان حكم قبل رفع الجلسة على الجاني المباشر، بإعادة التربية بإحدى المصحات، وقبض في التو على كل الشيوخ الذين شهدوا ضدّه، وكانوا كثر، بالحبس الفوري بتهم يصعب حصرها، ويكفي أن نذكر منها:

[27] مصر بين الدولة الإسلامية و الدولة العلمانية.. المناظرة الكبرى. ص 53. مركز الإعلام العربي. طبعة 1992.

- الاستهزاء بالشعب وبقيمة حياة المواطنين في عز حرم العدالة..

- التحريض على القتل بأسلوب إيحائي غير مباشر (كما هو حال الكتابات والخطب والمحاضرات وبرامج الفضائيات وجميع النشاطات العبرانية "المعتدلة"، ناهيكم عن الصريحة، **وسط الصمت المحير والسلبية الغريبة لنواب الشعوب ووكلاء القانون بعالمنا العربي.)**

- تبرير ذلك بما ينكره العقل والقانون، مع الزهو والخيلاء، والعزة بالإثم.

لقد وصلت الوقاحة بالدعاة العبرانيين (عن حسن نية بكثير منهم فيما يبدو، ولكن في ركاب هدف لئيم) إلى فرض عدم الجهر حتى بالآراء الفكرية أو السياسية المناهضة لتدليسهم بدعوى محاربة "الردة"، ووصل الغبن والهوان بغالبية المواطنين إلى اعتبار هذا الرأي "معتدلا" على أساس انه لا يمنع "الردة" ولكن يمنع المجاهرة بها والترويج لها.

فلك أن ترفض زيف الواقع وظلم الوهم وتدليس الخطاب وتشويه الحقيقة، ولكن ليس لك أن تنبه إخوانك وأهلك وأصدقائك **وحتى أبنائك إلى ذلك.**

لك أن ترفض السقوط في فخ محتال.. ولكن ليس من حقك أن تحذر أبناءك منه!!

هكذا...بفضل متلازمة ستوكهولم، أصبح خطف الأبناء وتكميم أفواه أوليائهم "اعتدالا" في نظر كثير من "المسلمين المعتدلين"...

- (يا جماعة، اتقوا الله.. فهؤلاء وإن سرقوا أبناءنا ونكدوا علينا كل شيء، **ليسوا كالآخرين**، فهم معتدلون.. إنهم لم يذبحونا كما يفعل المتطرفون...). نعم وصلنا إلى التفكير بهذا المنطق.

ثم متى كان رجوع الإنسان إلى فطرته ردة؟؟

الردّة أن ترتد عن فطرتك.. أما أن تعود إليها بعد تيه وضلال، فذلك عودة رشد وعودة روح وعودة وعي.

كل العائدين إلى رشدهم يعلمون بأنهم الآن، والآن فقط، عرفوا حقيقة الإنسان في كماله وتوازنه، وشعروا عميقا بسمو الوعي.. والآن، والآن فقط، خبروا حقيقة وحقا، أخلاق الإنسان وتماهوا في فضائلها.

إذا كنا نريد ضبط مفهوم لشيء نسميه ردة، لا أجد شيئا أكثر ملائمة ومطابقة له من انتكاس الإنسان من حالته الإنسانية إلى الحالة الدينية.

وإذا كنا، رأفة بمواطنينا لا نريد أن نعاقب على تلك الانتكاسة، ولكن نمنع فقط من يروج لها (على شاكلة الاعتدال إياه)، فليس هناك ما يستعجل منعه وتحريمه والمعاقبة عليه، مثل الترويج للبضاعة الدينية.

ونختم هذا الفصل بسؤال.

ماذا لو لم يحشر الدين أنفه في الميتافيزيقا؟

كان سيكون سير العلوم في مباحث الوجود سيرا طبيعيا ولن تعرف الانشقاق الحاد الذي حصل بين المثاليين وبين الماديين.. وكنا لم نعرف تيارا باسم الوضعية المنطقية من الأساس. ولا تيارا باسم المادية المتطرفة التي تنكر وجود ما وراء المحسوس إنكارا صارما.. وتعلمون أن ذلك أضاع وما يزال على المسيرة الفكرية والعلمية وقتا معتبرا في هوامش "سياسات" علمية.

ما جنيناه من تسييس البحث الانطولوجي على المستوى الفلسفي هو نفس ما جنيناه من دوغمة البحث الطبيعي على المستوى العلمي.

كان سيكون تطور الفكر البشري خال تماما من اليقينيات والأفكار المطلقة والحقائق الواحدة. لأن الفكر حينها سيكون نتيجة تفاعل عقول الناس مع الواقع مما يحقق له تاريخية تمنحه بالبداهة نسبية الرؤية وإمكان تعدد الحقائق مما يساعد على تقدم العلوم بدون مشاغبات سياسية.. على خلاف تفاعله مع نصوص على وجه التلقي والإذعان لسلطتها، بدون جمركة عقلية وتصفية طبيعية إنسانية.

ما جنيناه من تسييس البحث الانطولوجي بعالمنا، أدى بنا إلى صنع برمجة في الحياة كما أرادها النافذون وقتئذ، وردها إلى " علام للغيوب شديد المحال لا تدركه أفهامنا".. فلا مجال إذن للمراقبة أو التمحيص أو التثبت بعقولنا "القاصرة".. برمجة رددناها إلى عالم ما وراء الإنسان وما وراء الطبيعة.. إلى حيث لا مجال إلى النظر والتدقيق والتحري، فمن يكون هذا الإنسان الذي "أتى البارحة" مختالا بخلقه، متنطعا بعقله؟؟

ثم سارت على هذا الهدي الرشيد جميع الدكتاتوريات والشموليات والفاشيات الوسيطة والمعاصرة ببطاقة عبور مكيافيلية التصميم كما أسلفنا. فالدين يحتاج من حقبة معرفية إلى أخرى، إلى مجدد للحقبة.. ومكيافيلى (قدس سره) واحد من المجددين الفطاحل.

تحاور المؤمن الآسيوي.. وتجده يركز على **مسائل انسجام سلوك الإنسان مع قوانين الكون والطبيعة**.. وقد تخرج معه بفائدة.

وتحاور المؤمن الاوروبي.. وتجده يركز على **مسائل انسجام العلاقات الإنسانية مع مبادئ السلام**.. وقد تخرج معه بفائدة.

وتحاور المؤمن العبراني[28]، بطبعاته وفي سياقاته المختلفة..، فتجده يؤكد على **مسائل الأَسْفَلَيْنِ** (بفتح اللام) لا يرضى للحوار منهما فكاكا مهما حاولت معه ذلك.. وثق يقينا بأن أمك وأختك وبنتك ستكُنّ حاضرات بالحوار.

ويؤثر أن يبدأ بسؤالك عما إذا كنت مسلما أم لا.. خصوصا إذا كان الحوار في جمع أو محفل يزيد أو ينقص من الناس البسطاء. كأنه

---

28 - لفهم السياسات الدولية المعاصرة، ولفهم جوهر الديانات العبرانية نفسها، يحسن بنا أن نترك التصنيفات التقليدية جانبا، ونركز على المضامين. فالبروتستانتية مثلا، هي المظهر البراق المنقذ للدين العبراني لدى الإطلالة الوشيكة لأنوار القرن الثامن عشر (مُستبقة للأحداث، محاولة منها لسرقة التحوّل فيما بعد). مثلها مثل الوهابية – و ما انبثق عنها من إخوان و سلفيات مختلفة - التي كانت المظهر البراق المنقذ للدين العبراني لدى الإطلالة الوشيكة للنهضة العربية (مُستبقة للأحداث، محاولة منها لسرقة التحوّل فيما بعد). أما الفاشية والنازية وحربيهما العالميتين، فهما ما تبقّى من طلقات الدين العبراني وضربته العشوائية اليائسة في خضم المدنية المعاصرة. وكم سيكون مفيدا لو عكف المختصون على دراسة هذه العبرانيات المختلفة عصرا وجغرافيا وسياقا، بتحديد هدف الوقوف على طباقها حينا وتكاملها حينا آخر، والوصول إلى وحدة مبدئها وغايتها.

يستنجد منذ البداية بتأليبهم عليك وإشهادهم بأنك خارج الإطار ومنحرف، كتعويض استباقي عن بؤس حجته.

وأحيانا يستنجد حتى بتطبيقات الشريعة، وهو يعلم بأنه يحاور إنسانا طبيعيا على الفطرة. لكنه يتغابى...

ويختار من تلك التطبيقات ما يعتبر مقدسا أكثر عند أولئك البسطاء الحاضرين، حسب البلد.

فمثلا إذا كان في موريتانيا يسألك: هل تُصلّي؟ وإذا كان في الجزائر يسألك: هل تصوم؟

أما إذا كنت في مصر فالسؤال بطبيعة الحال سيكون: هل أنت ضد البخاري؟

فإذا ما أبطلت له إفكه بأجوبة عفوية ودقيقة في آن، وشعر بأن مَكْرَهُ لم يصل تماما إلى إيغار صدور الناس البسطاء عليك..، دخل مباشرة إلى بيتك، وسألك بكل وقاحة عن نسائك، وهل ترتضي لهن الحجاب أم العري...

وإلى هذا الحد، تجد نفسك مرغما على ضبطه.. فتشرح له بأنه وإن وجد العري في سائر المجتمعات كتقاليد ليست مفروضة بتشريع، بَلْهَ أن يكون تشريعا من وهم اسمه السماء، فإنه من بين جميع شرائع الدنيا سارية المفعول إلى اليوم، **لا توجد شريعة قننت رسميا وأمرت**

فئة من النساء (الإماء) بالتزام العري إلا شريعتنا الغرّاء... ثم تصِمون حضارة الغرب التي آوتكم من حرّ بحضارة العري...

على أن الحجاب العنصري، الذي يميّز إناثنا (الحرائر) عن نساء غيرنا (الإماء)، لم يواري مفهومه العنصري وينتحل له مفهوم العفاف إلا مع الإسلام الإشهاري بالمدرسة التحريفية المعاصرة..

يجول صاحبنا بحوَله على الحضور، ويتهمك بما شاءت له ركاكة عقله من عمالات وعمولات وصليبيات واستشراقيات وصهيونيات إلى آخر الاسطوانة.

تحاول أن تخرج بالحديث عن القضايا الشخصية، وتوجهه مثلا إلى النظام العلماني والمسائل المدنية، فيعود من نفس هذا الباب ثانية إلى "انشغالاته" الصغيرة حسب عمره النفسي، والذي بقي معلقا ومتراوحا بين المرحلة الشرجية والمرحلة القضيبية.، فيختصر لك أنظمة وتصاريف معقّدة في تنظيم الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في جزئية لا علاقة لها بالشأن العام، ولكنها المفضلة إسلاميا بهذه الأيام لدى الحديث عن العلمانية..، وهي ترسيم زواج المثليين...

أخيـــــــــــــــــــــرا وبعد طول عنت، وبعد أن فقدوا الأمل، أتاح ذلك الترسيم للمسلمين "طُعما" يتناسب مع حجم عقولهم وحدود اهتمامهم، يُمَكّنهم من نقد العلمانية.

فلقد تساوى في هذه "الراحة"، الكبير والصغير، المتعلم والأمي.. كلهم أصبح لديهم كلمة جاهزة الآن لدحر العلمانية، وغاب عنهم أنّ العلمانية تُنظِّم ولا تُشرِّع.. الذي يُشرّع هو المواطن، من خلال إعمال عقله، أو من خلال تعطيل عقله وتوكيل دينه.. فإذا ما شرع ما لا يتوافق مع فطرته، اسألوا ما استعمله من "إيحاءات" من خارج عقله.

فعندما تشرح لصاحبنا بأن ترسيم زواج المثليين بالغرب، هو حلّ لمشاكل الدّين بالأساس، وليس العلمانية، اتهمك بالتخريف، وفحص وجوه الحاضرين.

يستجمع قواه، ويأبى إلا أن يراوح مديدا بين الشرج والفرج توافقا مع زاده الديني، ويقفز بسؤال وفي عينيه بريق المنتصر هذه المرة قائلا:

لنفترض بأن لك ابنا، وأراد أن يتزوج من "شاذ" في الغرب، هل تبارك الزواج؟ ويعود يتفحص وجوه الحاضرين.

تجيبه بأن السؤال افتراضي بمجتمعاتنا، وبدعة في مجتمعات غيرنا... فلماذا لا نسأل أسئلتنا نحن، والتي ليست افتراضية بل استعجالية، وتخص واقعنا وثقافتنا وتراثنا نحن..

هناك من "يزعم" بأنه يحاذر من العلمانية لأن في ظلها "يُرَسَّمُ زواج المثليين"، ولا يحاذر من الإسلام الذي يُرَسِّم الزواج من الطِّفْلات..

لقد فات هذا المتورع لدينه، بأن العلمانية **ليس من مهمتها** أن تمنع أو لا تمنع ترسيم المثلية.. أما الإسلام "**فيُرَسِمُ**" الزواج البيدوفيلي ابتداء...

بمعنى أن العلمانية في مجتمع لا يريد المثلية، يستحيل عليها أن تكون مرسّمة، لأن التشريع في العلمانية من اختصاص الإنسان المواطن.. فالمجتمع هو الذي يُشرّع ما يتوافق مع منظومته القيمية..

أما الإسلام، فيرسم نكاح الصغيرات قهرا عن الإنسان المواطن ومجتمعه، وقهرا عن منظومته القيمية.. **فما كان لمواطن أو مواطنة أن يرفضا ما أنزل من تشريع وقفا**.. ولهما أن لا يختارا - تفضيلا لا إنكارا- هذه الصيغة من النكاح لأنفسهما.. ولكن ليس لهما أن يراجعاها في مجلس الأمة إذا كان إسلاميّا، ولا أن يفرضا على الآخرين عدم

الأخذ بها حتى وإن كانوا أبنائهم.. وإنكارها إنكار للسنة، وكفر بأحكام الشرع.

فالمثليون، - وليس من هدفنا دعوة مجتمعاتنا إلى تقليدهم، ولا أحسبها في حاجة إلى ذلك-، يناضلون في بلدانهم، من أجل انتزاع نص قانوني لصالحهم، في حين أن النص القانوني لصالح نكاح الصغيرات موجود عندنا منذ أربى من 1400 عام[29]، ولا يحتاج البيدوفيليون إلى نضال أو صداع من أجله.. كل ما عليهم أن يفعلوه، هو رفع شعار الإسلام هو الحل والمطالبة بتطبيق الشريعة.. والمجتمعات ذات المرجعية الثقافية العبرانية الأخرى من غير المسلمين نفضت عنها ذلك العار من تواضعها منذ مدة.. أما مجتمعاتنا المتخلفة تلك، فما زالت تقوم بسوءتها في كل الدعة والاطمئنان... ذلك أن أصول التشريع، السنّة خصوصا، وقفٌ في الإسلام، وليس من صلاحيات عقل الإنسان "القاصر" الذي لم يُسمح له بالدخول إلى هذا الفضاء إلاّ كأداة "صاغرة" مقيّدة بالقياس. ثم أن الصورة التقليدية لتلك السوءة أخذت لها أشكالا أخرى في مجتمعاتنا الإسلامية "غير

---

29 أنظر على سبيل المثال لا الحصر أبواب النكاح والرضاعة في:
المذهب الحنفي: السرخسي في المبسوط.
المذهب المالكي: شروح مختصر خليل.
المذهب الشافعي: روضة الطالبين للنووي.
المذهب الحنبلي: البهوتي في كشف القناع.

المتخلفة"، أي التي دخلت مناخ العصر واستفادت من رشده. لأن أصل السلوك واحد، والفعل من الناحية الجنسية التطبيقية بغض النظر عن بهارات الثقافة فعل واحد، فإذا كان المبارك منه شرعا غير محرّم، يبقى في تأرجح بين التأفف والتعفف حسب مدى تشبع المسلم بروح العصر الإنسانية، أي حسب مدى "فسوقه وتبرجه" وتحلله من الدين.. أي كلما تحلل من الدين أكثر بفعل مدى تأثره بالثقافة الإنسانية، كلما أنكر أكثر تلك الجريمة المشروعة دينيا.. ولكن مهما كان إنكاره، لا يرقى إلى التجريم، خصوصا إذا تمت الجريمة وفق أركان النكاح الإسلامي، ما دام مؤمنا ومحتفظا بتقديسه للدين.. ولأنه لا فرق في النهاية بين البيدوفيليا الشرعية، وبين ابنتها الشرعية، البيدوفيليا غير الشرعية..، فإن مجتمعاتنا الإسلامية الأخرى "غير المتخلفة" التي لا ينتشر فيها هذا النوع من النكاح الشرعي، لا تخلو من حوادث وأحداث وأحاديث اغتصاب الطفولة "غير الشرعي" الذي يعتبر ظَاهِرَةً عندنا، وإن كانت تحرجنا وتؤذينا.. في حين يعتبر في المجتمعات "الكافرة الملعونة" شذوذا وجريمة نتنة يعاقب عليها.

إلى هذا الحد..، محاورنا لا يعود من شروده، تبرّما بهذه "الفلسفة" التي عَلَّمَهُ دعاته العبرانيون – لهدف لئيم- بأنها لا خير

فيها.. وأنها لا تعود عليه برغيف واحد من عند الخباز... ويكتفي بترديد ما لقنوه مرارا وتكرارا قائلا:

دعنا من الفلسفة.. وجاوبني من الآخر.. من دون وازع ديني، ماذا يمنعنك من مناكحة محارمك؟

قاصمة ...

وتحت الدهشة لهول السؤال، تتحول من ناكر عليه إلى مشفق. وتنقلب من منكر للأديان إلى اشد المدافعين عنها.. وتقول له في شفقة:

لا والله.. لا تأخذ كلامي بمحمل الجد.. أنا مسلم وكلنا مسلمون.. أوصيك بحق من يعز عليك أن تتمسك بوازعك الديني هذا.. **إياك ثم إياك أن تتخلى عن دينك فتَهْتِكَ محارمك.**

ثم تقوم عن الجماعة.. مُثقلا مهزوما.. مُطلِقا خُطاك على غير هدى.. مُرددا أحد المقاطع الكلثومية:

إذا الإيمان ضاع فلا "أمان "...

لا يمكن أن نهرب من طرح أسئلتنا إلى طرح أسئلة غيرنا.. ومع ذلك، فهذا الأسلوب غير النزيه، أضحى الحرفة المفضلة ليس لدى محاورنا المسكين فقط، وليس عند دعاتنا العبرانيين فقط، ولكن بالواقع فعلا، لدى سواد كبير من المواطنين.

طبعا ليس كل المسلمين بهذا السّفه.. ولكنه في تكاثر كلما ازدادت الرداءة الثقافية بالعالم العربي...

على أن واجب ذكر الإيجابيات أيضا يدعونا إلى التنبيه بأن هناك محاورين أقل سفهًا.. وهم نوع من المحاورين على سعة من الاطلاع والاضطلاع بوفرة من الأسفار المحمولة.. ويبدو أنهم أدمنوا على ابتلاع تخاريف لفيف كبير من الإخوان المسلمين ومدرسة **البهتان العبرانية التي خلفوها**..، حتى مردوا على قذف الكبار، وإساءة الأدب مع العلماء الأحرار.. تعرف ذلك في كتاباتهم وانتقاداتهم لأعلام ومناضلين مخلصين أضاعوا وضحوا بكل شيء حفاظا عن الحقيقة والعدالة.. فأول ما يبدؤون به مناقشة رأي واحد من أولئك الكبار، هو رد تساؤلاته إلى ما يوهم بشبهها من تساؤلات سبق بها المستشرقون "الملاعين"، أو أدباءنا الأُول "المستغربون" من خلفية مسيحية.. وهي حجة ينفثونها بروع قارئيهم قائلين: هذه شبهة قالها فلان من المستشرقين قبله وهو لم يزد على ترديدها كالببغاء.. كأن مشكلتهم

ليست مع الأزمة الحقيقية التي يطرحها تساؤل الإنسان – أكان مستشرقا، مستغربا أو مستسلما- حول تراثهم الديني البائس، ولكنها مع شخص المفكر نفسه.. الغريب هو أنهم لا يجيبون بشيء.. فهذا الغل المنفوس هو "حجتهم" الوحيدة.

كم بحثت جاهدا في الشقشقة العبرانية عن حجج وردود رصينة على الرواد، من مثل الرد الرصين العميق والهادف للدكتور اللاديني المتدين، خالد الذكرى، ناصر الدين الأسد مثلا، في "مصادر الشعر الجاهلي" على الدكتور طه حسين وكتابه "في الشعر الجاهلي"..

لا شيء سوى القذف وأساليب التبكيت الرخيصة وإيحاءات التجريم والتأليب الجبانة.

الأزمة لا تعنيهم، ولا يعنيهم أن تطول بهم مضاعفاتها.. ما يعنيهم وما يشغلهم و " يجرح مشاعرهم" هو أنك تفكّر.

وحتى لو ساخفت زمانك جدًا، على مذهب صاحب الهمذاني، وسلمت معهم – شفقة بحالهم - بأنك تنقل ملاحظاتك عن "أنجاس" آخرين..، هل يمكن أن ينبِّهنا شخص إلى عطب بسيارتنا، ثم لا نستجيب له، ولا نصلح العطب بدعوى أن هناك من نبهنا قبله، ثم نَسُبّهُ أيضا بوصفه ببغاء؟؟

حُجّة أقبح من جهل...

لقد سارت "جوامع لمم" في الرد على الفكر الحر أقل ما يقال عنها أنها بلا معنى... منها مثلا:

هو يكتب من قاعدة: خالف تعرف.

لقد قالها المستشرقون قبلهم.

يبدو أنهم يعانون من مشكل نفسي.

إنه يبحث عن لجوء سياسي بالغرب،

نحن الآن في عصر انتقاد الإسلام لكل ناعق.

ذلك الكاتب أمه يهودية.

والآخر زوجته صليبية.

وهذا يتقاضى من الفاتيكان.

والآخر يكفي أنه مات منتحرا. (استثمار حتى في المأساة)

وذاك ثبت أن جد أمه من يهود الدونمة.

والآخر ثبت أن زوج خالته من يهود المغرب قبل النكبة.

فما شاء يهوه، على تلك الحجج الدامغة والردود العقلانية المستنيرة.

والقائمة تطول من مثل هذه المنفوثات، والتي يختصرون بها مشاريع فكرية بأكملها، ويضعونها عنوانا على أعمار فنيت في البحث

والتضحية.. كلمات تشي بِغِلٍّ يَهْوَوي عريق على الإنسان وتميزه..، يكتفي بها الطاعمون الكاسون من الدعاة العبرانيين.. قاعدين بأنفسهم عن رحلة الدراسة الواعية لما تقترحه تلك المشاريع.

لا بد من التنبيه صراحة هنا:

نعم... هناك كثير من الملاحظات التي تركها المستشرقون الأجلاء و لا تزال حبيسة الانتظار بقاعة نرجسية الإسلام.. ولا نفتأ نحن أبناء هذا الزمن نطالب بها ونشد على قوامها ونحتفي بأصحابها.

نعم... هناك أيضا عديد الملاحظات التي تركها رواد النهضة العظام من أدباءنا ومفكرينا العرب، والذين سلقتهم الدعاية الدينية العبرانية بفحيحٍ كريه.. ولا نفتأ نحن أبناء هذا الزمن نذكر فكرهم ورشادهم.

نعم... هناك أيضا عديد من الدراسات المخلصة الواعية التي قام بها - ومنهم من لا يزال يرعاها- ثلة من أساتذتنا ممن تكفرونهم وتلصقون بهم كل التهم من أجل النيل من قوة تأثيرهم، ونحن نعتبرهم أعلام فكرنا المعاصر.. ممن قدموا عديدا من الأفكار الأصيلة كاملة الجدة، والملاحظات العميقة الهادفة استكمالا لمسيرة الأوائل.. على قلة وسائلهم وإمكانياتهم المادية مقارنة بالأوائل، وحتى على قلة

إمكانياتهم السياسية أيضا، ما دامت الأنظمة تقف في صف الأفيون المُسَكِّن لشعوبها، والشعوب تقف في صّف من يطعمها ويسقيها.

نوع آخر من المحاورين، أضاع عقله جريا وتشتتا مع موضة ما يسمى برد الشبهات وفضحها..

فما يسمونه شبهات ليس سوى مآخذ العقل الإنساني على الدين، وتصويبات الفطرة لانحرافات التعاليم الدينية عن جادة الحق والصواب.. ولكن في معناها الذي يقصدونه هي عنوان على كل الملاحظات العادية الموضوعية التي سجلها الإنسان، بدون أية خلفية، على مُحالهم.. والتي أوهموا عموم المواطنين بأنها ملاحظات "حاقدة على الإسلام" باستغلال مواطن الاشتباه في نصوصهم. هذه هي "الشبهات" في أعرافهم...

وطبعا، سيكون بناء على هذا، كل ما نكتبه هنا يدخل في مُسمّى الشبهات.. فيكون في خيال المسلم العادي، و "العَادي" من وراءه، من الأسلوب الخبيث "لأعداء الأمة" (أية أمة؟؟).. وتزلفا إلى بُؤَر ملعونة في الغرب أو في إسرائيل (ما اللعن؟؟ ومن لعنهم؟؟ وما تلك التكنولوجيا بيمينك؟؟)

والعمل كثيرا على موضة الشبهات من طرف المسلمين "المدافعين عن الحمى"، ولا أشك في إخلاصهم على ضلالهم، أدّى بهم إلى اكتساب ذرية منطقية "تقليدية"، كنا اعتقدنا أنها ولّت مع ثقافة الحواشي، وحواشي الحواشي. ثم سرت عدوى ذلك حتى إلى الجيل

الصاعد الذي افتتن بمتابعة هذا "الجهاد" المحموم في تتبع "الشبهات" عبر الفضاء السيبراني.. وامتلأ زهوا "بقصف" فطاحل المكافحين لها.

فهذا الطالب، عاد واطمئن إلى دينه من جديد، وساغ له أخيرا - والعزة بالعزيز - بأن يمرّ على زميله "العلماني" من دون أن يبدئه السلام.. وأن يتذكّر بأنه في النهاية خسيس، لم يتعاون معه العام الماضي على الغِشّ في الفصل... والفضل في هذا التغيّر المفاجئ، هو أنه تابع البارحة على اليوتيوب درس يوضح بالدليل القاطع أن الصحابة لم يتقاتلوا على الدين، وإنما "تقاتلوا على السياسة"..

وذاك عاد وقوي إيمانه من جديد، وساغ له أخيرا – وليجدو غلظة – أن يعبس في وجه صديقه المتأثر بالفكر المغترب، وأن يضطره في الطريق إلى أضيقه.. وأن يتذكر بأنه نَذلٌ بالنهاية.. لم يقرضه دنانير طلبها منه الخميس الفائت..، لأنه تابع البارحة في موقع أحد الدعاة مقالا يقطع بالدليل الواضح على أن عدد المذبوحين في بني قريظة كان أربعون (والحمد لله)، ولم يكن أربعمائة كما يقول " الشيوعيون الصليبيون".

والآخر عاد وانتفض مع دينه من جديد.. وساغ له أخيرا- فَهُمُ العَدُوّ - ألاّ يتواضع عن صَغار لأستاذه بمادة التاريخ، المعروف

بإلحاده. وأن يتذكر بأنه فاسق بالنهاية.. بقي إلى اليوم أعزبا..، لأنه تابع البارحة جهبذا عبرانيا يحاجّ بالفيسبوك، ويدلّل بالقطع الواضح على أن غزو المسلمين لمصر كان بدعوة من أهلها.

ففضلا على هذا المستوى المؤسف والموجود بالفعل في الواقع، وفضلا على تدميرهم الفوضوي الخلاق لعقول شبابنا والمسلمين عموما، لا يمكن للمجاهدين على النت، ولمكافحي "الشبهات"، أن يفهموا هم أنفسهم دينهم على حقيقته، ما داموا منخرطين في مستوى ترقيع التفاصيل والجزئيات، وتوسعة مجال المُلهيات التاريخية والكلامية والبيانية..

سوف يمنعهم ذلك من الانتباه إلى ما يثيره الفضلاء في المقولات الأساسية وكبرى المسلّمات التي لعبت بنا جميعا.. وسوف لن يغيّر من وضعهم ومن وضعنا البائس هذا قيد أنملة.. وسوف لن يعدو أن يكون مبررا "مريحا" لمواصلة حياتهم كأرقام في دوامة الإيعاز والاستهلاك.. وسوف تستمر بنا الدنيا "دُنيا"، على ما وصفها به الدين وأراده لها..

ليعلموا جميعا، دام فضلهم.. أنه يسعدنا كثيرا أن نطالع بحثا يؤكد بالتدقيق على أن البربر استقبلوا الغازين بالورود، ولم تكن هناك جرائم ولا هم يحزنون.. أو أن حروب الردة كانت قضية عادلة لأن

اليمامة غدرت، وليس العكس.. أو أن جريمة خالد في ابن نويرة مكذوبة.. وغيرها كثير من المسائل التي انبرى لها فطاحل مجاهدينا السيبرانيين، فاستعملت وسائل التواصل الاجتماعي من أجل إعادة اجترار ثقافة الأخبار والرواية، وبلبلوا بها ناشئتنا، فغرقنا من جديد في ماضينا السعيد بفضل النت، ونحن نحسب أننا دخلنا العصر بفضله.

تلك المسائل القائمة على قدم وساق بالفضاء السيبراني، يسعدنا أن يكون دعاتنا محقّين فيما يقرّرونه لها.. وليس من رسمنا، ولا حتى من طبعنا، أن نتمنى غير ذلك.. ليس لأننا بالضرورة أكثر حلما وكرما.. ولكن لأنها تتعلق بتاريخنا وتاريخ أجدادنا من جهة.. ثم من جهة معرفية، لأن هذه المسائل ليست من مجال انتباهنا، بله أن نكون من هواة تصيُّد النقائص بها.. وصواب دعاتنا فيها لا ينقض ولا يؤيد من قريب أو من بعيد ما نعالجه هنا وما نقرره في حقيقة الدين.

لنفترض أن تاريخنا كله كان سلما وسلاما، وأن صحابتنا وتابعيهم وتابعي تابعيهم كانوا جميعا بدون استثناء "ملائكة" يمشون على الأرض (وهذا يريحنا ولا يزعجنا كما يرجفون).. وأن دستورنا القرآن، ثبت علميا بمراصد تكنولوجية متطورة تعود على الزمن، أنه نزل من السماء السابعة إلى الأولى (على افتراض وجودهما)، وأن

تلك المراصد ضبطت كائنا فضائيا أيضا، وهو «ينزل" على الأرض مرارا وتكرارا بمناطق "الرسائل" الدينية.. وأن لجنة "كوكبية" علمية حققت في هويته، فوجدت بما لا يدع مجال للشك بأنه صادق في دعوى كونه "هبط" إلى الأرض مبعوثا من طرف قوة مطلقة بهذا العالم.. وليس من أحد ملوك المجرات أو الكواكب القريبة المنافسة للأرض مثلا...

لنفترض ذلك وأكثر.. هل يغير مما نناقشه ما نقرره هنا شيئا؟

برأيي لا يغير شيئا..، لا يؤيد شيئا.. ولا ينقض شيئا أيضا..

ذلك أن الإشكال اليوم، لم يعد يتعلق فقط بصحة المصدر من عدمها حتى يكون اكتشاف صحته أخيرا حسما لكل خلاف.. بل تعداها إلى انفضاح البرنامج نفسه بوصفه لا يقوم على شيء.. وفي تلك الحالة المفترضة، حالة الاكتشاف "العلمي الدقيق" لصحة المصدر..،

- إما أن يتبرأ المصدر جملة وتفصيلا من هذه الرسالة العبرانية التي خربت الاجتماع البشري، فيكون دعاتنا - إذا غفلنا محاسبتهم على كذب انخدعوا به، لا يقصدونه - من المشكورين إلى وظائف أخرى..
- وإما أن يقرّ بأصالتها عنه، فيكون مسئولا على رداءتها.. وهذا قد يمسّ بسيادته "الكونية المفترضة".

وفي كلا الاحتمالين كما نرى، يستمرّ اعتقادنا الواضح القاطع بزيف الدين، على منتهى المعقولية.

وعلى هذا يتّضح للعام والخاص، بأن العقلاء ليس لديهم أية مشكلة مع وجود إله للكون أو خالق أو مصمّم. والخلاف الدائر اليوم حول مسألة وجود إله أو عدمه بالصورة الحالية، هي من تصميم وتوجيه رجال الدين عموما من أجل تحويل النظر عن محتوى الدين القاتل للإنسان كما قدّمنا. وهو حوار يفترض أن يكون من اختصاص علماء الكون ولا علاقة له بالدين والسياسة. فليس من المعقول أن ابني موقفا سياسيا أو أغرب من ذلك، أتبنى عقيدة سياسية تأسيسا على إدراك نسبي في تاريخ الطبيعة.. سواء تعلق الأمر بوجود خالق أو بتطور الإنسان، وغير ذلك من المسائل الطبيعية التي هي من اختصاص العلم، وسواء أدركها الإنسان أو لم يدركها، لا يتوقف الكون ولا تتوقف حركة الإنسان وتطور المجتمعات. هل يعقل أن أؤسس دينا على الإيمان بوجود عفريت بمثلث برمودا؟ أو هل عندما لا أصدّق الدعاة "البرموديّين" الذين سطّروا لنا شرائع برموديّة مُلزمة يُقاتَلُ من يحيد عنها..، هل أكون ظالما إذا أنكرت عليهم ذلك؟

لا يزال الناس إلى يومنا هذا عندنا - بالأرياف خصوصا- يؤمنون بعقائد شتى من هذا القبيل، استوحوها من ظواهر طبيعية عجز

إدراكهم البسيط عن تفسيرها.. وصاغوا تأسيسا عليها مجموعة من الطقوس والممارسات.. وهم يعتبرون من لا يؤمن بها مسكينا خاوي الوفاض من الإيمان والنيّة والتسليم على ألطف تقدير.. وهو تقدير يتناسب مع حالتهم البائسة. أما لو كانوا في عزّة وقوة، فإن موقفهم يكون أكثر حدّة وإدانة.

فإذا كان العقلاء ليست لديهم مشكلة مع وجود طاقة مركزية للكون، فإن مشكلتهم مع الديانات، أو مع الإله العبراني الوهم، والذي تصوّره الديانات حسب خيالها المريض والشاذ عن الفطرة.

فالتعلل والركون إلى أن هذا الدين جاءنا ممّا لا عقل أدرك ولا فؤاد رأى، غير ذي وزن مطلقا.. يتعلق بما قالوا إنه المصدر ولا نراه... وإلى أن نراه، فلنشتغل الآن - بحول العقل- على تقييم البرنامج الذي نراه...

يتزايد حجم المناقشات بين الملحدين وبين المؤمنين في الإعلام وفي وسائل التواصل الاجتماعي.. والغريب، حماسُ الملحدين في ذلك.. فهل نفاوض ونناقش ونحاور المريض على مرضه؟؟

للعاقل الحوار.. وفي بلداننا يُسفَه ويُسجن.

ولفاقد العقل الإسعاف مع الحجر على أهليته.. وفي بلداننا أوكلناهم أحزابا سياسية تقود دولة.

وعليه، أجد مناسبا، بعض التدقيق في المسميات:

هناك مفاهيم عديدة للإلحاد، أدت إلى مصطلحات وتسميات متنوعة، وكثير منها على توصيف محترم وعميق، وعلى من أراد إحصائها الذهاب إلى كتب أو مواقع أساتذتنا الأدباء أو إلى المبسطين من مفكّرينا الأفاضل.

أما من كان مستعجلا، فيمكنه الاكتفاء مؤقتا بمتابعتنا هنا:

على افتراض أن معنى كلمة إلحاد، عدم الاعتراف بوجود خالق الكون بوصفه العلة الأولى لكل شيء كما يردد - ويحلو لهم الترديد - إخواننا المؤمنون، فهناك نوعان من الإلحاد..، إلحاد بسيط وإلحاد مركب.

<u>الإلحاد البسيط</u> ← نفي العلة الأولى والقطع الوثوقي بعدم وجودها وراء العالم المشهود.

فالملحدون بالوصف البسيط، الطبيعي، الذي لا يضر الحياة ولا الإنسان ولا الاجتماع، هم من نعرف في ثقافتنا الجارية اليوم باسم الملحدين. قد يكون المأخذ الوحيد عليهم هو أنهم يتمسكون بحكم نهائي مسبق في مسالة علمية لم تتضح بعد جميع تفاصيلها.. وهي مسالة بعيدة عن حياتنا وشؤوننا الخاصة وحتى العامة.. وهي بعيدة عن بلدنا.. وبعيدة عن قارتنا.. وبعيدة عن كوكبنا.. وبعيدة عن مجرتنا.. فهي تتعلق بفرضيات ما وراء العالم.

مسألة علمية بحتة، لا يزال العلماء الحقيقيون في حيرة واختلاف بشأنها، في حين أن الشُطّار عندنا، وصلوا إليها "بنباهتهم الفائقة" - ولعلها "البصيرة"- وضبطوها.. ثم سرعان ما أدرجوها ضمن أساليبهم في تجهيل واستعباد البشر.

ولوا بقوا على اعتقادهم ذلك، كافين شرهم بخيرهم لما ناوأهم أحد.. ولكنهم سيّسوه وأدرجوه ضمن السياسة العامة، ومَعرَفوه وأدرجوه ضمن العلوم "ما فوق الدقيقة"..

وعلى هذا المحال، كان موقف الملحد البسيط، وتمسكه الوثوقي بعالم الشهود، رد فعل على حماقاتهم، ولم يكن ليكون لو لم تظهر ديانات. وعليه، فالتسمية الدقيقة للملحد البسيط هي الشهودي أو اللاديني، حتى وإن راج المصطلح الأخير بوصف مميّز.

ومهما كان الأمر، يبقى الملحدون بالوصف البسيط، مجرد أصحاب رأي في واحدة من ألغاز الكون وفقط، وهي مسألة علمية بحتة من اختصاص علماء الكون.. ثم بعد ذلك، يكون الرأي بالرأي، والاختلاف عندهم لا يفسد للود قضية.

الإلحاد المركب ← عدم الاكتفاء بنفي العلة الأولى كما في الإلحاد البسيط، ولكن صنع بديل عنها..، وبناءه من جديد في خيالنا وإعطاءه صبغة الكمال كما تريده رغباتنا وخياراتنا الثقافية ومناطق الراحة في خلايانا المُبَنّجة. وتخريج شرائع وأحكام من ذلك التصور نضفي عليها الإطلاق والقطعية والقسر، على الزمان والمكان والإنسان.

أي – مع تقدير الفارق طبعا - لا نكتفي بتغييب صاحب الحق (أ)، ولكن نزيد في التجني والافتراء عليه بأن نضع شخصا آخر (خ) مكانه، لا يساوي ساق بعوضة أمامه على افتراض وجودهما معا، ثم نقول للناس، هذا ال (خ) هو الشخص (أ)..،

ثم لا يهدا لنا بال حتى ينحاز الآخرون إلينا وإلا فإنهم:

- ملعونون وجب قتالهم إذا كان بنا بأس وقوة (إرهاب)،
- مساكين أنجاس وجب إرشادهم إذا كان بنا ضعف وهوان (تنكيد).

فالملحدون بالوصف المضاعف، الشاذ عن الطبيعة، الذي يتعدى ضرره إلى الحياة وإلى الإنسان وحتى إلى تشويه الحقيقة، هم - مع الأسف- من نعرف في ثقافتنا الجارية اليوم باسم المؤمنين.

فهم فضلا عن تجنيهم على أسرار الكون كما أسلفنا، ليسوا أصحاب رأي، بل أصحاب موقف نفسي من مخالفيهم. فما عداهم نجس..، والاختلاف عندهم يفسد حتى على الرحم القضية.

فالمؤمن الحالي إذن ليس ملحدا فقط، ولكنه ملحد ومفتري... مع تقديراتنا.

ثم الإنسان العادي، الذي لا هو ملحد بالوصف البسيط، و لا هو (مؤمن) ملحد بالوصف المضاعف، يبقى إنسانا في توازنه و رجاحته وسط هذا الكون، لا يهمه الكون وما وراءه إلا إذا كان ذلك من مناط اختصاصه بالمخبر أو الجامعة، أو من مجال فضوله المعرفي في الحياة، كمبحث علمي صرف بعيدا عن التسييس الديني..، و يبقى من جهة أخرى في كامل الشعور و الاستشفاف بأنّ جزء منه يسمو به إلى أبعاد في داخله، كلما استشفها ازداد قلبه إشراقا على الروح المصدر، تلكم الروح التي بقيت طويلا لغزا للإنسان و سرا من أسراره، طالما تلاعبت بغيبها و نطقت باسمها جهات ملحدة و مفترية

(أي مؤمنة) لا تعنيها الروح في شيء..، و كلما ارتاح إلى قبسها ازداد خيرا و عدلا و تقديرا لجميع الكائنات.

كلنا نطالع في حياتنا العادية واليومية أفرادا من هذا الفصيل الإنساني الطبيعي الرائع.. نعرفهم في أسرنا وفي زملائنا بالعمل وفي الحقول والقرى النائية وفي جميع مجالات الحياة، يقطرون عدلا ويشعّون خيرا.. وأنت ترقبهم عن قرب، وتجلس إلى قلوبهم وآمالهم، تجدهم – حتى و إن كان بعضهم متدينا بحكم التنشئة، ويدخل في هذا الصنف كثير من آباءنا وأجدادنا الطيبين – لا تربطهم أية بادرة أو خاطرة بالمضغة الحقيقية للدين، لا من قريب ولا من بعيد.. كثير منهم بسطاء متواضعون، يعملون في صمت وتأمل.. وقليل منهم يحترف السياسة أو الدين بعامل المحيط والتنشئة أو السياق والتوجه، مع غبن لا يفهمونه، يواجهونه بتلك الأوحال بحكم تناقض طبيعتهم مع عفن الدين وصفاقة السياسة.

هذه الفئة من الطيبين، يحيل إليها الدين كلما شعر بالخطر ويتخذها درعا، ويدعي بأن المفكرين الأحرار ضد هذه الفئة، وهو يعلم بأنه لا يمثل تلك الفئة، ويعلم بان تلك الفئة أسيرته ورهينته وهي نقيضه تماما.. ويعلم بأنه يكذب، ويعلم بأن الفكر الحر يعلم بأنه كاذب.. ولكنه يتمادى، اعتمادا على قاعدة إغراق الحقيقة في بحر من

الكذب، ثم مزيدا من أمواج الكذب، ثم مزيدا ومزيدا، فمزيدا..، إلى أن يصبح نبيا وصديقا .

لعل القارئ الكريم يتساءل هنا عن اعتقادي في تدين آباءنا والبسطاء بسواد شعوبنا، وفي لا دينيّتهم في آن.

والرؤية بسيطة..

التدين يتعلق بالتنشئة الاجتماعية وقدر الميلاد (أو عهده، أو مصادفته).. يكون في الغالب مطبوعا بلون المحيط.. يمكن رصده في الطقوس (الصلاة مثلا) وفي العادات (الصيام مثلا) وفي الألفاظ والأذكار الموقوفة (ذكر الله أو يهوه قبل الطعام وقبل النوم ونحو ذلك).. فأنت ولدت في الجزائر، فلن يخطئك التدين الإسلامي على أية حال إلا لسياق خاص وظروف معلومة.. وإذا ولدت في الهند، فلن تخطئك واحدة من غرائبيات نهر الغانج ونبات اللوتس.

فالدين عندنا، موجود بحكم الإرث الديني العبراني مع الأسف، في كل البلدان والمجتمعات سواء كانت عندنا أو في أمريكا أو حتى بالاتحاد السوفياتي سابقا أو الصين.. تحيله الطبيعة الإنسانية السليمة كل مرة إلى مجرد نمط ثقافي يميز الشعوب ويثري الوفرة والاختلاف، فيتساوى من المنظور القيمي في كل منها، ليصبح لا معنى لكلمة تديّن صحيح من عدمه... وهذا أمر يجعل أداه التفرقة

والفتنة والبلبلة (التديّن الصحيح) غائبة في المجتمع أو عديمة الجدوى.. وهو غياب خطير على الأهداف السادية للديانات العبرانية، **ولا ولن ترضاه أبدا**.. وهي تعمل كل مرة على إعادة طفح تلك الأداة على السطح من خلال جذوة دينية عبرانية كامنة منسية في أعماق المتدينين.

وسبب بقاء تلك الجذوة هو الكسل العقلي والعجز عن بناء الجديد والراحة إلى السائد الذي طبع مفكرينا.. والخلط الأزلي العامل فينا بين ضرورة الثورة الفكرية والدفاع عن ذاتنا من عدو التاريخ وبين الدفاع عن ذاتنا من "عدوّ" الجغرافيا..

لو علمنا بأن العدوّ الأول عدو وجودي والثاني عدوّ سياسي لقضي الأمر واستحال العدوّ الجغرافي منافسا سياسيا واقتصاديا وفقط.. ووجهنا جهدنا إلى دحر العدو الحقيقي، عدو التاريخ.. ولكن منافسنا السياسي يعلم بحقيقة الرهان، ويعلم – بحكم تجربته التاريخية- بأننا إذا قهرنا عدونا الحقيقي، نصبح أندادا له وربما نفوقه.. ولذلك، ومن حسن حظه كان انصرافنا عن قهر عدونا الوجودي يصب في مصلحته... وهذا موضوع آخر.. ولا نطيل فيه.. لأن عدونا التاريخي أنهى مهمته معنا.. وهو متجه اليوم إلى منافسنا السياسي، لا يعدل بمسخه هو الآخر، جبال الألب ذهبا..

فالتديّن إذن، حتى وإن كان ذا مرجعية توحيدية، عبارة عن عادات اجتماعية تعود إلى المحيط.. ويختلف من جهة إلى أخرى.. قد نفتخر بها، ولم لا، في نفس الوقت الذي نعجب أيضا بعادات المجتمعات الأخرى من منطق التعايش والاكتشاف وتعلم الجديد ومعرفة الآخر..

فهو عادة اجتماعية إذن..،

أما الدين فهو "حالة نفسية"، تنامت إلى "نمط تفكّر مميّز"، ترجم في الواقع إلى سلوك نفسي شاذ إزاء الآخرين.

وهذا ما عملت على تنميته الديانة العبرانية.. جاء الدين <u>ليفرق بين الناس نفسيا</u>.. فهو ليس ثقافة إنسانية <u>تميّز بين الناس اجتماعيا</u> وتثري الحضارات والتجارب الإنسانية.. ومن هنا كان حكمنا على عبثية حوار الديانات.. دماغ الهايدرا برؤوسه المتعددة في حوار نووي مع نفسه منذ أربعة آلاف سنة، وهو ليس من السذاجة أن ينتظر القرن الحادي والعشرين لتعلموه الحوار إلا إذا كنتم جزء من خطته.

صفاء الإنسان، ونقاء سريرته، وبداهة فطرته، ممثلا في مجتمعاتنا الطيّبة المنهكة..، تقاوم بكل عفوية، ومن دون أن تدري، الأهداف الساديّة للدين، بتحويلها كل مرة إلى تديّن اجتماعي.. ثم يعاود الدين ضرباته فيما يعرف بالصحوة الدينية رتيبة الإيقاع على

مدى التاريخ، كلما أحس بخطر لا فعالية أدواته وفتورها، ويعيد المجتمع إلى حظيرة الشحن النفسي العقائدي، فتدخل فئات المجتمع في فتن وحروب فيما بينها وتعطل التنمية ويغور العقل، إلى أن تكثر الخسائر وتتعقد الأمور، فيصحو ضمير الإنسان من جديد...

يغفل عنه الدين قليلا ريثما ينسى جرائره..، ثم يعاود الكرة معه... وهكذا.

فالدين على هذا يكون بمثابة جلد أعار خلاياه جسمها.. فانتقل من محترق إلى حارق.. يكسو جسد الشعوب المؤمنة.. رتيب التجدد لدى كل نُضجٍ على احتراق الجسم..

والحيلة في ذلك هو نصّ مؤسس حمّال أوجه، ونص مكمِّل "متنوع" الرواية حدّ التناقض والتضارب، لا ينفع معه في استنباط السلوك المطلوب، ولا أقلّ من ذلك، في فرز الفرقة الناجية منه، أحدث برامج الاحتمالات.. حيلة تجعل اللوم منصبٌّ أبدا على الإنسان "المحترق" الذي لم "يُوَفّق" في قراءة دستوره المقدّس. والذي ينضج جلده (دينه) أحيانا قبل نضج التين والعنب.

ثم السلامة والتنزيه، كل التّنزيه، للدين الذي يبدو بعد كل كارثة من كوارثه بجلدٍ جديد على واحدٍ من الخيارات اللانهائية لقراءاته.. والتي "هذه المرّة"، المرة البليون، "تُؤتي أكلها"...، على الوهم

الأبدي، دائم الحضور للمسلمين، بأنهم مع هؤلاء "الثقاة"، أو مع أولئك "الأخيار"، قد وُفّقوا بحوله وقوّته إلى ضبط الإسلام الصحيح، ولم يبق لهم إلا التوكل على الله، والهجوم على الإنسان وعلى الحياة.

لو تعقلنا هذه الصورة جيّدا، لعلمنا بأنّ أصحاب هذه الحيلة - وهم حتى نكون واقعيين، دعاتنا العبرانيون بالضبط.. ولا حاجة إلى ذكر أنبياء ليسوا بيننا وليسوا من بيئتنا ولا من عصرنا، فضلا عن كوننا لا نعرفهم، ولا يعرفهم علم التاريخ- لا يريدون بنا خيرا، وإن لم ينتبهوا إلى ذلك.

فعلى غفلة من الدين إذن، يحول الإنسان دينه إلى طقوس وعادات ثقافية، وينصرف إلى بناء حضارته واستقراره.. صدق هذا على الحضارة العربية الإنسانية، وصدق في فترات متقطعة مضيئة بتاريخنا الحديث.. كما صدق أيضا على ما يسميه التاريخ العبراني الرسمي "جاهلية"..، حيث حول الرشد العربي الأول دينه الوثني إلى تدين وإلى طقوس اجتماعية خادمة للاقتصاد الناشئ بمكة ويثرب والطائف، وانصرف إلى تطوير حياة حضرية إنسانية طبيعية تفاعلا مع حضارة الجنوب وحضارة الشمال.

وهذا ما يفسر عدم انسجام الصحابة تماما مع القرآن.. وعدم انسجام التابعين تماما مع الصحابة.. وعدم انسجام تابعي هؤلاء معهم

تماما.. مصداقا لما ورد في الحديث من أنّ خير القرون قرن الرسول، ثم الذي يليه، وهكذا..

وكثيرا ما يؤسس الإسلاميون على عدم الانسجام هذا -وبصورة معكوسة على ما يعنيه الحديث، وهذا من مفارقاتهم- حججهم على نفي صحة سوءات العهد الإسلامي الأول المذكورة في الأثر أو الحديث أو حتى في القرآن.. ويحتجون بأن نصوصها لا تعني ما تقوله وإن وردت في القرآن.. أو أن رواياتها ليست صحيحة وإن وردت في الصحاح، وإلا لكانت تأكّدت في فكر وسلوك التابعين وتابعيهم... والحال أنهم غفلوا أن الدين كان قد بدأ في التحول مع الأجيال اللاحقة إلى طقوس وتقاليد كديكور ثقافي لحياتهم وفقط وكانت الأمة بذلك قد انصرفت عن دينها الدخيل على الفطرة بسوءاته..، انصرفت إلى بناء حضارتها.

ثم على غفلة من ضمير الإنسان، يقفز الدين بسابق رصد وإصرار، على تدين الإنسان الاجتماعي الفلكلوري، فيحوّله إلى شحن نفسي عقائدي، ثم ينفث سمومه على الاختلاف فيصبح خلافا.. صدق هذا فيما يعرف بصحواتنا الدينية عبر التاريخ والتي لم نعرف من جرائرها إلا الحروب والفتن والتخلف.

وهذا ما يفسر عدم اقتناع كثير منا في زمننا الحاضر، بصحة فظائع الدين عن الدين، التي ترتكبها الجماعات الدينية، لأننا نقارن ذلك بما نعرفه عن التدين الاجتماعي لآبائنا زمن الاستعمار أو بعده بقليل، ولو قارناه بالدين العقائدي كما كان بالعصر الإسلامي الأول أو العصر الإسلامي الثاني لاقتنعنا بصحة تلك الفظائع وبإسلاميتها تماما.

إن التدين الاجتماعي لآبائنا حالة لا دينية بامتياز مما جعل إنجازاتنا الكبرى في معظمها بتلك الفترة، ومنها إنجاز التحرر السياسي ولو كان ناقصا مع الأسف.. ولو قارناه مباشرة بالعصر الإسلامي الأول وتعليماته لوجدنا الجماعات الدينية – وليس المجتمع المتدين- هي المتماهية الحصرية مع حقيقة الدين.

والعجيب هنا أننا بدلا من أن نهاجم تلك الجماعات الدينية التي شوّهت مجتمعاتنا المتدينة، وأن نحاسب الدين العقائدي الذي شوّه التديّن الاجتماعي، نتّحد جميعا على مهاجمة الدارسين لهذه الظاهرة والراصدين لها بعمق وإخلاص.. مطلقين صوبهم كل النعوت والأوصاف الجاهزة..

وأعجب منه، انصراف فريق من الدعاة والكتاب المسلمين إلى الحفر والنقب في إرهاب الدول والفاشيات المعاصرة (التي لا يدرون

بأنها امتداد لنفس الفكر الديني الذي يعودون له جميعا)..، تمييعا للمشكلة الآنية في أحداث التاريخ أو في سياقات أشمل..

والأغرب من كل ذلك، انهماك فريق آخر على الكتابة في إرهاب الشيوعيين البائد منذ سبعينيات القرن الماضي.. والذي يبقى إرهابا سياسيا وفقط.. أي يعود إلى أسباب موضوعية تتعلق بتوزيع الثروة، أو أسباب فكرية تتعلق بقراءة موضوعية – صحيحة كانت أم خاطئة- للمجتمع وللتاريخ ليست مقدسة، يمكن تلافيها ويمكن تجاوزها ما دامت وحدة قياس الفكر لدى الغرماء جميعا هي العقل وليست غيبا مبهما مميعا ومشبوها.

طبعا..، ما يهمهم هو تطبيق سياسة النعامة مع المشاكل الحالية التي يطرحها واقعنا المباشر وثقافتنا الأصيلة/الدخيلة، ومحاولة عدم رؤيتها وصرف أنظار الناس عنها...هروبا كالعادة من الكلام في إرهاب طالبان وإرهاب داعش وإرهاب الملالي، وإرهاب مؤسساتنا الدينية، رسمية وغير رسمية، من مساجد وجوامع وأحزاب ومدارس ومراكز وزوايا وغيرها.

لاحظ هنا أيضا، ويحسن التذكير مرة أخرى، أن أصحاب الدين العقائدي يتخذون أصحاب التديّن الاجتماعي درعا.. ويركب نفس الموجة معهم كثير مما يسمى "مسلمون معتدلون" غيرةً على تديّن

آبائهم الذي لا تسمح لهم ثقافتهم بتمييزه عن الدين العقائدي.. يزيد في تعمية الأمر وتلبيسه، الأوضاع السياسية الدولية التي تكاد تنحدر نهائيا إلى وحل الصراع الثقافي بفعل الإطلالة الوسيطية غير المرحب بها على غفلة من ضمير الإنسان كما أوضحنا، وادعاء الدين العقائدي من خلال منابره التي لا تغيب عن آخر قرية أو دشرة بالوطن الكبير، ومن خلال فضائياته وأمواله..، ادعاؤه الماكر تبنيه الدفاع عن السيادة السياسية والمرجعيّة الحضاريّة "للأمة"، أي على الرأس التي تمثلنا من دماغ الهايدرا.. وهذا ما تركنا ندور مع رحى هذا المكر في مد وجزر منذ بداية النهضة إلى اليوم.

وعلى هذه البداهة، فشعوبنا الطيبة المتدينة لا تمثل الدين وإن تمايزت اجتماعيا بطقوسه ومفرداته للعوامل السياقية.. ودعاة الدين لا يمثلون المجتمع، وإنما يمثلون خطة الدين وأهدافه في تدمير البشرية وإن كانوا لا يقصدون ذلك ولا ينتبهون إليه.. وفي اتجاه بيان هذه الحقيقة، يجب أن يعمل الدارسون والباحثون.

وفي كتابتنا هذه، إذا تكلمنا عن المسلمين بشيء من المؤاخذة، فإنما نقصد حالتهم الدينية.. فكلما زادت نسبة الشحن النفسي العقائدي العبراني المرضي بتلك الحالة، كلما كان كلامنا واضحا (قاسيا) أكثر.. وهذا ليس تحاملا، وإنما هو هاجس الإفصاح الموضوعي،

والموائم تشخيصيا ليس إلا... فلا يعقل أن نستمر في استخدام الموائم سياسيا حتى بالمستشفيات.

يتمتع الدين العبراني بمطلق المرونة، ولا يعرف الحواجز.. فهو أحيانا يزع بالقرآن، وأحيانا بالسلطان.. أما غالبا، فبالشيطان.

فالشيطان فكرة وهمية، ولكنها مجسّدة فعلا بكثافة المعتقد التراكمي.. **وهو رقم صعب بالميدان، يخدم مزايدات الأديان.**

ولذلك استعارت جميع الأنظمة الدينية العربية، حسنة الإسلام والمتهمة بالعلمانية، هذا المعتقد/الحل، اهتداء بهدي الدين الحنيف.. فأصبح لكل واحدة منها رقم صعب بالميدان أمعنت في شيطنته ونصبته مقابل شعوبها.

كثيرا ما يعتقد المسلم المعاصر بأن هذا السلوك أو ذاك..،

غير المقبول في ميزان المنظومة الحقوقية الإنسانية،

والمأمور به أو المباح على الأقل، في المنظومة الدينية الشرعية..،

سلوك غير وارد إلا في بعض المجتمعات الإسلامية المتخلفة.. ويحتج بأننا، نحن...، كمجتمعات مسلمة، لا نكاد نرى له أثرا بيننا.

وهو بالفعل قد يكون غير وارد إلا في المجتمعات الإسلامية المغلقة على إسلامها، والتي لم تتنفس هواء العصر ولم تستفد من الرشد التشريعي والحقوقي "الوضعي" لمناخ العصر "الكافر" بعد.. فلم يزل بها منذ القديم إلا الإسلام عرفا وشريعة.

فلا يمكن أن نعرض الرشد الأخلاقي العلماني لمسلم جزائري أو تونسي أو أي قطر من أقطارنا العربية، ثم نقول، هذا هو الإسلام، وهكذا هم المسلمون.. بل يقتضينا المنطق أن نقول في هذه الحالة، هكذا هم المسلمون بالميلاد، الذين "تعففوا" عن مجمل الإسلام وتحللوا منه، ولم يأخذوا منه إلا طقوس العبادات وتعهد البيت العتيق بالاعتمار، وفضلوا فيما عداها بفسيح الحياة، سلوكا علمانيا، وفكرا علميا، وأخلاقا إنسانية... ومع ذلك، يبقى هؤلاء على خطر.. ما دامت البنية العامة التي تمول أفكارنا وعواطفنا الحميمة هي الدين.. وما

دمنا لم نحسم نهائيا مع عقيدتنا العبرانية التي لا تفتأ تُخاتلنا من أجل الإيقاع بنا دوريا في شباك التعصب.

ولا يمكن في المقابل أن نعرض واحدة أو أكثر من رذائل المجتمعات المغلقة على إسلامها، ثم نقول، هؤلاء لا يمثلون الإسلام.. بل يقتضينا المنطق أن نقول في هذه الحالة..، هذه هي المجتمعات التي كانت وبقيت إلى اليوم ليس لها معينا تستقي منه إلا الإسلام، وهي محرومة لعوامل تاريخية سياسية من استنشاق الهواء الصافي لمناخ العصر "الكافر"، والاستفادة من الرشد الإنساني الذي تطور بعده بسنين ضوئية، وإن كان من بينها مجتمعات استفادت من تكنولوجيا العصر فحسب.. ولذلك فالفرصة لا تزال متاحة أمام خبراء الأنثروبولوجيا لمعرفة المزيد عن حقيقة الإسلام.

كان سيهون الأمر لو انتهى بهذا المستوى.

لقد نفذ الدين إلى أعمق من ذلك بحيث سرى على مستوى الأفكار بما يورّط الجميع، متخلفين ومتحضرين بما فيهم ما يسمى بالمسلمين المعتدلين أو حتى المسلمين غير الممارسين، سواء كانوا مقيمين بقرى متخلفة، أو بحواضر عربية وعواصم غربية.

فقد استحوذت الديانات على الأخلاق.. وأمّمتها.. ثم شوّهتها بجعلها أخلاقا مادية تجارية لا علاقة لها بأخلاق الفطرة والمبدأ.

فغرق المؤمنون في معاملات "القرض الحسن" المحتسب بفاتورة الحور والثغور.. وأمعنوا في توزيع ابتسامات "الصدقة" المتاجرة من وراء ظهرك مع الغيب.. وصار الإنسان ليس جديرا لأن يكون محل خير ومقصد إحسان.. فالخير لوجه الله.. وما الإنسان إلا وسيلة نظفر بها على "نقاط زيادة".. وبهذا أبطل الدين الأثر المترتب عن الإحسان من تعزيز أواصر المحبة والمودة بين المتحاسنين.

فأن نحسن إلى شخص من عَلِ، مُغازلة لرئيسه، لا يساعد إطلاقا على تكوين مودة إزاءه من جهتنا.. أما أن نُذَكِره بذلك، أي أن نفصح له بأننا لا ننتظر منه جزاء ولا شكورا، وإنما أحسننا إليه من أجل رئيسه، ففضلا عما في ذلك من عدم اللياقة وسوء الأدب وصفاقة الوجه، فإن ذلك لا يساعد على تكوين مودة من ذلك الشخص إزاءنا... هذا إذا لم يحقد علينا.

الدين يعلم هذا جيّدا.. ولذلك استعمله كعملة صعبة في تعطيل العاطفة بين الناس، من دون أن يحتاج إلى الدعوة إلى ترك الإحسان.. بل بالعكس أكثر من الدعوة إلى بذل الإحسان، ما دام قد ضمن وهو في كامل "الاطمئنان" إلى أن مفعول الإحسان مُعطّل.. فلقد ربط نية الخير ربطا صارما بالسماء، نسفًا لأي احتمال لتكَوُّنِ المودة بين الناس في معاملاتهم ومجاملاتهم على الأرض. وشوّه مخالفة ذلك بأنواع

جديدة من المعاني من إبداعه، كالرياء..، وهي كلمة غريبة تعني التوجه بالخير والإحسان من أجل الإنسان.. عملٌ تمّت شيطنته وتشويهه والتدليس على مضمونه، وتعدى ذلك حتى إلى قيمة الاحترام.. فاحترام الناس بعضهم لبعض في كثير من المواطن، أصبح موضع شبهة للنفاق، في العرف الديني.

إن الإنسان في فطرته السويّة غير المشوَّهة بالدين، سواء كان خيِّرا أو كان غير ذلك، قد يكون نفعيّا، ولكن بالتوجّه الحقيقي للإنسان المعني مباشرة بالخدمة أو المصلحة، وليس مع أشباح من وراء ظهره.. فطرفا العقد فيها هما الإنسان وأخيه الإنسان.. وهذا النوع من الأخلاق، وإن كان مشروطا بالمنفعة، إلا أنه يغطي مصلحة يعرفها صاحبها على الأقل، كما يعرفها الإنسان محل الإحسان أيضا.. وهذا ليس عيب ما بقيت المصلحة ليست مغنما، ولا صعلكة ولا اغتصابا.. وقد يؤول إشباع المنفعة إلى رضا المتاجر بالأخلاق واستئناسه تدريجيا إلى الإحسان غير المشروط.. أما إذا كان طرفا العقد هما المتاجر بالأخلاق من جهة، ومن الجهة الأخرى، ليس الإنسان المستفيد من المعاملة الحسنة، ولكن طرف آخر، فهذا يؤدي حتما إلى إبطال المفعول الإيجابي المترتب عن الإحسان بين الناس مهما كثر وكيفما كان.. فضلا عما في ذلك من نفاق نفسي وخداع، وانتهازية

ناهد نحو غيب مشبوه. أو كما يقال بالدارجة " بَزْنَسَة سياسية/دينيّة بمغفّلين".

وهذا ما يجعل المؤمن على جانب عظيم من الخطر العمومي غير المحتسب، إذا ما – لا قدّر يهوه- كفر بدينه وتحلل منه... فلا بد له من مرحلة انتقالية، وإسعاف نفسي.. يفهم في أثناءها تدريجيا بأن الحق والمثال والخير، قيم أصيلة به، وليست بضاعة يتاجر بها مع الغيب، حتى إذا ما فسخ العقد بينه وبين هذا الغيب، كسدت البضاعة..

فهي قيم إنسانية وليست مستعارة من الدين، أو مُتَصَدَّقٌ بها عليه من عفريت الكعبة.. وأن فسخه للعقد القائم بينه وبين وهم السماء لا يعني البتة ذهابها عنه.. وأن الدين، إنما حولها من فطرة إلى بضاعة، انتهاجا لخطته في مسخ الفطرة الإنسانية ليس إلا.

الأخلاق في السلوك الإنساني، مواقف.

والأخلاق في "التكييف" العبراني أوقاف..

موقف الإنسان الطبيعي عدم الاعتداء على المختلف..

و**وقف** المؤمن العبراني مسخ المختلف إلى مقام العبودية، دعوة وإلا صغارا أو قتلا.

وعلى الرغم من أن الأخلاق مجال واسع، سنعالج هنا ما يقصره عليها، عقلُنا الديني السائد. وهو عقل كما اقتضاه الدين العبراني الدخيل، يقصر الأخلاق على عمل الجوارح، وعلى ما اختص بالجنس على الأغلب.

لنرقب بعض المسائل التي تركّز عليها العقلية العبرانية عن كثب.. متحلّلين من المصطلحات والتفسيرات السابقة كما العادة..

ماذا نرى في الواقع؟

التحرش أو اغتصاب الأجنبيات. وأصله الغزوات في القديم، بشعاب النهرين، وتكايا الحوض المتوسطي على اختلاف شعوبها:

كان عند العرب القدماء سلوكا يُقدِم عليه الأراذل، ويعفّ عنه الكرام والسادة.

وهذا عنترة العبسي يتغنى بمكارم الأخلاق في زمن الرشد العربي الأول:

ينبيك من شهد الوقيعة أنني... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وبعد أن شرعت الديانات الغنائم بشرعة دينية بعدما كانت عرفا وفقط، أي كانت أمرا ليس مقدّسا ويمكن تجاوزه مع تحول الزمن وتطور الوعي.، ثم بعدما صنفت النساء والأطفال بصفة رسمية "سماوية" ضمن المغانم والمتاع، أصبح اغتصاب الأجنبيات والاتجار بالأطفال سلوكا مباحا للجميع لا يعف عنده أحد، بما فيهم الكرام والسادة.

وهذا تصديق لأثر "الإتمام" النهائي على مكارم الأخلاق...

هو تاريخ مشترك على كل حال في طفولتنا البشرية، وقد لا يحمل غرابة بالنظر إلى زمنه.. وإن كان يحمل كل التناقض مع الحق المطلق كمصدر مزعوم.. فمن يزعم بأن برنامجه نزل من السماء،

إذا كانت هناك سماء، يقاس إلى "مثال السماء"، لا إلى مثال بشر عاثرين بزمنه.. وكثير ما يطنب المسلمون بإسهاب هستيري في تشويه الدولتين الفارسية والبيزنطية والقرون قبلهم.. خصوصا لدى الحديث عن العبودية.. ثم إن تبريرنا لأخطائنا بأخطاء غيرنا يعتبر اعتراف صريح منا بأننا لا نتقدمهم في شيء..، لا بتربية ولا بمعرفة.. ولا أقلّ من ذلك، بوحي أو بكتابٍ نزل.

فإذا أردنا فعلا أن نعاقب على جريمة الاستهزاء بالحق المطلق (الذات الإلهية في أعرافهم)، فإن أول من يحاسب ثم يعاقب، هم الدعاة إلى هذه البضاعة الدينية التي تنسب إليه جميع سخافاتها ورذالها ولا تنزهه عنها.

لماذا لا تتظاهر شعوبنا ضد هؤلاء الدعاة الذين يسبون الله؟؟

لماذا لا تتظاهر ضد داعش؟؟

لماذا لا تتظاهر ضد المقررات العبرانية في المدارس؟؟

لماذا لا تتظاهر ضد المادة العبرانية الثانية في دساتيرها؟؟

" لكنما أصنامنا بشر
الغدر منهم خائف حذر
والمكر يشكو الضعف إن مكروا..."[30]

---

[30] من ديوان أحمد مطر.

هؤلاء الدعاة "إلى الحق"، حشروا بضاعتهم (الدين) التي تسبّ "الحقّ" وتشتمه، في مقدّمة التنزيه عن النقد، وشرعوا القتل "حتى بالافتئات على السلطة" لمن يفكر في مثالها "التاريخي" (نبي الإسلام) بمعالجة نفسية أو انثروبولوجية أو اجتماعية أو تاريخية سياقية.. وبهذا أسدلوا الستار على الحقائق، وأناروا المصباح على الكذب الحثيث المتجدد، لضرورة "صلاحية الزمان والمكان"، منذ عائشة، فأبي هريرة، مرورا بالزهري، فابن إسحاق إلى اليوم.

ولا نستطرد هنا.. فالحديث ذو شجون، وقد يتيه بنا عن مسألتنا بهذا الموضع، وهي الاغتصاب.

فالاغتصاب سلوكا، أو مفهوما، أو مناطا للكراهة أو التحريم، أو حتى لفظا أو إشارة، لا وجود له في التراث التأسيسي للإسلام على الإطلاق... لا بوصفه جريمة ولا بوصفه منكرا.. لا إثر لذكر له ولو بالمعنى...

الغرابة هنا تكمن في أن التراث التأسيسي (الكتاب والسنة)، لم نتعود معه إغفال الإشهار بالرذائل التي كانت منتشرة بزمنه، ولو كانت نادرة كوأد البنات.. من أجل "إبراز" ما كان عليه "المشركون"..

ومن جهتي أميل إلى أننا إذا درسنا جيدا هويّة الإمداد البشري الأول الذي كوّن نواة الجيش الإسلامي، ثم إذا درسنا تاريخ الغزوات المباركة من مصادرنا الإسلامية، نجد بأنّ هذه الرذيلة، جريمة الاغتصاب، "دخلت دار أبي سفيان" قبل الفتح.. وبالضبط، في اتفاق العقبة الثانية. ولا عزاء فيما بعدُ لابن أبي السرح وابن خطل.

فيجب علينا اليوم، العمل والبحث في فرضية قيام سياسة الإسلام على دُور سفيانية عديدة، ليست بالضرورة مجسمة بحيطان وأبنية.. ولا علاقة لها بشخص أبي سفيان التاريخي.. ولكنها دور معنوية عديدة، امتدت عليها سياسة الإسلام منذ نشأته إلى الفتح..، إلى اليوم.

"رُزِأ" أهل السنة والجماعة في واحدة فقط، دخلت دار أبي سفيان ثم سرعان ما خرجت منها زمن عمر بن الخطاب..، وهي نكاح المتعة.. لمعارضتها كارثة دينية أخرى أكثر منها منفعة، وهي التحريض على الغزو... يعزز رأينا هذا أن المتعة كانت مباحة ومارسها الصحابة عهد النبوة، وحرمت وأحلت بضع مرات على اختلاف في العدد والسياق، أولها تحريمها بغزوة خيبر، وآخرها ما ورد من أن النبي رخص للمسلمين بالمتعة في حجة الوداع.

وسبب "نجاة" الشيعة من تلك "الرزيّة"(رزية تحريم المتعة) هي أنهم لم يكونوا في زمام القيادة السياسية للأمة، حتى يفكروا في مقاصد

"حماية" فريضة الغزو من كل ما من شانه التقليل من إغرائها. ونكاح المتعة يقلل من ذلك الإغراء كثيرا، بل يكاد يبطله. حيث أنه إذا توفر هذا النوع من النكاح المؤقت حتى للفقراء، كل حسب طاقته، لا يبقى ثمة داع ملح على البحث عن الظفر ببنات أصفر أو أبيض أو أزرق...

ولذلك كانت محاولات واضحة لتحريمها أبدا زمن النبوة، لولا أن الدين كرسها قبل أن يفطن لمضاعفاتها المتعارضة مع "التحريض" على القتال، فأضحت تقليدا متأصلا أكثر من الخمر. وكان من غير السهل أن يقلع عنها المسلمون بين يوم وليلة. إلى أن جاء عهد عمر المعروف بالحسم في القضايا، وفي زمنه كان الغزو يجري على قدم وساق، وكان طموح السياسة التوسعية أكثر تماثلا، وإغراء احتلال الأمصار أكثر جلاء وإلحاحا منه زمن النبوة.. وكان من مسؤولية القائد السياسي عمر بن الخطاب، الحفاظ على "مقاصد" الدين و "التحريات" المساعدة عليها، مما عجل باتخاذ القرار "المناسب" والحازم مع المتعة.

وعلى هذا، لو ظفر الشيعة بالخلافة زمن الحسن أو الحسين، وصارت إليهم القيادة السياسية للأمة، لاهتموا بحماية المقاصد السياسية و "أدواتها".. ولكان وردنا تحريم المتعة من جهتهم أيضا.

الجذر التاريخي، مُؤكد للمتعة (شراء الجنس).. ومؤكد لفريضة الغزو (العدوان على المختلف).. ومؤكد لبنات الأصفر (الإشهار والإغراء الجنسي بنساء المختلف).. ومؤكد للسبي والاغتصاب (العدوان على أعراض المختلفين).. ومؤكد لقيادة عمر السياسية (حكم الدين).. وذاك هو العَرض..، فإذا التأم على لوحة لا تريحنا، فلأنها لوحة لا تبعث على الراحة بكل بساطة.. ونحن لم نزد على عرض اللوحة للأمانة، بدون إضفاء أية قراءة من قبلنا.

فهذه ليست قراءة، ولكنها عرض محايد وأمين لسياسة جنسية في القيادة والحكم، ابتدعها واختص بها الدين.. والعجيب أن السياسات الإباحية المعاصرة متهمة بالكفر من طرف الرأس النظيرة في دماغ الهايدرا، (أي رأسنا نحن)، في حين أنها امتداد موضوعي معها لأصل واحد.. وسبب هذه الازدواجية هو ضمان دوام فتنة أخرى يرعاها الدين وهي الخلاف المقدس ودوام الحروب بين الناس..

عصفورين بحجر واحد... أستخدم التزوير في الانتخابات النيابية، فأكون قد أرسيت تقليدا لذلك (ذلك قهر من قانون التاريخ)، وشكلت جزءا كبيرا من السياسيين يؤمنون به (ذلك قهر من طبيعة الاجتماع).. ثم ألعن في سياستي المعلنة، كل المزورين الخائنين لآمال الشعب.. فأكون قد شكلت فريقا يلعن الفريق الأول.. وهكذا أكون قد

أبدعت فتنة، وضمنت لها الدوام. وبها ضمنت لنفسي مسافة معتبرة بيني وبين المتخاصمين في وجهيَ الكريم. فأحزابنا السياسية جميعا يلعن بعضها الآخر، ولكنها تحرص كلها على تأكيد صدورها عن "ضمير" الأمة أو تأييدها لبرنامج الرئيس.. أو تأكيدها على الصدور عن الدستور ومبادئ الجمهورية مع العبرانيات "الديمقراطية" الأخرى.. ولا أحد منها يجرؤ على مجرّد التفكير في إعادة النظر ببرنامج الرئيس (مع بعض الدول) أو في "ضمير" الأمّة (مع بعضها الآخر).

فالدين كما قدمنا، يحرص، أول ما يحرص، على "امتلاك" غريزتي الرغبة والرهبة في الإنسان، وانتزاعها انتزاعا من سلطة عقله وإرادته وفطرته..، بأن يقرّر و "يكتب على" جمهور المؤمنين به، احتكاره الحصري لصلاحية " تنظيمها" والتشريع لها..، تماما كما تصنع اليوم أنظمتنا المسلمة، حسنة الإسلام، المتهمة بالعلمانية، ومركزيتها العبرانية الدولية التوحيدية الجديدة، حسنة الإيمان هي الأخرى والمتهمة بالكفر، في احتكارها لمقاود الضروريات الحيوية الأساسية الأولى لقوام الإنسان والمجتمع.

فالاغتصاب كما نرى، طرَد المتعة من دار أبي سفيان، لعدم "خدمتها" للأهداف الدينية، وبقي هو محتفظا "بحصانته السفيانية" مع

الأسف إلى يومنا هذا بأثواب جديدة متجددة، خدمة "لفقه الجهاد" المعاصر..

وهكذا كما نلاحظ، فإن داعش وأخواتها تنهل من المعين الصافي للإسلام الحنيف الأول.. على خلاف ما يقوله لنا المحرفون والمدلّسون الجدد، أصحاب الإسلام الإشهاري..

وعلى افتراض أن محميات دار أبي سفيان هي كل ما كان استثناء بالإسلام..، وهو افتراض فقط من اجل تقليب النظر، وسيستخدمه ويعاند به المحرفون الجدد، ونحن نقدمه لهم هدية خالصة يشغلون بها وقتا إضافيا رأفة بهم وبإفلاسهم الفكري..، فعلى افتراض ذلك، تكون داعش ممثلة لما دخل دار أبي سفيان.. أما هم..، المحرفون الجدد، فيمثلون – وهذه مصيبة - إسلام الفتح الذي "استخدمها" وأدخلها الدار.. وبمسرحنا السياسي الدعوي اليوم، ما يُحَدث طويلا عن هذه الحقيقة...

وبالإضافة إلى الغرابة الأولى، تكمن الغرابة الثانية أيضا – جوابا لمن يرى بأن الاغتصاب كتوصيف مفرد بالتعريف وبالعقوبة، إنما تطور لاحقا- في كون القوانين السابقة بالمجتمعات الأخرى، البابلية والمصرية القديمة، وحتى داخل التراث العبراني الأوّل نفسه بالمسيحية واليهودية، تتميز بإفراد التوصيف الخاص والعقوبة

الخاصة لجريمة الاغتصاب على خلاف الإسلام الذي ضرب صفحا عنها على غير عادته المعروفة، من النهل الحثيث عن التشريعات والتعاليم والقصص وحتى الطقوس السابقة.

تدارك العقل الفقهي شيئا يسيرا من هذا النقص، بعد قرابة قرنين من الهجرة..

تداركوا "الشيء اليسير"، لأنهم تناولوا منه مفهوم "الإكراه على الزنا"..، على مذاهب في الأحكام تتفق جميعا على معالجة المسألة تحت باب «الرجل المكره" على الزنا بامرأة، مع خلاف عويص في وجوب الحد عليه أو عدم وجوبه، حسب "انتشار" القضيب داخل المهبل من عدمه.. فذهب من يرى منهم بأنّ الانتشار دليل "فحولة"، إلى عدم وجوبه.. ثم منه - وبعد أُمّة - يتفرع حديث "ثانوي" عن المرأة "المكرهة على الزنا"، بتركيز على استحقاقها للعقوبة من عدمه، أكثر من التركيز على الجاني بها.

وهكذا.. فبمعالجة الإكراه والتقسيم الاعتباري لإكراه الرجل وإكراه المرأة، يضيع حق النساء الأكثر عرضة له، بتساويهن في ذلك مع الرجل.. ويضيع الطريق على محاولات للعقل الفقهي، كانت محتملة الحصول، لضبط تشريع خاص بالاغتصاب بعد ضبط

توصيف خاص به بالطبع، لولا أن التشريع من صلاحيات النّص المنزّل أو الملهم حصرا وقطعا.. ولا علاقة له بعقل الإنسان القاصر.

ولذلك لم يضف هذا المبحث الفقهي (إكراه الرجل، وإكراه المرأة) شيئا جديدا.. فاكتفى باجترار عقوبة الزنا معنى ومبنى على الجريمة.. وفي هذا غبن كبير طمس العقل المسلم وشل تفكيره..

ذلك أن الفقهاء لم يروا في الجريمة التي تنكرها الفطرة (الاغتصاب)، إلا العلاقة التي حرمها المشرع (الزنا).. ثم نسمي هذا قانونا سماويا... وهو بالفعل " سماوي " من وجهة نظري، ولا يعتبر واقعيا بالمرة.. وإذا ما حسبتني بكامل قدراتي العقلية، فإنني أرى جيدا هنا، بان قوانين السماء هذه، هي جميع ما يحتقر فطرة الإنسان ولا ينتبه إليها.

وبذلك سار التراث الفقهي في ركاب قاعدة مقدسة، **لا ترى جريمة حيث لم تحرم السماء، ولا ترى حقوقا حيث لم تبح السماء**... وقس عليه جميع ما تحرمه أخلاق الإنسان الفطرية، وحللته "أخلاق" الأديان الوقفية، بالعصور الإسلامية الثلاثة.

وهذا ما يدعونا مرارا وتكرارا إلى القول بأن الغزو الثقافي العبراني لأصالتنا العربية والبربرية والقبطية والفارسية والإسرائيلية والتركية والكردية، فضلا عن كونه غزوا لئيما للبشرية كلها، فإنه

حرّف الإنسان المسلم عن طبيعته، فأصبح يرى اجتهاده النابع عن سليم فطرته وصحيح عقله في تنظيم حياته بقوانين، اجتهادا ناقصا.. بل اجتهادا كافرا.. وانطلق دعاتنا العبرانيون يردّدون عن هذا الاجتهاد صفة القانون "الوضعي" على أساس أن هذا الاصطلاح سُبّة وتهوين حسب فهمهم للقانون.. وللأمانة، لا أزال عاجزا عن فهم تصورهم لكلمة قوانين وضعية..

كيف يفكرون؟؟ أو على الأنسب: كيف "يتفكرون"؟

ثم أتى العصر الإسلامي الثالث، عصرنا هذا، بإسلامه الإشهاري، وبدأنا نسمع عن أصحاب جريمة الاغتصاب الذين يدخلون في حكم الحرابة، علما بأن الحرابة حكمٌ لم يكن في نزوله أو تفسيره أو تخريجاته الأولى عهد الصحابة، يتعلق من قريب أو بعيد بالاغتصاب.. وإنما كان حكما جنائيا ساديا ابتداء.. ثم حكما سياسيا انتهاء.. تفسيرا وتعليلا وتطبيقا.. طبقته كل طائفة مسلمة ضد طائفة مسلمة أخرى.. وكل ديانة عبرانية ضد ديانة عبرانية أخرى.. وجماع الدين العبراني طبقه وما زال يطبقه ضد الإنسانية إلى اليوم.

وبهذا العصر، لم يسقط بيد التشريعات العربية الحديثة.. فإذا سقطت "سهوا" عقوبة الاغتصاب، بل كلمتها، بل مفهومها من الشريعة الإسلامية، فإنهم (عرب القرن العشرين) وجدوا على كل

حال بتراثهم العبراني الأول (اليهودية) ضالتهم من مادة تشريعية.. حيث أنه في التشريع التوراتي القديم "إذا احتيل على بكر ومُسّت بكارتها غرم المحتال خمسين ريالا ولزمه تعويض شرف البنت بقدر درجته ودرجتها ثم تعويض ما نالها من الضرر بسبب الفعل بقدر قيمتها...إلا أنه يعفى المحتال من الغرامة الشرعية في حال تم الزواج من البنت المغتصبة، فإذا عقد عليها أعفي من الغرم الشرعي دون التعويضين الآخرين".[31] والتسطير من طرفنا..

طبعا لا تتمحور التشريعات العربية بخصوص مادة عقوبة الاغتصاب على هذا فقط.. ولكننا نؤصل لواحدة من وجوهها الواردة بكثرة في واقعنا. وبالنظر إلى أن اغتصاب فتاة عندنا يتعلق بشرف العائلة ولا رأي فيه للضحية التي عليها أن تغور عن الأنظار، فإن الكلمة تعود إلى توافقات العائلة مع الجاني أو مع عائلته، فيفرض بالتالي في كثير من الحالات على الضحية القبول بالزواج من مغتصبها، وهكذا يغتصبها أهلها في رشدها وفي حريتها بعدما اغتصبها زوجها المفروض عليها في كرامتها.

[31] - جريمة الاغتصاب وعقوبتها في الشريعة والقانون. شاذل رشان. المطلب 1. الفرع 3

البيدوفيليا:

التحرش أو اغتصاب الأطفال، ذكورا وإناثا. وأصلها الشائع، وليس مطلقا، المجتمعات التي تنتشر بها أسواق العبيد من الجواري والغلمان.

واغتصاب الصغيرات تطور إلى تشريع، بحيث تشرفت هذه الجريمة بالمباركة الرسمية، وشرعت في أحكام النكاح. وهذا تشريع كما نرى، لا يرسِّم البيدوفيليا فحسب، ولكن يرسّم معها الاغتصاب أيضا.. ذلك أن زواج الصغيرات في الصيغة الإسلامية، لا يؤخذ فيه رأي الصغيرة، وبالتالي تفتقد الصيغة ركن التراضي، فيكون النكاح اغتصابا أيضا. أي جريمة مزدوجة.

ومهما كان الأمر، فإن زواج الصغيرة يبقى جريمة.. وسنمر عليه بشكل خاطف بوصفه الوضعي.. ونعفو عن وصفه الرسمي لأنه معروف ومقنن ومرسم في جميع المذاهب الفقهية بدون استثناء، سواء كانت سنية أو شيعية.. ويكفي أن تفتح أي كتاب في الفقه بدون تخصيص، وفي باب النكاح، تقف على الكلام المباح.

فإليكم بلل على عجل، من بحر عجاج.. وأتوقف عنده.. ولا أستطرد مع شكوى الدين نفسه من تراثه وأنه لا يمثله. لأننا مع هذه

البلوى بالذات، سنجد بأن التراث هو الذي يتبرأ من مصدره وليس العكس.

فهذا أحد أبرز علماء التراث وأقواهم تأثيرا حتى إلى عصرنا، والذي لا تزال كتبه يعاد طبعها إلى اليوم. ينقل عن أحد الأربعة الكبار، والمعتمدين إلى اليوم..، كي لا تُجْترّ في وجوهنا الاسطوانة الاعتيادية الممجوجة التي تقول إن ثلّة من الملحدين الملاعين يتخيّرون الأقوال الشاذة والآراء الغريبة من بطون تراث الحشاشين والطوائف المنبوذة في الإسلام.

يقول ابن قيم الجوزية في بدائع الفوائد:

(روى عن أحمد في رجل خاف أن تنشق مثانته من الشبق أو تنشق انثياه لحبس الماء في زمن رمضان يستخرج الماء ولم يذكر بأي شيء يستخرجه قال وعندي أنه يستخرجه بما لا يفسد صوم غيره كاستمنائه بيده أو ببدن زوجته أو أمته غير الصائمة فإن كان له أمة طفلة أو صغيرة استمنى بيدها وكذلك الكافرة ويجوز وطؤها فيما دون الفرج فان أراد الوطء في الفرج مع إمكان إخراج الماء بغيره فعندي انه لا يجوز)[32]

[32] بدائع الفوائد. ابن قيم الجوزية. ج 4. ص 906. 1373

وبالنظر إلى عنوان الكتاب، فإن هذه **"**فائدة بديعة**"**.

وحتى نُؤصِّلَ لهذه الفتوى المباركة من تراث أسلافنا اليهود، تأكيدا على انسجام الديانتين اللتين لا يطعن في وحدتهما ووحدة مصدرهما وهدفهما، اختلاف الزمن والجغرافيا ولا الصراع اليهودي الإسلامي الراهن بأرض فلسطين، دونكم والنص التلمودي التالي:

" إن الزنا بغير اليهوديات واللواط بغير اليهود لا عقاب عليه لأن الأجانب من نسل الحيوانات**"**[33] ...

أي نعم.. الناس غيرنا بهائم.. وهذه عنصرية عرقية.. تطوّرت مع الإسلام إلى عنصرية طائفية، وهي أخطر.. الناس غيرنا أنعام، بل هم أضل.. ولذلك **لا يزال الأزهر إلى اليوم يدرّس لدعاة المستقبل** في كتاب الاختيار لتعليل المختار بأن (الزنا في دار الحرب والبغي لا يوجب الحدّ) [34]... علما بأن زنى الغازي في عرف المسلمين لا يعني شيئا آخر غير الاغتصاب الذي لا يحسنون تسميته.

[33] د. محمد علي البارّ. المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم. الطبعة 1 (دمشق. دار القلم. 1990) ص 339

[34] عبد الله الموصلي. الاختيار في تعليل المختار. (بيروت. دار الكتب العلمية) ص 91. ج 4.

هذا عن البيدوفيليا والاغتصاب. ولأنّ البداهة لا تسمّى ولا يُبسط فيها، يكفي أن نعالج كارثة اللّواط ونستفيض فيها بعض الشيء، فنكون قد أجلينا غموضا كثيفا عنهما. لأنّ اللواط يشتمل في مضمونه على الاغتصاب والبيدوفيليا أيضا.

اللواط:

ما يتداول عند المسلمين تحت اسم اللواط، يتمثل في شطط في الغريزة الجنسية تجعل من الذكور لا هم مغايرين ولا هم مثليين. بل انتهازيين على دين الجنس. انتهازية جامحة تؤدي بهم حتى إلى الزوفيليا أحيانا. وعليه كانوا لا يكتفون بالإناث، ولكن يتعدّون ذلك إلى ممارسة دور الإناث أو دور الذكور مع نفس جنسهم أيضا، تنويعا لملذاتهم الجنسية. ولذلك كانوا يقطعون الطريق على الأجانب ويتحرشون بهم حسب الروايات الدينية.

فاللواط أنواع إذن حسب قوّة توجّه الرغبة. لوطي سلبي يقوم بدور الأنثى، أو لوطي إيجابي يقوم بدور الذكر، أو لوطي مختلط يمارس الدورين معا.

وأعلى صوت يدين اللواط، يطلع من ديار المسلمين ومن المجتمعات المحافظة من أهل الكتاب (يهود ومسيحيين) في أوربا وأمريكا والعالم، لسبب بسيط هو تناسب شدة الصوت مع شدة الانتشار..

أدانته الديانات الثلاث بشدة، بعدما أنتجته هي نفسها.. وأرّخ القرآن[35] لبدايته عند قوم لوط، أهل عمورة وسدوم.

على أنّ هناك نصوص[36] وقراءات[37] تشير إلى أنّ أهل عمورة وسدوم لم يحل بهم ما حل بسبب اللواط فقط ولكن لأسباب اجتماعية واقتصادية تتعلق بالعدالة ومعاملة الغريب وتجميع الثروة.

وكنا في الطبعة الأولى فضلنا إبعاد هذا العمل عن لوط الذي لا نعرفه، على تقديرنا بأنه – إذا اعتبرنا الأدب الديني تاريخا – كان رشيدا في قومه.. وعليه كنا استعملنا كلمة سدوميا نسبة إلى سدوم، لكن نبهني بعض الفضلاء بأن كلمة سدوميا قد تضع القارئ في لبس وعدم تبيّن دقيق لما نقصده لأنها تعني ممارسة خاصة لا تستغرق كل المعنى الموجود في كلمة لواط التي غدت باستعمالها الواسع عندنا أعم وأشمل، وتُغطّي كلّ الحالات والأدوار.

35 - سورة الأعراف. الآية 80.

36 - سفر حزقيال. أصحاح 16 الآية 50: " هذا كان إثم أختك سدوم الكبرياء والشبع من الخبز وسلام الاطمئنان كان لها ولبناتها ولم تشدد يد الفقير والمسكين".

37 - يمكن الاستئناس بكتاب سبينوزا " رسالة في اللاهوت والسياسة". فصل: المعجزات. ترجمة حسن حنفي. الطبعة1. 2005. دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت.

الديانات، وإن خصصت له عقوبة، على اختلاف فقهائها في التعيين، استعملت أسلوب التعريض وفقط. ولم ترق إلى مستوى التشريع الذي يسد الذرائع ويقضي على الأسباب. بدليل أنها لم تحسن من وضع المرأة ولم تراعي حقوق الأطفال ولم تجرم العبودية. وهذه أسباب ثلاثة تؤدي مباشرة إلى اللواط.

فإهانة المرأة تجعل منها في وضعية دون الإنسان.. والطفل يسجّل، وكما هو معلوم، سلوك الكبار لديه قانون وبداهة وشرعيات.. وقد يستنكف كبيرا من أن يرتبط عاطفيا بمخلوق يشبه الإنسان وليس إنسانا. وإلى وقت قريب كانت تُكنّى الزوجة بالحيوان في الأوساط التي لم تستنشق هواء العصر الكافر بعد. ولمّا يزل بها سوى الإسلام كتابا.

وهذا ما هو ملاحظ في المجتمعات المسلمة والمجتمعات العبرانية الأخرى المحافظة في أوروبا وأمريكا وإسرائيل، فالمغايرة العاطفية (رجل وامرأة) نادرة بتلك الأوساط، وعلاقات الحبّ غير مستساغة ومستهجنة. بل تخِلُّ بالمروءة، حتى وإن كانت مع زوجة "شرعية." والسبب هو مبدأ دونيّة المرأة الراسخ في ثقافتهم الأولى كما سبق الذكر.

أما التعرض للبيدوفيليا فتؤدي غالبا - وليس مطلقا- إلى التطبيق المثلي للمغايرة الجنسية.. أي إلى اللواط. وهي سلوك يطبع في غالبيته مغايرين جنسيين في مجتمعاتنا لما لهم من سابق أساس شرعي لذلك، إن من جهة الاغتصاب، أو من جهة البيدوفيليا.

والعبودية المحرمة علينا بفضل الأمم المتحدة، والمشروعة إلى اليوم في عقلنا الجمعي الكامن، وما يمتد عنها من أوضاع جديدة بعصرنا، وتفاعلا مع تراثنا الديني، ليس فيها ما يحفظ كرامة من يكون في قريبٍ من حالات العبد (خادم، ضعيف، غريب، مخنث، أنثوي، لقيط لا عصبة له... الخ)

هذا كل ما في الأمر..

فأصل اللواط هي المجتمعات التاريخية الدينية.

والمنظومة التي تعمل على انتشارها بأسلوب غير مباشر هي الشرائع الدينية ما لم تعد النظر في المسائل الثلاثة المتقدمة: معاملة المرأة.. معاملة الطفل.. الحسم الثقافي مع العبودية.. علما بأن الحسم السياسي فُرض علينا وكُفيناه من غيرنا، فلنجتهد قليلا لنفرض الحسم الثقافي على أنفسنا.

وعندما أخص الشرائع الدينية كسبب، فهذا لا يعني إعفاءً لقوانيننا المسمّاة "وضعية" اليوم. ولا تحييدا لثقافتنا ومظاهر ما يسمّى "حداثة" في حياتنا اليوم. فكل ذلك فيه شكل ومضمون. الشكل مُنفلتٌ مع التحديث والمعاصرة، والمضمون امتداد وفيّ، لدرجة حملِ أمانة التطوير والتلوين - مخادعةً للعصر- لشرائعنا إياها.

وما لم نحسم في تلك المسائل فإن الوضع يبقى على حاله انحرافا سلوكيا ومرضا نفسيا اجتماعيا من إنتاج المجتمعات ذات الثقافة الدينية العبرانية.

وقد أفهم جيدا كيف تكون المنظومة الحقوقية الإنسانية المعاصرة منشغلة إلى حد ما بتوصيف المثلية وتقييمها وإعطاء رأي فيها.. سلبيا كان أو إيجابيا، لا يهم.، حيث الأهم هو البحث والمعالجة.

ولكن..، الذي لا أفهمه، كيف لمنظومة تشرع البيدوفيليا وتنتج اللواط باستمرار من طبيعة بنيتها، أن يكون لها رأيا أو تقييما أخلاقيا للمثلية.

أسبح بخيالي أحيانا، من محطة الإقلاع هذه، إلى مشاهدة بلاتو تلفزيوني، يناقشون فيه مسألة المثلية في الحياة الاجتماعية، وإلى جانب متخصصين تربويين واجتماعيين، أرى أحد المؤمنين بمنظومة تُقعِّدُ سياقيّا للّواط، وتُشرّع البيدوفيليا والاغتصاب وملك اليمين وإعارة الفروج، جالسا في كامل الدعة والاتّزان، مُراقَبًا بكامل

التبجيل والاحترام من طرف منشط البلاتو والحاضرين باعتباره رجل دين، منتظرا دوره هو أيضا ليعطيهم تقييمه " الأخلاقي " لظاهرة المثلية في العالم!

توجد لدينا مشكلة بيدوفيليا بالأساس.. تليها مشكلة اللواط.

فاللواط ظاهرة اجتماعية في ديارنا، وسلوك يتعلق بالمستوى العضوي-الجنسي.. الأصل فيها قطع طريق على الغرباء، كما ظهرت أول مرة لدى قوم لوط بالمجتمع الديني العبراني الأول بحسب شهادتهم، وفرض ممارسة الجنس عليهم أو معهم أو بهم. ثم بقي هذا السلوك إلى اليوم بالقرى والأحياء المغلقة التي تعم بها سلطة الثقافة الدينية التقليدية لوحدها..، ويتمثل أيضا في كل الإيحاءات الحيوانيّة التي نجدها في الثقافة الشفوية والكتابية للشعوب المتدينة المعاصرة، وفي سلوكها أيضا، تعزّزها ترسانة ثقافية شعبية منقطعة النظير في أدبيات السوق والشارع والمدرسة والمسجد على سواء، مع "تكييف" لصيغ الخطاب وتوخّي الألفاظ حسب مقام كل واحدة من تلك الأماكن .

وعلى عكس اللواط، وهو انحراف سلوكي وظاهرة مرضية دينية الأصل، بدأت أول ما بدأت في المجتمع السدومي، أي منذ أربعة آلاف سنة تقريبا..، فإن المثلية كانت ولا زالت موجودة منذ القدم، ونسبتها تبقى دائما ضئيلة جدا مقارنة بالمغايرة، ولا تزيد النسبة ولا تنقص،

بحيث أن السلوك النمطي الغالب في البشر هو السلوك المغاير. فهي ليست ظاهرة اجتماعية كما اللواط الذي تزيد نسبته بالانحطاط الأخلاقي والعدوى السلوكية، أو تنقص نسبته بإجراءات الردع..

وهي تبقى ما بقي البشر كما كانت أقلية تصف جزء قليلا في كل المجتمعات على مرّ الأزمان. جزءٌ لا يظهر بالمجتمعات الدينية و إن كان موجودا بها، باعتبارها مجتمعات طبيعية إنسانية قبل أن تكون دينية هواميّة.

وكما أن الاغتصاب والبيدوفيليا، أو حتى ما يندرج في مصطلح "زنى" هو من ناحية الممارسة الشكلية مثل المغايرة تماما، فإن المثليّة – شكلا- كما اللّواط. ممارسة الجنس مع المماثل كيفما كان الدور الممارس، فقد يجلب المثلي دور الذكر أو دور الأنثى تماما كما نجد لوطيّا "سالبا" أو "موجبا" كما يقال.

لكنّها تختلف بكونها توجّه جنسي، نفسي بالأساس. يعود إلى السياق الاجتماعي والثقافي في أيّ بلد، من جهة. ومن جهة أخرى – وهنا الاختلاف - تساعد ذلك السياق، جينات[38] موجودة (بالقوة) في التكوين البيولوجي للشخص المثلي. فالعوامل الاجتماعية الثلاثة مثلا، المذكورة أنفا، والموجودة في ثقافتنا، توجِدُ (بالفعل) أثر تلك الجينات

[38] - https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov/31467194/

فيظهر الميل المثلي. كما أنّ انتفاء وجود تلك العوامل الثلاثة يبطل أثر تلك الجينات، فلا يكون هناك ميل مثلي.

والأمثلة الثلاثة (الطفل، المرأة، العبودية المشروحة سابقا) مجرد أمثلة محدودة وليست حصرية. فهناك أسباب سياقيّة أخرى عديدة بتعدد الأوضاع والثقافات والأجيال والعصور.

- فاللواط إذن، ظاهرة اجتماعية منتشرة في المجتمعات العبرانيّة تعود إلى انحراف أخلاقي وشره جنسي سببه السياسات الثقافية والاجتماعية والتربويّة في وسط عبراني معيّن.
- أمّا المثلية فاستثناء طبيعي نسبته قليلة جدّا في البشر، موجود في كل المجتمعات وفي كل العصور. يعود إلى جينات كامنة في قوام الشخص المثلي، يفعِّلها السياق الاجتماعي أو يبطلها.[39]

والفرق في السلوك الاجتماعي بين الاثنين، هو أن المثلي قد يرى في مُعلّمه أباً، ويرى في طَلَبته أبناءً، ويرى في زميله صديقًا... الخ، أمّا اللواطي فلا يرى في جميع هؤلاء إلاّ ذكورا.

---

[39]- https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov/31467194/

تماما كما هو الحال في المغايرة،

فالمغاير قد يرى في أستاذته أمّاً، ويرى في طالبته ابنةً، ويرى في زميلته أختاً... الخ، أمّا الثّور العبراني فلا يرى في جميع هؤلاء إلاّ إناثا.

وما دام الأمر يتعلق بحسم السياق وليس بحسم الجينات، فغالبا ما نرى في التوجّه الجنسي عند المثليين تأخرا في النضج ليس إلاّ، على امتداد سني المراهقة والشباب، وبعد ذلك سرعان ما يعود الشخص إلى المغايرة في حالة تغيّر العوامل. وهذا ما يسمح أحيانا باستعمال كلمة: عدم نضج، بدل كلمة: توجّه.

ثم إنّ التوجّه الجنسي هذا ليس متعدّيا بالضرورة إلى باقي الأروقة في شخصية وتكوين ومزاج الفرد. والأمثلة كثيرة على وجود مثليين ناضجين اجتماعيا.. والعكس صحيح أيضا نجد من الأشخاص من يكون مغايرا وغير ناضج اجتماعيا. كما أنها ليست متعدّية بين الأشخاص. لأنها مشروطة باجتماع السياق إلى الجينات، على عكس اللواط المشروط تمكّنُه بسياق عبراني ثمّ العدوى والمثال فقط.

والديانات العبرانية لا تنكر الميول المثلية من أجل القيمة أو الأخلاق أو "الفضيلة". لقد شجبتها باعتبارها إلى جانب ظواهر وجزئيات أخرى في البناء الاجتماعي يقوّض خصائص تراتبية العلاقات

وجنسانية العواطف، العزيزة على الديانات العبرانية التي تحتاج إليها كأدوات في نخر المجتمع وتطويعه إلى صف البهائم.. ولذلك لم تظهر المثلية في مجتمعاتها كما ظهر اللواط الذي قعّدت له اجتماعيا وثقافيا، وحتى سياسيا كما سنرى في الأسطر القادمة. وإنما ظهرت سافرة باعتبارها توجّها أو عدم نضج جنسي بالمجتمعات الطبيعية، بآسيا القديمة واليونان قبل المسيحية والعالم المتقدم اليوم بجهاته المتحررة من ثقافته العبرانية.. كما ظهرت على امتداد الحضارة العربية الإنسانية إلى حين عودتنا إلى عصر الضعف (العصر الإسلامي الثاني)، حيث توارت المثلية **وعاد اللواط من جديد**، وهو مستفحل إلى اليوم بوصفه:

- صَغار ذمّي.. ساغ له تغذية الغرور الحيواني للفاتحين، وهولا يخدش بالمواطَنة المُسعفة "الموصى بها" في المخيال الشعبي الإسلامي.

- سلوك غريزي.. لا يخدش بالقوامة، وبالفحولة الحيوانية في المخيال الشعبي الإسلامي..

ولا نزال نسمع ونرى سياسيين ومثقفين كبار، ومن كل الفئات، لا يُقسِمون إلا بها.

فعلى هذه الصورة، يمكن بسهولة رؤية أننا لا نمارس اللواط على المستوى الجنسي فقط.. فالصورة، بقالبها النظري على الأقل، وبتمثلها السياسي الذي يُشرّع لها ذهنيا على الأقل، قادمة علينا من طبيعة تراثنا السياسي العبراني المشروع.. فسياستنا لواطية هي الأخرى.. ومؤسساتنا تغدو بناء عليها لواطية... وإلى هذا الحد، يغدو حتى غير المعنيين بالمستوى الجنسي من المسلمين، لواطيون بالثقافة.. لا يخرجنا من هذه الحالة شديدة الإسلام، إلا الدخول في منطق العصر وفي تفكير العصر وفي حقوق العصر.

طبعا هناك من يقول بأن المثال بفقه أهل الذمة، قاصر عن استغراق السياق، ونحن اليوم في عصر غير العصر.. ولكننا نرى من جهتنا بأنه يستوفي ذلك وأكثر.. مثله مثل العبودية. حُرّمت قانونيا بقرار أممي، وبقيت ثقافيا في الرؤوس وفي الممارسة الاجتماعية غير الرسمية. أكثر من ذلك، أخذت لها أشكالا أخرى، وانتعشت بها حتى حياتنا الرسمية بصورة غير رسمية (أي توافقية على المعهود الذي لا يُسمّى). وقد نرى أحيانا أخرى في المجتمعات التي لا يوجد بها مسيحيون أو يهود بأنها انسحبت – في أساليبها العنصرية وليس في أحكامها بالضرورة - على طوائف أخرى من نفس الديانة الإسلامية،

وحتى على أقليات غير دينية. وأكرر، ليس بصرامة الأحكام الذمية ولا بشكلها، ولكن بما يعتبر امتدادا لمضامينها.

وما نراه من "سخط عام" واضطهاد للمثليين في "صريح الإجماع" بالمجتمعات وبالقوانين في دولنا المسلمة، فهو يتعلق ب:

-لواط مكبوت لدى "الساخطين"، الخائفين من جانبهم النفسي المظلم،[40] و عدم التوفيق في التمييز بين لواطهم المكبوت و بين المثلية، جعلهم يُجهِزون على المثليين. وإلاّ ما هذا السخط الهستيري غير المبرر في مجتمع يعرف جيّدا، أو لعله لا يعرف فيما يبدو، بأنه غارق في اللواط - كقالب نظري على الأقل- من أفكاره إلى ممارساته إلى سياساته.

-خوفٌ "مفهوم" للفكر العبراني من أي سلوك أو قيمة أو معنى استثنائي لا يعرف من أين يأكل كتفه. أما إذا عرفه، وخبره جيدا من كل وجوهه، ووجد فيه تكييفا يخدم أهدافه التخريبية من الإنسان، فبالرّفاه وبالبنين...

---

40 - راجع كارل يونغ. الجزء الثاني من المجلد التاسع بالأعمال الكاملة.
Aion: contribution to the phenomology of the self.
وبالعربية: الانسان ورموزه. ترجمة عبد الكريم ناصيف. الفصول: الأول والثاني والخامس الأخير.

و "صريح الإجماع" المشار إليه، هو ثوابت نمطية متعالية على التاريخ لا توجد إلا في الاستحسان الخطابي وظاهر السلوك.. خطرها يتمثل في كونه يصنع دوما، الإجماع الوهمي المنافق على قضايا المجتمع.. وبهذا يضلل السياسات المنبثقة عن هذا الإجماع باعتبار أن القوانين والتواضع في العلاقات لا تنبثق إلا من الإجماع الصريح والموائم سياسيا لدى المسيرين والسياسيين والحكام، أو الموائم اجتماعيا لدى عامة المواطنين.. وبهذا يزيد من تعقيد المشاكل المتراكمة والتي لا يجوز الكلام عنها.. ومجتمع بهذا الوصف، يكون من هدر الوقت والجهد والمال أن يستكمل مؤسساته النيابية الشعبية وكل ما يختص بصناعة الإجماع، سواء كانت محلية أو وطنية، قبل أن يقف مُقَدَّمًا على تصحيح هذه الحالة.

فعلى مستوى السلوك والممارسة، من الحماقة أن نجزم بان كل المجتمعات الدينيّة مجتمعات لواطية.. ولكن على مستوى التفكير والثقافة يكون من غير الدقة أن نجزم بإمكان وجود مجتمع ديني بمعنى الكلمة غير لواطي.

نلحظ ذلك - استئناسا وليس استنادا.. فلا داعي، للانطلاق في نقض الحجج والمقرّرات الرئيسية من شواهد الاستئناس التي بإمكاننا عدم

الإشارة إليها بالمرة دون الإخلال بسير التحليل-..، نلاحظه في النكتة الغالبة بشفاهياتهم، فلا يكاد العبرانيون يضحكون لنكتة تخلو من إيحاءات لواطية. في حين أن ثقافات إنسانية طبيعية تجد في سعة الحياة ألوانا وألوانا من النكات، لا تكون بالضرورة جنسية.

فالخلاصة

بنظرة موضوعية للمسألة.. خصوصا وأنها أصبحت حساسة، إن مع هيئات حقوق الإنسان أو مع الأوكار العبرانية، نلاحظ بأن الديانات لم تتسامح مع المثلية الشبقية ليس من أجل الفضيلة، فالمنظومات الدينية تشتمل على ما يجعل اللواط مستفحلا كما قدّمنا، ولكن لأنها "غير منتجة" من جهة، ولا هناك ما يبررها "مقاصديا" في الدين الحنيف على الأقل، ما دام الشريكان لا يخضعان في علاقتهم إلى التركيز على تراتبية كما في اللواط.. ولأنها أيضا من جهة أخرى نفسية أكثر منها جسديّة، غدت بذلك منتجة لتفاعل محتمل جديد من العلاقات والعواطف الإنسانية هي في غنى عن منازلتها بمجهود إضافي جديد يبدع وسائل تبكيتها كما فعلت مع العواطف التقليدية التي بالكاد أحكمت عليها قبضتها. ونحن اليوم نرى بوادر هنا وهناك في العالم المتقدم من طرف رجال الدين للتسامح والمسايرة مع مقترح ترسيم زواج المثليين المطروح من قبل المناضلين القزحيين ليس من

أجل عيونهم، ولكن كحل وسطي، ترقبي، استباقي لمجهول، من أجل الحفاظ على إطار الأسرة التقليدي الاكليركي في شكله على الأقل، **ومن أجل ضمان بعض وسائل تطويعه لاحقا**. وهذا الإجراء، بشيء من التمعن، نجد بأنه ينخرط في سلسلة الحلول للمعضلة الموضحة أعلاه والتي تواجه الديانات اليوم. فهو حل ديني بالنهاية، وليس علمانيا. ولا يهمه أبدا الجانب الجنسي في المسألة لأنه لا يحارب اللواط كما قدمنا، **بقدر ما يهمّه إطاره الاكليركي**. فهو إجراء تكتيكي ديني بالأساس لحماية البراديغما الدينية وإطالة عمر كوارثها على الكوكب، وليس حلاّ علمانيا كما يظن بعض المتدينين "المتذمرين" من ترسيم هذا الزواج. فالعلمانيّة لا تُشَرِّع كما قدّمنا.

وبنفس الحافز - الحفاظ على الإطار الإكليركي للزواج- لهذا الإجراء، سار في الجانب الإسلامي فقهاؤنا المعاصرون بضبطهم لأصناف زواج المسيار وزواج المصياف وزواج الطالب وغيرها .

ولأن الدِّعاية الدينية بجهلها المركّب غاب عنها بأنّ المثلية لا تحتاج إلى إدانة وتنكيل ولكنها فضلا عن كونها في الجانب الطبيعي نسبة ضئيلة جدّا موجودة في كل المجتمعات و في كل الازمان، هي في الجانب السياقي دعوة حيّة بالمثال الواقعي إلى إعادة نظر في المنظومة العبرانية وسياقاتها الثقافية والاجتماعية المنبثقة عنها..،

ولأنها لا تجد إلى الآن ثغرات ومناطق ضعف حقيقية تقصف منها المثلية، نسبت إليها بأسلوب شعبوي، رذائل اللواط والبيدوفيليا وحتى الزوفيليا، محاولة لإضعاف تمثيلاتها الاجتماعية شعبويا على الأقل ريثما تجد لها أحبولة شبه علمية وفكرية لكسر هامتها نهائيا أو تدجينها وترويضها وضمها – كما وباء اللواط والبيدوفيليا- إلى أدوات التبكيت الدينية العزيزة على الكهنوت.

فهذه خلاصة في تعامل دياناتنا العبرانية مع المثليّة.

وهذا التعامل المرضي المتطرّف، أنتج لنا تعاملا متطرّفا في المقابل، بحيث تأسست في كل دولة تقريبا أقليات قزحيّة جعلت من مجرّد توجّه جنسي أو مجرّد تأخُّر في الكمال الجنسي وضعا سياسيا مُتأزِّماً، ونتجت عنه نشاطات وبرامج وحركات نضالية لولا الجهل العبراني لما كانت المجتمعات البشرية بحاجة إليها. كما نتج عنه ظاهرة الجندر الثالث والتحوّل الجنسي ببتر الأعضاء وتشويه الجسم، فرضته رسميّا من جهتنا، الجمهورية الإيرانية على كلّ المثليين بأنواعهم. حيث أنّ تجريم المثليّة كتوجّه جنسي والاعتراف القانوني بالتحول الجنسي كهويّة جندرية، هي تخيير مُقنَّع للمثليين جميعا، بين العقوبة أو إجراء العمليّة. وهي حيلة تهدف إلى الإمعان في التنكيل بهم من جهة، وإلى اللعب المفضوح - في نفس الوقت - بورقة الحقوق والحرّيات

للاستهلاك الخارجي. أمرٌ يبقى شارة عار أبديّة على السياسات العبرانية التي خلقت لنا هكذا أوضاع وسياقات.

ولكن لماذا تم التركيز عليها في مجتمعاتنا؟

فإذا اعتبرنا التوجّه المثلي مجرّد عدم نضج جنسي، فهناك أنواع كثيرة من عدم النضج.

يوجد عدم نضج نفسي – وهو متعدٍّ، وقابل للإدانة والتجريم، لارتباطه بتربية وثقافة وليس بجينات-، يقوم بعدد لا بأس به من الناس عندنا. ولأنه مُقْعَدٌ على قوافي السياق الثقافي للمنظومة العبرانية، تَطَوَّرَ الأمر من عدم نضج شاذّ عن الطبيعة (أي بعوامل تربويّة ثقافية) إلى شخصيات معتلّة نفسيّا Psychopathes بمعنى الكلمة، تقود عشائرا.

ويوجد عدم نضج اجتماعي – وهو متعدٍّ، وقابل للإدانة والتجريم، لارتباطه بتربية وثقافة وليس بجينات-، يقوم بعدد لا بأس به من السادة والكبراء والخبراء والعلماء في ربوعنا. ولأنه مُقْعَدٌ على قوافي السياق الثقافي للمنظومة العبرانية، تطور الأمر من عدم نضج شاذّ عن الطبيعة (أي بعوامل تربويّة ثقافية) إلى شخصيات معتلّة اجتماعيّا Sociopathes بمعنى الكلمة، تقود دولا.

ونختم بسؤال، لماذا في ربوعنا ننتبه إلى عدم النضج الجنسي فقط ولا ننتبه إلى الأنواع الأخرى؟

لنعرف الإجابة نعيد معا قراءة مدخلنا للفصل الثالث بهذا الكتاب.

"روح الانسان والماديّة الدينية":

((بدأ الإنسان يتحسس مشاعره وعواطفه ويضبطها تفاعلا مع المحيط الاجتماعي من جهة والمحيط الطبيعي من جهة أخرى.

تفاعله مع المحيط الاجتماعي أعطاه بديهة تنظيم الحياة الجماعية ومنها إلى تطوير حياة سياسية أسلمت فيما بعد إلى قوانين وحقوق وأنظمة وغيرها.

تفاعله مع المحيط الطبيعي أسلمه – بعد طول عنت من التوجس والمخاوف والطقوس - إلى التجربة والاختبار والمساءلة العقلية كبداية جنينية للعلوم.

فتفاعل المشاعر أولا، ثم تفاعل العقل معها، أدى إلى تمثل الإنسان لإنسانيته كاملة، عقلا وغرائز، أو روحا وجسم. وتحقق من ثمة في نفسه بما يميزه عن الحيوان.

كان هذا هو الخط السليم، لولا أن الديانات العبرانية تدخلت، فحدث أن دشنت الفكر المادي الغريزي الصرف في تاريخ الإنسانية.

فبعدما بدأ الغيب يتكشف إلى الإنسان بوصفه محل حدس مشاعري مشوب بفضول ومغازلة، ثم مساءلة عقلية كعملية إنسانية طبيعية، أصبح الغيب (غير المدرك علميا بحقبة معرفية إنسانية محددة)، أصبح ملأ أعلى مفصول في أمره، وليس من اختصاص الإنسان وعقله القاصر.. بحيث جاءت من هناك، شرائع وعقائد.

<u>الشرائع تعفي المؤمنين من تفاعل عقولهم مع المحيط الاجتماعي</u>، ليسند ذلك إلى ألواح، ونصوص مقدسة

والعقائد <u>تعفيهم من تفاعل عقولهم مع المحيط الطبيعي</u>، الكوني خصوصا، ليسند ذلك إلى سدنة المعابد الذين كانوا يحتكرون التقرير في حقائق الكون والطبيعة.

فماذا بقي لعقل الإنسان؟

طبعا، هذان الإعفاءان **<u>أبقيا الإنسان في اختصاص دائرة الغرائز</u> وفقط**.. أي في طوره الحيواني المادي)).

فالجواب على سؤالنا المطروح، (لماذا في ربوعنا ننتبه إلى عدم النضج الجنسي فقط ولا ننتبه إلى الأنواع الأخرى؟) هو:

كلٌّ مُنتبهٌ، إلى ما يجري في حدود دائرة إدراكه وانشغاله...

وللمرّة الألف، يبقى هذا أيضا من جرائر الديانات العبرانية كما وضّحنا أعلاه.

تطورت تلك الرذائل الثلاثة (الاغتصاب، البيدوفيليا، اللواط) مع الزمن، بحيث عَفَتْ عن ارتباطها المباشر بعوامل ظهورها الأولى، وهي اليوم منتشرة بسياقات مختلفة عبر كل العالم وليس فقط بمجتمعاتها الأصلية (أهل الكتاب الثلاثة). كما أنها أخذت أشكالا أخرى أكثر تعقيدا مع كثافة الاجتماع والتطور. فأسواق العبيد مثلا، يمكن أن تحاكي إلى راهننا، وظائف الإكراه وتسويات العوز الرخيصة، تقاطعا مع نذالة التحكم ورداءة السلطة بمصانعنا وإداراتنا ومتاجرنا ومؤسساتنا الاجتماعية، الأهلية والحكومية. واللواط المنتشر بالعالم الإسلامي، انتفى عنه بعض الشيء قطع الطريق مثلا لأننا في عصر غير العصر، واحتفظت برمزية التراتبية الجندرية،

ورمزية مراودة المختلف والاغتصاب الجماعي المعروف في القرى والمدن المحافظة.. وهكذا.

العقل الشعبي السائد قد لا يتقبل هذا التحليل.. والسبب هو أنه أضحى مع الزمن جزءا من الهوس الديني، وليس عقلا مستقلا في علاج واستكشاف معه.

فهناك واقع موضوعي عبارة عن ترتيبات عرفية دينية تؤدي إلى نتيجة، وإن أوهمتنا بأنها تُلوّح بعقوبات وبلعنات.

العقل الشعبي لا يرى ذلك الواقع، لماذا؟

لأنه أضحى مع الزمن، يكتفي بتصريحات السياسيين ويغفل تطبيقاتهم في الواقع.. وهذا فضلا عن كونه نقيضا للعلم، هو العكس تماما للرقابة الشعبية اليوم.

فيكفي أن نجد مقولة فقيه أو شعار صحابي أو حديث نبوي لنشطب به ما حدث فعليا في الواقع ونُكذِّب التاريخ.

العبودية مثلا، ضجّ بها العصر الإسلامي الأول، وصدّرها لأمريكا مقابل أموال قذرة من خلال جيوب الإسلام الإفريقية بالعصر الإسلامي الثاني، ومع ذلك يطلع علينا قوم بهذا الزمن قائلين: لا

عبودية في الإسلام، فلقد قال عمر (رضي الله عنه): متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

هل يمكن مثلا، أن نشطب ما حدث من جرائم في الغزو العبراني التوحيدي المعاصر للعراق 2003، بدعوى أنه أُثر عن بوش الابن (رضي الله عنه هو الآخر)، خطبته في الجنود التي تؤكد على "المهمة الحضارية لأمريكا"، وعلى أن يكون الجنود مثالا في الانضباط بالمبادئ الإنسانية النبيلة أثناء أدائهم "واجبهم"؟؟

هل يمكن أن نصدق اليوم شعارات وخُطب السياسيين ولا نرى كوارث سياساتهم وأنظمتهم؟؟

أبعد من ذلك، هل نجرؤ على كتابة التاريخ من خلال الشعارات والخطب التي قيلت أو لُفّقت، وندفن الحقائق والوقائع التي حدثت؟

إذا كان هذا مقبولا، فما أسهل من أن أجد في شعارات هتلر وخطبه، ما يُمَكنني من إعادة صياغة تاريخه بوصفه كان أفضل من مانديلا ومن غاندي، وحتى من أُمنا تيريزا.

هناك مسلمون كُثر، ومنهم دعاة أيضا، لم يعمل فيهم الدين عمله، فبقوا على أخلاقيات عالية..، منهم من يحاول عن حرج ناجم من طيبته وفضيلته، التعديلَ والتحويرَ في الدين العبراني بمسائل كثيرة.

كل ما نقوله لسادتنا هؤلاء ونحن نثق في نزاهتهم، أنه لا يمكننا أن نعدِّل في دين مكتملٍ عمل عمله في التاريخ بعد أربعة عشر قرن.. لدينا خياران لا ثالث لهما:

- أن نضعه في المتحف.
- أو أن نأخذ به كما هو.. وأن نفخر بمخازيه ونحوّلها إيهاما أو صراحة وقاحة، إلى فضائل ونتحمل النتائج المترتبة.

وهذا الخيار الأخير هوما نجده اليوم مع حركات الإسلام الخام الصافي الأصيل من سلفيات متعددة المناهج، والتي تعضّ على إسلامها بالنواجذ كما أُمرت. لا يقدح فيها أن نُسميها متشدّدة أو متطرّفة أو إرهابيّة.. فالتشدّد لا يكون تشدّدا قياسا إلى التشدّد.

غير المتشدّد الذي لا يعضّ على دينه بالنواجذ، ليس مسلما تماما، أو منافقا.. بكل بساطة.

أمّا أن نقلب الصورة، فيكون الذي يؤمن ببعض ويكفر ببعض مسلما، والمسلم الملتزم بإسلامه متطرّفا، فهذا ما نعيبه على المحرّفين الجدد. وبالنظر إلى دور هذا التحريف في إطالة عمر السرطان بديارنا، فإنه لم يعد تحريفا وإنما أصبح جريمة إنسانية بكل المقاييس. جريمة تموّلها جميع الحكومات. ويصمت عنها جميع وكلاء القانون. ويقوم بتنفيذها

– مع الأسف في غالب الأحيان-، الطيّبون/البريؤون منّا والغيورون على هويّتنا التراثية.

التعديل والتحوير والتكييف، ومهما كانت النوايا والمرامي طيّبة، لا يمنع من دخولنا في وحل من الكذب والمغالطة وتزييف التاريخ والحقائق. وعلى هذا نكون مجرمين ونحن نحسب أننا مصلحون.

الإصلاح يتعلق بالأشياء المادية.. قد نصلح سيارة أو بيتا أو ماكينة... الإصلاح لا يستقيم مع العقائد والأفكار والمواقف والسلوكيّات إذا كانت خاطئة..

الأخطاء نقلع عنها، لا نصلحها..

هذا مع الأخطاء.. فماذا والحال أنها جرائم.

وقد أقول مجازا أصلحت خطئي بأن أقلعت عنه. أو بمعنى، قمت بعمل نقيضه من الأعمال الحسنة كي أجبّه.

هل أصلح كذبة؟ بمعنى أواصل نفس الكذبة مع بعض التعديل والتهذيب والتحيين بما يوافق السياق؟

هل أصلح اعتدائي على جاري؟ بمعنى أواصل نفس الاعتداء مع بعض التعديل والتهذيب والتحيين؟

هل أصلح اعتقادي بالنجاسة "المعنوية" للمختلفين؟ بمعنى أواصل اعتقادي في نجاستهم بشيء من التكييف والمداراة اللفظية أو الصورية بما يوافق الحقوق والتعايش المعاصر؟

هل أصلح طريقة تطبيقي لعملية اغتصاب أو سرقة أو قتل؟

الإصلاح في كل ذلك لا يعني إلا المزيد من التمرّس والتطوّر إلى الجريمة الاحترافية. وهذا هو الخطر الذي تتربّع عليه الديانات العبرانية اليوم.

هل نصلح الطبيعة الذكورية لفقه الديانات العبرانية بأن نكذب في شأن ميراث المرأة ونغرق المسألة في جزئيات خارج حالات وجود الابن والبنت معا في تركة واحدة، أي خارج نطاق الآية " للذكر مثل حظ الأنثيين"، وننسى أنّ ذلك يعتبر هامشا على سواد لوحة المواريث.. ثم ننطلق من هذا التدليس إلى القول بأنّ المرأة ترث أقل من الرجل في أربع حالات فقط، **ونُخفي بأنها حالات أربع، ولكنها تستغرق عموم التركات، وهي كذلك لطبيعة الاجتماع البنيوية وليس لسياق عابر.**

ولقد أحصى أصحاب الإسلام الإشهاري[41] في مقابل تلك الحالات الأربع " اليتيمة" حسب زعمهم عشر حالات ترث فيها المرأة أكثر ممّا يرث الرجل، وثماني حالات ترث فيها المرأة مثل ما يرث الرجل، وعديد من الحالات الأخرى ترث فيها المرأة ولا يرث الرجل!

نحن هنا أمام لوحة بيضاء تماما.. تعتريها بالهامش على طول إطارها ألوان أخرى عديدة.. ثم يأتي رجل فاضل ليقول بأن هذه اللوحة ليست بيضاء، لأن الألوان المحيطة أكثر عددا من اللون الأبيض "اليتيم" على امتداد مساحة اللوحة.

تقول له: يا مولانا ولكنّ اللوحة بيضاء.

يقول لك: ولكنه لون واحد يتيم، والألوان الأخرى بالهامش عديدة.

ولحشيش الغيب في ضحاياه شجون...

ثقافتنا الذكورية، كما تخدم الدين وتخدم الأطر الرجعية عموما، فإنها تخدم المكر الديني أيضا... لقد أصبحت المرأة مرغمة بدون وعي منها على تقليد الرجل في مشروعها التحرري، فوجدت نفسها

[41] صلاح الدين سلطان. ميراث المرأة وقضية المساواة. ط1. 1999. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. ص 16 وما بعدها.

في جزء غير قليل منها تتحرر من أنوثتها بدلا من التحرر من أصفادها.. وهنا تقفز العقلية الإكليريكية العبرانية المسلمة وتنتهز الفرصة للقذف بلعناتها كيفما اتفق على نساء هذا الزمن، وتناست بأنها هي المتسبب في ذلك. وبأنها هي الموجدة للانحراف من اجل أن تجد شيئا تلعنه.

فالدين لا يمكنه أن يحيا بدون أن يلعن شيئا ما... هل يمكن أن نتصور دينا بلا لعنات؟؟

ولذلك نلاحظ بأن البيئات النظيفة لا يزدهر فيها الدين، وإنما ينمو ويكثف فقط في البيئات الموبوءة.. أما إذا دخل الدين على بيئة نظيفة، فإما أن يُطرد منها وإما أن يَمسخها.. لا توجد منطقة اسمها تعايش بين الدين والإنسان..

لا مكان لهما في نفس الحيز.. فالدين نَزّاعٌ إلى التضييق على الإنسان حتى يمسخه أو يمحقه.. خذ الصلاة مثلا..،

أنت منافق إذا اعتذرت عنها بأدب، احتراما لمحيطك.. (وجب تعزيرك).. يجري ذلك نفسيا وليس جسديا في أوساط ما يسمى بالمسلمة المعتدلة.

وأنت مجاهر بالمعصية إذا أنكرتها.. (وجب قتلك).. يجري ذلك سياسيا وليس جسديا في أوساط ما يسمى بالمسلمة المعتدلة.

وأنت مرائيا إذا صليت معهم.. (لعنك الله).. شرف تستحقه - على كل حال- معهم، هم أيضا.. يجدونه في نفوسهم.. في جذر العبودية، وفي مغزاها.

للدين أدوات تبكيت.. هي كل الرذائل الدينية بلا استثناء، إضافة إلى كل سلوك طبيعي حوّله الدين -إيهاما- إلى رذائل تعزيزا لرذائله الأصلية، ولا يعيش الدين بدونها.. وإذا ما وجد مجتمعا خال منها، أنتجها وشرع لها ورسمها، من أجل تمرير أهدافه في تخريب الفطرة من جهة..، ومن أجل تصديق لعناته وعنصريته وطبقيّته وحروبه من جهة أخرى.

فالدين لا يحرّم الاغتصاب كما عرفنا آنفا، ولكن لا يطلق له العنان.. فهو يشرّع له بما يجعله مقصورا على الغازين في سبيل الله فقط.. (والهدف هو مسخ فتيان القوم وأحرارهم وشجعانهم إلى صف البهائم).[42]

وكذلك فعل مع البيدوفيليا (اغتصاب الطفولة).. فهو لا يُحرّمها.. ولكن جعلها محكومة إلى إطار تعاقدي جنسي (النكاح)، وليست مطلقة

42 - ولذلك لا يزال بعض العسكر يغتصبون القرار والعقار في دول عبرانية الهوى مُتّهمة بالعلمانية.

هكذا على عواهنها.. (والهدف هو مسخ أغنياء القوم وأشرافهم والميسورين عامة إلى صف البهائم).[43]

أما عموم غير المعنيين بالعدوان على الأمصار (والمتعففين عن الاغتصاب الشرعي)، أو غير الميسورين (والمتعففين عن البيدوفيليا الشرعية)، فلا فائدة فيهم بالنسبة للآلة الدينية.. وسوف تحاصرهم بعقوبة الزنا لما كانوا يتعففون.

والزنا كلمة غريبة.. تعني في عرفهم **كل علاقة جنسية** ليست اغتصابا مشروعا، وليست شراء جنس مشروعا، وليست بيدوفيليا مشروعة، وليست استعارة فرج مشروعة..، **تتميز بوقاحة التراضي بين راشدين**... (مَن أذن لكما في شعوركما؟؟)

ما يهم الدين ليس مضمون الأخلاق في السلوك.. ولكن مضمون أهدافه في السلوك.

---

43 - ولذلك لا يزال بعض رجال المال والأعمال يشترون الأعراض والعرائض في دول عبرانية الهوى متهمة بالعلمانية.

وبطبيعة الحال..،

المتدين المعاصر، والقديم أيضا من آباءنا، لا يتوقف كثيرا مع ذلك الانحطاط الأخلاقي.. بل أحيانا لا يسمع به، إلا إذا كان يهتم بالقراءة في الدين من منطق "لا حياء في الدين" العجيب.. أو إذا كان يعيش في مجتمع محافظ على المادية الغريزية الدينية ذات الوشاح المثالي، كما هي المناطق المسماة محافظة بمجتمعاتنا. أو إذا كان بالطبع يعيش وسط مجتمع ليس محافظا بالضرورة، ولكنه يمر بتجربة "صحوة دينية" كما هو الحال بالعقود الأخيرة بالنسبة للعموم.

ذلك انه كما قدّمنا، سرعان ما يحوّل المسلم دينه العقائدي إلى تدين اجتماعي مبقيا على طقوس الدين، وطقوسه وفقط، يتحكم فيها ويلوِّنها بعصره ومعرفته ولا تتحكم فيه.. ويستأنف حياته مع ما تمليه روح العصر وقوانينه وأعرافه، لا ما تأمره به مضغة الدين.. ولكن إذا ما عاد الدين إلى شحنه العقائدي في مجتمعاته، ويعود إلى التحكم فيها، كما يحدث دوريا بمجتمعاتنا مع ما يسمى بالصحوة الدينية، فإن جميع أنواع الانحطاط الأخلاقي المشروعة دينيا تعود إلى الظهور كما هو الحال في صحواتنا الدينية التي ظهرت بهذا العصر.. وبهذا من الطبيعي جدا أن يجد المواطن البسيط حينها كثيرا مما ينكره منها، اعتقادا منه – على خطأ- بأن هذا ليس هو الدين.. والصواب أن هذا

ليس هو التديّن الاجتماعي الذي عرفه عن أبيه.. فعندما ينكر نسبة داعش وأخواتها إلى الدين، إنما هو في الحقيقة ينكر نسبة داعش إلى آبائه المتدينين اللادينيين، وإلى مجتمعه الذي عاش فيه في حظوة من العصر، وفي هدنة ولو يسيرة مع الصحوة الدينية، وهو مجتمع أقرب إلى التدين المتحكم في الدين منه إلى الدين المتحكم في المجتمع.

وبهذا يكون المواطن البسيط – من زاوية نظره غير المدققة مع الأسف- على حق في إنكاره ذاك، لولا أن ثقافته المتواضعة لا تسمح له بالتمييز أيضا بين أبيه المزارع الطيب المتدين وبين الدين، ولا تسمح له بمعرفة أن نقد الدين وجرائره ليس نقد لآبائه ولا لمجتمعه ولا لتدينه.. ولا تسمح له بإدراك أن أباه المكافح وأمه العطوف هما في حقيقتهما وإن لم يدريا، علمانيان حتى الثمالة تحت مؤسسات مادية دينية (حكومات)، ومؤسسات رمزية دينية (ثقافة رسمية وأهلية سائدة).. وهي مؤسسات تبقى "مُحتلة وغازية" على المستوى الثقافي وإن كانت هي السائدة صاحبة السلطة، وتبقى في غير حظوة تامة باحتضان الشعوب المتدينة لها، إلا إذا ثارت صحوة دينية جديدة تشحن ذلك التدين بنزوات عقدية دينية مكثفة.

فالمواطن البسيط ينكر داعش التي لا تمثل تدين أبيه، ويغفل بان سلوك أبيه رشاد عصر وأخلاق فطرة وتدينا اجتماعيا، ليس دينا عقائديا، ولا علاقة له بالدين الحقيقي إلا بما اقتضاه سياقنا التاريخي والجغرافي من تلوُّن بألوانه الداكنة، وتمنطق بمفرداته الهاجرة..

وداعش على حق (من زاوية نظرها المنسجم مع سادية النص النظري والواقع التاريخي للعقيدة الدينية).. فالداعشي ينكر المواطن البسيط الذي لم يستقم على الدين حنيفا (أي معوجّا...، عن الفطرة) وحوّله إلى طقوس و فلكلور ولعب ولهو، ويغفل بأنه وإن كان هو مستقيما على "الاعوجاج"، إلا أن دينه هذا باطل من أساسه ولا علاقة له بالحق.. وليس له أن يفرض باطلا على الناس.

ويأتي الداعية العبراني في النهاية ليصلح بينهما – والقاعدة الدينية تقول بأنه يجوز الكذب في الإصلاح- فيقول للمواطن البسيط:

هوّن عليك من أخيك الداعشي..، فلعله مدفوع بحماس أكثر من اللزوم ليس إلا.. ألا ترى بأنّ هؤلاء الكتاب العلمانيون المأجورون هم الذين ميّعوا حياتنا الاجتماعية وأفسدوا "أخلاق" الناس، فثار الشباب غيرة على دينهم؟

(هذا خلاصة ما يقال على كل حال في جميع أدبيّاتهم الدفاعية عبر فضائياتهم ومواقعهم).. ولاحظ حشر الأخلاق غير المنطقي مع دينهم...

ثم يروغ على الداعشي، فينفث في سره:

هوّن عليك من أخيك المسلم البسيط.. إنه لا يعلم دينه.. وهل ترَكَنا هؤلاء الكتاب العلمانيون الحاقدون على الإسلام، نُعلّمه دينه؟

(هذا خلاصة ما يقال على كل حال في جميع أدبياتهم الهجومية عبر فضائياتهم ومواقعهم).

الإرهاب.. الركن الثاني للدين

الركن الأول - وهما ركنان فقط - هو الإغراء.. لم أشأ إفراده بفصل.. ولقد أَقْعَدَتهُ تميم على القافية، بفقرات وفصول من هذه الصفحات.

يؤثر كثير من الفضلاء الدخول في نقاش عويص مع المؤمنين حول مدى صحة الأحاديث التي يتعرضون لها.. لأن المؤمنين دأبوا على إنكار صحة ما لا يريحهم منها.

فلمن يرى بأن هذا الأثر أو ذاك عن الإرهاب أو عن غيره من الكوارث الدينية ليس صحيحا، ننبهه بأنه إذا كان غير صحيح في النص النبوي، فهو قوي في الواقع النبوي.. وأن الإسلام الذي عرفته الأرض مُؤَسس على شاكلته.. ولا شأن لنا مع إسلام يكون قد عرفه المريخ...

هو **أثر قوي**، لأنه انتشر ونخر في عقول المسلمين على حساب ما يسمى أثرا صحيحا، هذا إذا كان ما يعتبرونه صحيحا، صحيحا هو الآخر.. ونحن بوصفنا معالجين للظاهرة في التاريخ، ليس من العلمية أن نلتفت إلى ما لم يعمل عمله في التاريخ، حتى ولو "صحّحه" الشيخ المحدث ناصر الدين الألباني.. أو "كَيَّفَهُ" المفكر الألمعي محمد شحرور...

ما معنى حفظ الذكر المنزل، إذا لم يُحفظ صحيحٌ من الدين، ليعبث مكانَهُ موضوعٌ على الدين، بعقول المؤمنين طوال أربعة عشرة قرنا، حتى يأتي فضيلة الألباني أو غيره في قرننا هذا، فيعيد إقامة الجدلية على رجليها بعدما كانت مقلوبة على رأسها؟ هل نحن نعاين وحيا جديدا؟

وما معنى حفظ الذكر المنزل، إذا لم يُحفظ مفهوم من الدين، ومعلوم من معنى القرآن، ليعبث مكانَهُ مفهومٌ على الدين، ومرويٌّ على معنى القرآن، طوال أربعة عشرة قرنا، حتى يأتي الدكتور شحرور في قرننا هذا، فيبشر باللامفكر فيه لاهوتيا... فهل نحن بصدد تقعيد عبرانيات جديدة، تتناسب مع العالم القرية، واللا- نظام الدولي التوحيدي الجديد؟

ثم هل نفهم من هذا، أن سريان مفعول ذلك الوعد، إنما يبدأ بصورة تنفيذية، بعد أربعة عشرة قرن عندما يأتي جهابذتنا هؤلاء إلى الحياة؟ فمن لأجيالنا السابقة إذن؟ ولمن تُركوا؟ وما دمنا نُقِرُّ - يا أم عمرو- بأن هناك قبر ونشر وحشر، فعلى ماذا يُحاسبون؟

يؤسفنا على كل حال، أن نعاين بالملموس واحدا من الأمرين، أحلاهما مصيبة. فإما:

- فشل ذلك الوعد بالحفظ.. فيكون الإرهاب صحيحا عن المسلمين.

- أو تدليس وتحريف المبشرين الجدد.. فيكون الإرهاب صحيحا عن الإسلام.

وبما أننا لا يمكننا مساءلة وعد لم نسمعه، بحفظ لا نفهمه، من غيب لا نراه..، فإننا نملك بالمقابل محاسبة المحرفين لتراثنا.

أما إذا كان المقصود بحفظ الذكر، حروف وكلمات القرآن منذ عثمان أو منذ عبد الملك...(؟؟) إلى اليوم، فهنيئا لمعلقاتنا العصماء، وألواح بابل، ورموز الجيزة، بقصب السبق...

نقترح وندعو إلى سياسة في التحليل هي الطريق الوسط المعتدل والواقعي بين الانتقائيتين الساريتين راهنا:

- الانتقائية في اختيار الروايات التي تحط من شأن الإسلام. وهذا سلوك سياسوي لا يتحرى الموضوعية.
- الانتقائية في اختيار الروايات التي تعلي من شأن الإسلام. وهذا أيضا سلوك سياسوي لا يتحرى الموضوعية.

نحن نعتمد الروايات التي أيدها التاريخ الإسلامي وكونت مزاجا عاما لدى المسلمين، وبنيت عليها أحكاما بالفقه الإسلامي وتصورات وأفكار بالعقيدة الإسلامية على الروايات اليتيمة التي لا نلاحظ لها خطا لاحقا بالتاريخ ولا بالمزاج العام للمسلمين ولا أحكاما مؤسسة عليها أو على وحيها أو صورتها بالفقه الإسلامي. سواء صححها زيد أو ضعفها عمر.

والفقه الإسلامي الذي يرسم الفعل، والعقائد الإسلامية التي ترسم الموقف، هما أوثق المصادر بهذا الصدد. لأنهما يمثلان المرحلة الأخيرة لتطور الأفكار من التعاليم المؤسسة إلى التصور إلى التصميم إلى الواقع. هما المدرسة الواقعية التي نستشف من تفاصيلها طبيعة الديانة أو المعتقد أو الايدولوجيا.

وقد نرى المحرفون الجدد – بنوايا حسنة في الغالب – يجُبّون أحكاما من الفقه الإسلامي بدعوى أن الفقه من الفروع وهو مختص

بزمانه وسياقه. أو يجبّون عقائد إسلامية بدعوى ارتباطها بذلك السياق السياسي أو ذاك. ونحن لا ننكر ذلك. بل نؤيده. إلا أننا نختلف مع أصحاب النوايا الحسنة هؤلاء، في الحكم على الديانة من خلال فقهها أو تطبيقاتها إن جاز التعبير. فهذا الذي يعافه منطقنا المعاصر، فأخفيناه تحت بساط زمانه وسياقه، اختص أيضا بفظاعته وبلا إنسانيته في كثير من المواضع. أفلا يحق لنا أن نضع مرجعيته المزعومة إلى " الحق المطلق" موضع التحقيق؟

نلح على هذا التساؤل خصوصا ونحن نرى أصحاب النوايا الحسنة، ومنذ ما يقارب القرن، يحكمون على كل المآلات المؤسفة في الغرب بإسقاط كل ذلك على الإيديولوجيات القابعة وراءها.

أفلا يرضون بنفس هذا المعيار - الذي اعتمدوه لتقييم غيرهم- على أنفسهم أيضا؟

أكثر من ذلك، كانوا سيكونون أكثر انسجاما مع أنفسهم في تعاملهم مع واقعهم وتراثهم لو حكموا على تلك الإيديولوجيات من خلال القوانين والتشريعات المدنية المعاصرة وليس من خلال مآلات اجتماعية أو سياسية بائسة.

فليس إذن - كما قدمنا- من مجال انتباهنا ما لم يُحفظ في التاريخ.. فنحن نتعامل مع التاريخ ولا نصارع أشباحا. ولقد كان هذا التزامنا مع القارئ منذ التقديم.. بتأكيدنا على أن ذلك "الشيء" الذي برؤوس المؤمنين سيبقى مَصُونا ومُنزّها عن أي نقد وأية معالجة من طرفنا.. بل نذهب حتى تقديسه معهم.. وأنّ نقدنا وتحليلنا سينصبّ على النص المقروء، والواقع المكابد، والتاريخ السافر، والتراث المتداول، الذي لا يمثل –باعترافهم- الدين الذي برؤوسهم..

حول أحداث العواصم الأوربية الأخيرة،[44] جرى في كثير من مناقشاتنا لهول الأعمال الإرهابية الفظيعة، محاولة تمييع الأسباب العقائدية في أسباب اجتماعية. مع أن نفس الأسباب الاجتماعية موجودة في كل العالم ولم تنتج هكذا إرهابا. وهذا النوع من التمييع أصبح الموضة المفضلة لدينا في كل تبريراتنا للجرم السادي والقاتل الموجود في صلب عقائدنا الدينية.

وللتاريخ، فإن ما يقال اليوم عن كون الإرهاب يَنْظَمُّ إليه شباب غير أسوياء وليس لهم أي تكوين ديني، ولا يعترفون بالقانون أساسا،

[44] - أحداث 2015 بفرنسا خصوصا، أوان تحرير هذا الكتاب.

وكونهم جاؤوا من أوساط المخدرات والجريمة، ينطبق تماما على ما كان يقال في التكوّن الأول لجماعة المسلمين.. **وهذا بالضبط ما نأخذه على أكابر قريش الذين استهانوا بخطر عقيدة التوحيد، واكتفوا فقط بنقد الوضع الاجتماعي للمنخرطين في الدين الجديد. ونحن اليوم نكرر خطأهم.**

فلنكن واضحين وإن قليلا.. ولنربط إما الدين بالمنكر في المجتمع، أيا كان ذلك المجتمع.. أو نربط الإرهاب بدين المجتمع، أيا كان ذلك الدين، حتى لو كان لادينية... أما أن نبقى في التعويم المقصود والمريح لكل الأطراف، فهذا وإن ساعد على الهروب إلى الأمام، إلا انه لا يُغيِّر مكان الجرف من أمامنا.

وسواء كان مصدر تلك العمليات الإرهابية، تنظيمات دينية تقليدية (أتباع ديانات التوحيد العبرانية) أو تنظيمات دينية حديثة (امتداد الفكر الديني التوحيدي في الفاشيات والدكتاتوريات والأنظمة الشمولية وأخيرا في بؤر النظام العالمي التوحيدي الجديد)..، وسواء كانت الخلفية الإيديولوجية للفاعلين والمدبرين على سواء هو توحيد العبيد أو توحيد السوق، فان المنطلق والغاية شيء واحد لا يخرج عن الأصل الديني الأول:

قتل ما يميز الإنسان في الإنسان.. وتحديد سقف حريته وإبداعه بتحرّي توحيد الناس ورصِّهم كالنعاج في زاوية من علف غذائي وفكري على الوصفة، وبدون ضمان أيضا.

وحسب أوضاع العلاقات بين الشعوب، فان الوقت قد حان الآن للتمييز بوضوح، والاختيار الصريح الجريء، بين حماية حياتنا من هوياتنا، أو حماية هوياتنا من حياتنا.

ما نسميه اليوم هوية، هو أثر حضاري يطبع مجتمعا ما في مسيرة الحياة.. مجرد أثر وعلامة، يدل على منعطف محدد في تاريخ جماعة.. إذا أوقفنا عليه شكلا واجب الدوام، وأسبلنا عليه صبغة القانون الطبيعي، فإننا نكون قد أوقفنا مسيرة الحياة بنا، ودخلنا رواق الموت الحضاري، بكل ما يعنيه هذا من شغب وضجيج وتعطيل وقطع طريق وغزو مبارك في حق من أراد الحياة.

ستصير بهذا قوانيننا افتراضية في أصولها مستنبطة من منظومة الهوية مكتملة التصور سلفا، بدلا من أن تكون مستنبطة من مبادئ إنسانية جامعة، تؤطّرها وتوجِّهها في مستجدات التطور الطبيعي مسارا حثيثا غير متوقف عند أمة أو حضارة أو جغرافيا، ومن يدري، عند كوكبنا العجوز...

فالأصول من مجال الفلسفة وليست من مجال الثقافة.. ما نسميه أصولا عندنا ينبثق عن نصوص ورسوم وأعراف.. وهذه ثقافة. الأصول الحقيقية مبادئ وليست وصايا وتعليمات وقوانين.

نظلم الوصايا ونظلم أنفسنا بها إذا أخذت مكان المبادئ، لأننا سنقع في وثوقية عصبية نلزم بها الزمان والمكان، وندخل في خلافات مقدسة مجانية مع الآخر.. وهذا ما تريده الفوضى النظامية التوحيدية الخلاقة الجديدة، كما أرادته فوضى التوحيد التاريخي من قبل.

ونظلم المبادئ إذا تعسفنا في حقها وأنزلناها منزلة وصايانا.. لأننا نجيز بسهولة حينها وقفية الأخلاق كما في التوحيد القديم، أو نسبية الأخلاق كما في التوحيد المعاصر، في حين أن الأخلاق مبادئ.. لا توقفها ثقافة ولا يُنسِّبها سياق.. ما يخضع للثقافة والسياق هو اتجاهات السلوك والاستحسان الاجتماعي، أي القيم ومنظوماتها المتغيرة باستمرار.. لقد حصل ذلك الخلط فعلا في كل الوثوقيات المغلقة.. بدأ بتنظيمات توحيد العبيد، مرورا بأنظمتنا الشمولية في كل العالم، إلى نظام توحيد السوق، قمة الإبداع الديني المتناسب مع عصرنا منذ أخناتون إلى اليوم.. مدعما -بطبيعة الحال- بالجيوب الباقية إلى يومنا من تحولات التاريخ التوحيدي ممثلة في التنظيمات الأصولية من كل الثقافات.. يخفي كل هذا، وجود الشكل الموضوعي

لخلافات ظاهرة صراعية عنيفة أحيانا بينه وبينها وبين بعضها البعض، إمعانا في تَعْمِيَةِ أولي البصائر مِمّا يُسمّى بالمسلمين المعتدلين.

هذا الانسجام على الغاية و الهدف بل وفي التحريات أيضا لتنظيمات تبدو سطحيا متنافرة تختلف ثقافيا وتتباعد منشئا، يفسر بدقة ما يفوح عبيره..، من تنسيق خفي بينها – عن غير ترتيب أو قصد بالضرورة، ولكنه التاريخ في صيرورته مع منطق الرداءة ورجالها، تقاطعا مع الدناءة وقوة كيدها بأيامنا- على نسف العالم العربي ببضاعته، وتخريب أوربا بارتداداتها الوسيطية، وتلهية الصين بلعبة غزو الأسواق إلى حين.

أخي القارئ.. إذا كان لابد لنا من أن نستعمل كلمة هوية، فلنستعملها في نطاق سليم مرحليا: هويتنا الحقيقية هي الإنسان، ومشروعنا الحقيقي هو الحياة.

وعن هذا المشروع الحقيقي تنبثق القوانين.. تفصل وتشرع للحياة.. غير أن المحذور سالف الذكر، وهو رفع الوصايا إلى مصاف المبادئ، جعل الناس عندنا يُشرِّعون للموت.

ذلك أن القانون ضبط تنظيمي مؤقت ومرحلي للحظات الشعوب. يتجدد من لحظة إلى أخرى. فهو واجب وضروري، ولكنه ليس متوقفا على رسم مقدس إلى الأبد.

لنرى الواقع عن كثب..،

فالمسلمون، ومهما كانوا مسلمين، هم جزء من هذا العصر، يتنفسون – شاءوا أم أبوا- هواء العصر الحقوقي.. جعلنا هذا، وكثير غيرنا، نلاحظ بأن المسلمين أفضل بكثير من إسلامهم. ولهذا انحاز كثير من الأوروبيين المنصفين الذين عرفوا المسلمين قبل أن يعرفوا الإسلام إلى إنصاف من أسموهم بالمسلمين المعتدلين ووقفوا إلى جنبهم.. ولكن مع الأسف، استغل هذه الطيبة والمروءة والإنصاف، إخواننا المؤمنون، فراحوا يُنَظِرون لنكتة " لا يُمثِّل الإسلام" الرائجة بهذه الأيام.

وإذا كانت حقيقة كون الغربيين بحمد العقل وضمير الإنسان، عرفوا المسلمين قبل الإسلام، فميزوهم بوصف الإسلام المعتدل، حقيقة مُطمئنة؛ فإنها من جهة أخرى عائق كبير أمام تقدم ما يسمى بالمسلمين المعتدلين.. كيف؟

لأنهم يظنون بأن الإسلام هويتهم وأنهم يمثلونه، ولا يعلمون مع الأسف بأنهم يختلفون عنه بمدى تشبعهم بروح العصر. لأنهم لم يدرسوا عقائده في مظانها، بل اكتفوا بنتف مكيفة بعناية من الإسلام الإشهاري المحرف الذي يغزو الفضائيات.. فإذا ما قام أحد المثقفين بنقد الإسلام الحقيقي الذي يغذي التطرف ويمنع التنمية ويعطل

الإبداع، يعتقدون بأن هذا تهجما عليهم. وبهذا السلوك، يوفرون الحماية بأسلوب غير مباشر للتطرف والتخلف الذي يعتقدون بأنهم ودينهم بريئون منه.

من جهة أخرى، هذا الإسلام الحقيقي يدرِّسونه لأولادهم في التنشئة الأولى بدون رتوش وتكييف إشهاري.. أي يقدمونه لهم من خلال أئمة محليين متشبعين بالثقافة الأساسية للدين الخام كسم صرف بدون دسم.

كما يقدِّمونه لهم من خلال العقل الديني السائد – إذا كان ثمّة مجال للحديث عن عقل-، المستأنس بالجماعة، غير المبالي وغير المسئول عن مضاعفات الفكر المحلي في دوائر أوسع، بل وغير المفكر فيها أصلا.. ويحتوي هذا الفكر الديني السائد على الأفكار الأساسية بدون رتوش هي أيضا عن الآخرين، التي تعتبر نواة للعنصرية الثقافية.، وبهذا يضمنون سيلا متدفقا دائما وأبديا لبقاء الإسلام الذي سينكرونه فيما بعد في أبنائهم أولا قبل أن ينكرونه في التنظيمات التكفيرية، وقبل أن يرتاحوا في الأخير إلى تعليق كوارثهم على شماعة المذهب الوهابي.

وكمثال غني عن التعريف في العقل الديني السائد، هو استخدام كلمة "يا يهودي" مكان كلمة "يا نذل" عندما نغضب على شخص ما

أو حتى لدى تعزيرنا لأحد أبنائنا. وهذا النوع من السلوك العفوي، والمحمود أيضا في ثقافتنا، لا علاقة له بالصراع العربي الإسرائيلي، وإن كان عاملا إضافيا.. وأعرف بأن المثال يبدو سطحيا ومجانيا بالنسبة لكثير منا.. والسبب هو بداهة هذه السُبة في عقلنا الكامن.. وهنا يكون السبب أخطر من الفعل. وهذه كارثة أخرى تضيق بها هذه الورقات.

يسند ذلك في اعتقادنا ما يدور أيضا في مواقع التواصل.. فكثير منا، إذا ما أردنا التحذير من كاتب أو من عالم أو من سياسي أن نشيع عنه بأنه من أصل يهودي.. وكأن هذا دليل قاطع على "خطيئة أصلية"، وفاتنا أن صانعوا المدنية الحديثة التي ننعم بها، هي في نسبة كبيرة منها تعود إلى فضل علماء، لا دينيين في الغالب طبعا، من أصل يهودي..

وبهذا أيضا أراد البعض الحط من قيمة المملكة - محاولة "لتبرئة الدين" كالعادة - بتشويه صورة وعمل ونشاطات المملكة السعودية التي قامت بها في إطار ما كان كل العالم الإسلامي بحكامه وشعوبه يتوقعون منها باعتبارها موطن الحرمين وباعتبار ما أفاء عليها البترول.. فهي لم تزد على أن نشرت مذهبها الإصلاحي الذي كان في زمنه "طليعيا" باركه العلماء والحكام وحتى كثير من التقدميين

آنذاك في جميع الدول العربية.. ولم تزد أيضا على بناء المراكز الثقافية والدينية عبر العالم الإسلامي وتموينها كما كانت ترى صوابا، وتراه معها البلدان والمجتمعات الأخرى وتشجعه عليها، بما فيها المؤسسات المدنية القانونية الممثلة للمسلمين في أوروبا.. ولو لم تقم بدورها ذاك، لاتهمناها بالبخل في ألطف الأحوال.

نحاول اليوم إلقاء اللوم، كل اللوم على المذهب الوهابي، وتدليس تهمة "تشويه الدين" لعلماء الوهابية. وكأننا لم نكن جميعا في الركب، شعوبا وأنظمة. لا افهم كيف باءت بها السعودية اليوم لوحدها. لا يمكن أن نخرج من مآزقنا ما لم نعترف بحقيقة أننا كلنا مشاركين في تخلفنا، ولاعبين أساسيين في هواننا.

وذلك السلوك ليس جديا، لأنه بدلا من أن يحدد أخطاءنا التي اشتركنا بها وباركناها جميعا، ويشير إليها بوضوح، يُفضل الالتواء على ذلك بتبادل الاتهامات بيننا. فهذا لا يساعد على تجاوز الخطأ، ولكنه يساعد الخطأ على المزيد من التطور، باستفادته من تناحرنا فيما بيننا وعدم الانتباه له.. وكأننا بالخطأ يقول، إن تلك الدولة أو تلك الطائفة، لم تحسن استخدامي فدونكم وإياها سبا وتجريما، وها أنذا "أعطيكم الفرصة" اليوم، وأسمح لطائفة أو دولة أخرى باستخدامي...

فهل وصلنا إلى هذه الدرجة من الغبن بحيث نفاوض الأخطاء على كيفية النيل من صوابنا؟؟

نفس الصورة تحدث بين الأجيال.. وهو طلاق اللعان المتكرر أبدا بين الأجيال، تبعا للتجريم المتبادل بين الثقافات – وهنا أخص الجزائر بالذكر-، وما يسببه ذلك من عدم استفادة مجتمعاتنا من عملية التقدم المشروطة بتراكم التجارب عن طريق تواصل الأجيال.

فالملاحظ أيضا، ومنذ قرابة قرن من الزمن، بأن الآباء دائما أكثر علمانية من الأبناء.. ثم هؤلاء الأبناء يكونون بدورهم أكثر علمانية من أبنائهم وهكذا...

ذلك لأن كل جيل يستمتع، بعد اجتياز مرحلة التنشئة والحماس الدينيين، بمحاسن الرشد الإنساني لهذا العصر.. ولكنه يبقي، من جهة أخرى، على حرصه بتنشئة أبنائه على قواعد الدين عند إمام الحارة، فيكون قد ضمن لأبنائه جرعات وافية من الدين الصرف، والأبناء بعد اجتيازهم مرحلة الطفولة الأولى، يدخلون مرحلة المراهقة بما فيها من فضول وحماس وتضخم الأنا وغيرها من المشاعر الحساسة والحاسمة تجعلهم في استفهامات ومعارضات قوية مع ذويهم الذين فترت بهم الحماسة الأولى وسبحوا في رشاد العصر، وبهذا يضمن

لحليمة عوائدها القديمة وهكذا دواليك. ثم يتساءلون من أين كل هذا التطرف.

أحيانا يتهمون السعودية وكتبها.. وأحيانا يتهمون الفقر والسياسات الحكومية، ولا أحد يتجرأ على اتهام التنشئة التي أقرها في بيته هو باختياره الشخصي وفرضها على أبناءه، والمنظومة التربوية التي أقرها لهم في المدرسة، وقمر النايلسات الذي أقره – حصرا- لأهله في بيته، وفيه قنوات عبرانية اشد خطرا على الصحة النفسية والعقلية والاجتماعية من القنوات الإباحية.. وقانون الأسرة الاكليركي الذي أقره من خلال ممثليه، وتأييده الأبله للمادة العبرانية الثانية من الدستور.. كل هذا مع انتهاجه -فيما يخصه هو- السلوك "المعتدل" الموفر للاستفادة من جميع محاسن الهواء العلماني الذي نتنفسه قهرا عنا.

إذا كان الكبار يحسنون لعبة النفاق هذه، فان الصغار يتساءلون.. وإذا لم يجدوا الإجابة، فإن الكبار في أعينهم يهونون.. ومن هنا تبدأ المغامرة بشعابٍ..، التعصب وكراهية الآخر أقلّها وُعورة، والإرهاب أخطرها وأعزّها على عودة.

من جهة أخرى أوقعت تلك الحقيقة المطمئنة، حقيقة أن المسلمين أفضل من إسلامهم، النقاد الغربيين في خطئ منهجي.. حيث أصبحوا يُقَيمون الإسلام من خلال عموم المسلمين عندهم، ويتجنّبون نقد الإسلام احتراما لمشاعر المسلمين.. وكلمة "احترام" كما يعلق محمد كاليش [تبدو رائعة لكنها في هذا المقام غير مناسبة لأنها تتضمن مفعولا عكسيا. ومن لا يشجع المسلمين على الجدل مع الحقائق، فإنه يضعهم في مرتبة أطفال لم يبلغوا الحلم، وكمن لا يريد أن يسلبهم بابا نويل أو شكولاتة العيد. إن كل من ينطلق من أفكار المساواة بين البشر عليه أن يثق بكفاءة ذكائهم، فالاحترام الحقيقي للمسلمين يجب أن ينطلق من امتلاك القوة لوضعهم على أسس علومنا الحديثة ليتمكنوا من الجدل والنقاش حول دينهم.. فقط جماعة الإسلاموفوبيا تظن أن المسلمين برابرة. الطيّبون منهم ينظرون لهم كحيوانات نبيلة. والفرق لا شيء. وكأن المسلمين يختلفون عن باقي المعمورة.. إما أن يوضعوا في حديقة حيوانات للمداعبة، أو في أقفاص الوحوش المفترسة، وبكل الأحوال في حديقة حيوانات].[45]

---

45 - لاهوت إسلامي بدون محمد تاريخي.. محمد كاليش. عن دراسة للأستاذ نادر قريط. موقع كتابات نادر قريط.

يذهب "الطيّبون" إذن من الغربيين، إلى توجيه كل مراصدهم وتحليلاتهم إلى خطر نشوء الإرهاب بالتحليلات التقليدية الباحثة في الظاهرة معزولة عن مصادرها الكامنة فيما قبل القطيعة المعرفية الأخيرة بالنسبة للغرب (وهذا ما يجعل الغرب لا ينتبه إليها) والكامنة في حقبتنا المعرفية الحالية بالنسبة للمسلمين (وهذا ما يجعل المسلمين يطالبون بعدم الخلط بينها وبين الإرهاب)، كما تُؤْثر النخب الغربية توجيه الاهتمام إلى ضرورة حوار الديانات والتبعات السياسية للجماعات الجهادية وفقط. وهي تحليلات عبثية لا تزيد الرأي العام إلا غموضا، ولا تزيد الخطر الحقيقي إلا استبعادا من دائرة الشكوك.. هذا فضلا عن كون النقاد الغربيين يتعاملون -كما أسلفنا- مع الإسلام كثقافة متمايزة وليس كمعرفة متمايزة.. وينظرون إلى المسجد غير المعترف ببداهة العلمانية بنفس النظرة التي ينظرون بها إلى الكنيسة المعترفة بها.

نفاق الكبار ذلك، لا يوجد على مستوى المجتمع فقط، ولكنه أسلوب دارج راسخ في الأنظمة والسياسات الحكومية فيما يتعلق بالشأن الثقافي.

قبيل عصر الضعف (العصر الإسلامي الثاني) وبعد أن تم القضاء على المعتزلة (أسلاف المدرسة الإصلاحية العقدية) وعلى

الخوارج قبلهم (أسلاف أخطأهم التاريخ للمدرسة الإصلاحية السياسية)، **<u>اخترنا المذهب الأشعري والفكر السلوكي الصوفي منهجا</u>** "للراعي والرعية" على أيامهم... والممتدة – على كل حال – إلى اليوم.

ثم في زمن النهضة العربية، وعندما كانت الشكوك تتجه إلى الإسلام بخصوص التخلف الاجتماعي، برّأنا الإسلام وقلنا بأن التراث الصوفي والطرقي <u>(الذي **اخترناه سابقا**)</u> هو المتسبب في التخلف، وعانقنا الفكر الوهابي المكون من مبادئ مركبة، واضحة الامتداد من الفكر المعتزلي والخارجي معا <u>(الذي **أنكرناه سابقا**)</u>، كأيدولوجيا دينية رسمية لجميع أحزاب الأنظمة العربية بوصفه جانبا دينيا منصرفا إلى تأطير الشعب المتدين، ولا يتعارض - " لتقدميته" آنذاك مقارنة بالفكر الصوفي السابق - مع الأهداف "التقدمية" للثورة.. كما توخينا بعناية كبيرة نفس الفكر الوهابي كمرجعية ثقافية حصرية للحزب الحاكم بالجزائر بعد الاستقلال من خلال المدرسة الباديسية.. وانطلقنا في تشييد دول وطنية تأخذ بصورة شكلية وسطحية سرابا علمانيا.

ثم في زمننا المعاصر.. زمن الأنظمة الوطنية..، عندما بدى عيانا تهافت السياسات العربية الدينية ذات الديكور العلماني، خصوصا بعد

النكسة بحرب 1967، حامت شكوك قوية حول تراثنا جميعا، ثم سرعان ما برأنا كل ما تعلق بهويتنا وتراثنا، وألقينا اللوم على الدين الوهابي السلفي الجامد غير الحركي (الذي **اخترناه سابقا**) من جهة، ومن جهة أخرى علقنا كل تجاربنا الفاشلة بالأنظمة العربية المُدعاة زورا وبهتانا "علمانية".. وكانت فرصة سانحة للإخوان المسلمين، وهم نسخة كانت تبدو مهذبة من الوهابية، لكي يصعّدوا من نضالهم في سبيل تجسيد مبدأ الحاكمية والإسلام السياسي الحركي غير الجامد بزعمهم كما رسمه المودودي وسيد قطب بعده.. و سارت الشعوب - موازاة مع السياسات العربية الآخذة في النكوص- في ركاب إسلام سياسي (**الذي أنكرنا مرجعيته سابقا**) يأبى أن يكون نسخة من الشرق أو من الغرب، أو تطورا طبيعيا من مجتمعه المحلي، أو حتى من هذا العصر (حساسية مفرطة من كل العالم)..، و لكن من جهة أخرى يأبى عليه التاريخ أن يمثل في ذاته جوهرا متفردا يضيف إلى إنسان هذا العصر شيئا جديدا، لاجتماع شمله على شتات مآسي الشعوب، و على تصيُّد أخطاء الإنسان، يرأب له منها قناعاته و مزايداته، و لذلك كان هذا التيار الأقوى تماهيا مع حقيقة الدين بقدر عدائه للإنسان.

والآن، وحينما بدأت الشكوك تتجه إلى الدين بخصوص الإرهاب، ها نحن نبرئ الدين، ونقول بأن الفكر الإخواني - (الذي

اخترناه سابقا بمحض إرادتنا، ومن لم يختره آنذاك لمشكلة "اتيكيت" بينه وبين الملمح الإخواني لم يكن له بد من العودة إلى كتابات أعلامه كلما "لعن إبليس"، أو كلما أراد التنكيد على العصر.. هذا الفكر الذي لم يعرف الجزء الأكبر من الشعوب العربية المعاصرة إسلامه إلا من خلاله، وكان محل احتضان من حكامنا وأنظمتنا كذلك، ومحل تقدير ومساعدة في الدول الغربية أيضا) - هو سبب الإرهاب، ونعود مرة أخرى إلى مغازلة الفكر الطرقي الصوفي (الذي **تبرأنا منه سابقا**).

هل نحن جادون بالفعل؟؟ هل نحن واعون بأننا بهذا العبث لا نخدع الآخرين كما نظن، ولكننا نراوغ أنفسنا، ونزيد في عمر تخلفنا وهواننا؟

نحن اليوم، وإمعانا في سد آذاننا عما يقوله لنا المفكرون الأحرار والأكاديميون الجادون، نغازل فكرا مقبورا أيضا.. لقد اجتمعت ثلة من أشياخ الأمة إلى مائدة روسية[46]، يتداولون فيها إمكانية تقديم الفكر الأشعري والماتوريدي بديلا للخراب السابق المفضوح، تفضيلا لخراب جديد لم يفضح بعد.. وإن كانت الحضارة العربية الإنسانية تجاوزته في أوانه.. ولكنها الذاكرة القصيرة التي يعتمد عليها الدجالون في معاودة تمرير مكرهم.. **إذ إخلاء السبيل إلى الفكر الإنساني**

---

[46] - مؤتمر جروزني، الشيشان، 25 أوت 2016 برعاية بوتين وقديروف.

المعاصر، ليدلي بدلوه، ويقدم حلوله، يعتبر خط أحمر لا يجوز تحت أي عذر، الانتهاء إليه. ويجب استخدام كل الوسائل من أجل منعه، وقطع الطريق عنه بصرامة.. حتى بالرجوع لو لزم الأمر- بعد نفاذ الخدعة الأشعرية قريبا كما سابقاتها- إلى الطوائف المنبوذة إجماعا في تراثهم، بعدما يُكيِّفون لها " عَبْرَنَةً" مناسبة.[47]

---

[47] - يتنامى يوما بعد يوم فكر "وظيفي" مستخلص من اجتهادات د. محمد شحرور نتج عنه تيار واسع، وسيتلاشى قريبا بسبب تناقضات استراتيجية (غسيل داخلي بين ديانات البيت العبراني).

رؤية أخرى تؤكد بأننا كلنا إرهاب.. وليس من العلمية بمكان أن نعلّق هذا الوصف بمجموعات غِرّة من الأحداث، أعتبرهم آخر من يعلم في عرس دموي أول رعاته – بوعي أو بلا وعي - هم ما يسمى بالمسلمين المعتدلين.

ولتعقلها جيدا، نوضح نقطة مُقَدّمًا..

لم ينته الرشد الإنساني الحديث إلى فكرة تعدد الحقيقة عبثا، أو من فراغ.. ولا يضير ذلك في شيء لدى إشاعة تمثّلها بالمجال السياسي.. فالحقيقة محلّ بحث في المجال العلمي وليست محل تسييس.. أما في المجتمع، فالحقيقة انعكاس لأوضاع العلاقات الإنسانية اللانهائية، التي تعتبر مجالا خصبا لعملية التعرف الدائمة على الإنسان باعتباره لا يتوقف، كما الكون، عن الحركة.

يَحدثُ أن يأتي طاغية، يحشر أنفه في اختصاص العلم، ويرفع من فرضياته ما يوافق خطته الاستعبادية إلى مصاف الحقائق المغلقة المحسومة.. ويوحّد شعبه على مراقبتها.. لاغيا ما يحايثها من فرضيات أخرى، ومتهكِّمًا بما يكذبها من حقائق أخرى، ونافيا مسبّقا ما يستجدُّ بعدها.

وكذلك صنعت الديانات العبرانية.. ولكن بشكل أعمق.

فمن أجل قصف مسالة الحقائق المتعددة، عادت بالفكر البشري إلى مبحث الوجود.. خرجت به كلية عن الأرض أولا، ثم أخذت بتركيزه صوريا إلى حيث علة الوجود وواحديتها..

بعد أن حبكت الفكرة وأغلقت عليها القفل، عادت بالفكر البشري إلى الأرض "سليما معافى".. أي مغسول الدّماغ. ليجد نفسه منخرطا في عملية توحيد حقائق السياسة النسبية، وحقائق الاجتماع النسبية، وحقائق حتى الزينة النسبية.

فجميع الأشياء، كبيرها وصغيرها، لا بد وأن يكون فيها رأيا للواحد الأحد.. وذلك هو الحقيقة. وما عداها كذب ومحاربة لتلك الحقيقة الواحدة.

ولأن الإنسان على هذه الأرض، كان و لا يزال مهرجانا من الأشكال والألوان والأوضاع.. ولأنه عاد إلى الأرض "سليما معافى"..، فلابد لكل وضع من الأوضاع أن يدَّعي لنفسه حصرية الحقيقة.. وتلك الأوضاع لا تكذب في ادعاء الحقيقة، لأنها وضع سافر ليس محل تكذيب.. ولكنها تكذب في ادعاء الحصرية عن غير قصد تحت تأثير الواحدية الميتافيزيقية التي اقتحمت علينا عالمنا الأرضي بتدخل سافر غير آبه بسيادته الوضعية.

ينتج لدينا من هذا الكيد:

- نموذج أعلى للاقتداء في الواحدية الربوبية.. (تقليد الجلاد)
- فتن وحروب مؤبدة.. نظرا لتعدد الحقائق الواحدة، واللاغية لبعضها البعض.

ولندلف إلى رؤيتنا..،
أغلب التحليلات العاملة في مسألة الديمقراطية الجزائرية مثلا، تنطلق من الأسطوانة ثقيلة الإيقاع، مختلة النوتات، والتي جعلت من توقيف المسار الانتخابي سنة 1992 مَطلعا ورَوِيًّا بكلماتها، ولا نكاد نعثر إلا قليلا عن تحليلات تبدأ من توقيف المسار الديمقراطي، بل قتله، الذي حدث سنة 1989 بمجرد اعتمادنا لحزب من خارج العصر..

فهل بعد قتل مسار ديمقراطي في 1989 أي قبل أن يوفي سنة من عمره، يمكن الحديث عن توقيفه في 1992؟ هل نحن نطالع خبرا في الصحف يروي لنا قصة توقيف رضيع ميّت ومحاكمته ووضعه تحت المراقبة القضائية؟؟

قد نخطئ التقدير إذا اعتبرنا بأن لهذا التيار أو ذاك منزعا أصيلا في مجتمعنا قبل أن يكون متوافقا مع خياراتنا الراهنة وشروط لحظتنا التاريخية أم لا.. لأن التيارات الدينية جاءت وافدة علينا بعدما كدنا أن

نتماهى سوسيولوجيا مع العصر بعد النهضة من بداية القرن الماضي إلى عقد الستينيات..

جاءتنا من هناك.. من نكبات التاريخ.

تماهينا سوسيولوجيا مع العصر، وليس في العصر، لأننا على المستوى الفلسفي لم نحسم مع القضايا العقائدية واستأنسنا إلى كونها استحالت إلى تقاليد لا تشكل خطرا على الحياة، فتعمدنا عدم الخوض في جوهرها، إيثارا لخدر الوهم على قلق العلم، واحتراما لإيمان العجائز العزيز على أمهاتنا الطيبات البريئات.. ولكن أيضا تمسكا عصبيا بورقة هوية مميزة مقابل الغرب الاستعماري من جهة أخرى.. ذلك الغرب الذي تجاوز ورقته الاستعمارية القديمة واستبدل بها ورقة اقتصادية جديدة في الوقت الذي تركنا نراوح شاهرين ورقتنا القديمة في وجهه.. وبهذا بقيت مضغتنا العقائدية تربية أولى بمدارسنا، ومباركة عامة باجتماعنا، مما ثبّتها جذوة كامنة لدى كل منا باختلاف توجهاتنا وخياراتنا الإيديولوجية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، تحكم تفكيرنا وتبرمج سلوكنا.

لو لم يكن الأمر كذلك، لكان على الهجرة الوافدة علينا من عصر آخر أن تعرف بأنها لن تتحصل على جنسية العصر العربي المعاصر، ما لم تتقبل قواعده وقوانينه وتواضعه.

الخطأ القاصم هو أننا استأنسنا بمقولات الطفولة، وبدأنا نتعامل ب (لعل وعسى ولكن) مع مكاسبنا العلمانية التي كادت أن تنظمنا بالعصر، فارتددنا عنها، ثم أعطينا تلك الهجرة جميع الحقوق المدنية والسياسية، مع العلم المسبق بأنها تنكر الوطن وتلعن الإنسان.

ما قام به جنرالات الانقلاب على خدعة الصناديق البكماء، كان واجبا وطنيا..

وما أدت إليه عدم خبرة سابقة مع هكذا أحداث بعد ذلك، من انتهاك صارخ لحياة المواطنين وخصوصياتهم كان تربية مألوفة بمجتمعاتنا تعود إلى المضغة إياها، وليست مستوردة..

ثم ما أدت إليه عقيدتهم الدينية المغروسة بعمقهم – على علمانيتهم المزيّفة - من واحديّة قاهرة فوق الجميع، لا تطالها الأقدار، وهي تطال الأغيار، جعلتهم أربابا للجزائر يفتكون بالمعارضين الإسلاميين كيفما أملت عليهم تربيتهم الدينية الأولى الكامنة، والتي تقدس المعتقد (لا يهم بعد ذلك إذا نضجوا كبارا - في ديكور الحياة - على خيار علماني أو شيوعي أو ليبرالي أو غيره)، تقدّسه على حساب الإنسان..، كان كارثة إسلامية بكل المقاييس.

فهناك مستويات: واجب وطني.. عدم احترافية. تربية أولى متحكمة لم يحسم فيها فلسفيا.

والخلط بين هذه المستويات عمل مشبوه، فضلا عن كونه غير منطقي ولا يفيد في العبرة من التاريخ.

ذلك أن الطرف الآخر، ثوار الأرياف، نهجوا مسارا هم أيضا..

فما قام به ثوار الأرياف[48] من ثورة على شرعية نظامٍ أحَد، فرْدٍ صمَد، كان حقا وطنيّا للثوار وانتهازية للمؤطّرين.

ثم ما أدى إليه إيمانهم هم الآخرون بفردٍ صمَد، من انتهاك صارخ للمجال الخاص والعام على سواء حتى قبل سفورهم السياسي الأخير، أي منذ نهاية السبعينيات، كان استنساخا لجريمة أشد من الأصل.

نحن اليوم خرجنا من ذلك الدور، أو من تلك الأزمة كما يسمونها، أو تلك المأساة لا فرق، ولكننا لم نخرج من ذلك المنطق التوحيدي.. نحن اليوم نعيش دورا جديدا في تجسيد عقيدة الواحدية الصمدية وإحكام قبضتها على العبيد، ولكن مع فريق مختلف هذه المرة ليس إلا... وهذا الدور يعتبر استنساخا للأدوار السابقة بشكل أفظع، وهكذا..

فواضح هنا تعدد مستويات الضحية..

---

48 - وصف أطلقه الروائي الطاهر وطار على الثورة الاجتماعية في أكتوبر 1988. وهو مصطلح يسمّي ما حدث باسمه. ولمّا كانت الثقافة الدينية عاصفة في ذلك الوقت، آل التأطير إلى التيار الإسلامي بشكل طبيعي.

تصور ضحية تصور، والعكس أحيانا.. فسياسة ضحية سياسة أخرى، والعكس أحيانا.. وفريق ضحية فريق آخر... وفي الجملة، كلا التصورات والسياسات والفرقاء جميعا، ضحية تربية أولى أساسية ومعتقد ديني جامع نشئوا عليه ولم يستطيعوا التخلص منه.

والبشر منذ آلاف السنين، تعودوا على لعبة حروب الضحايا والعبيد فيما بينهم، يتبادلون أدوار الجلاد عبر أطوار من التاريخ تقصر أو تطول.. فيما يمكث الجلاد الحقيقي الدائم، مبدع اللعبة، ومكيّف الخطيئة الأصلية وغارسها في لاوعي الضحايا جميعا، يمكث غير بعيد يرقب حروب الجميع ضد الجميع في ابتسامة خبيثة ماكرة.

شاءت لنا ظروف التخلف أن نحلل الأوهام.. ونناقش الأوهام.. ونتصارع سياسيا على الأوهام، وتلتقي ونتواضع على الأوهام. وهذا على كل حال لا يقلل من علمية وواقعية ما نحن بصدده.. لأن الوهمية تتعلق بأصل الموضوع.. ثم أن الوهم الكبير إذا ترجم إلى الواقع أصبح عصابا جماعيا ودخل التاريخ.

مثال ذلك ما قدمنا بأول الفصل في صورته المعرفية..، و الجانب السياسي بالصورة هو أنه لا يكفي أن تكون أحاديث نبوية مثلا، مصنفة ضمن الأحاديث الضعيفة أو حتى الموضوعة لكي نبرئ ساحة

الدين و ساحتنا منها، و ننسى بأنها حتى و لو كانت بالفعل مكذوبة، كانت قد عملت عملها تاريخيا على امتداد أربعة عشر قرنا في تخريب فطرة المؤمنين بها، و هم سواد الأمة و ليسوا جماعة أو أقلية، و بالتالي صنعت أحداثا و صاغت عقولا و طبعت مجتمعات و أجيالا بمنطقها، و كان لها دورا تاريخيا أكبر مما صنفوه حديثا صحيحا..، و كثير منها نجم عنه كوارث، ليأتي المحرّفون الجدد، سدنة الإسلام الإشهاري في القرن الواحد و العشرون، و يقرروا بأنه لا علينا من كل تلك الكوارث، لأن هذا الحديث أو ذاك مكذوب و غير صحيح.

هكذا بكل برودة.. وكأن الأمر يتعلق بخلل تقني بسيط جدا، حدث للحظات فقط، في مطهرة وضوء وقفية، ولم يسبّب أية خسارة.

سؤالنا هنا..، التضحية بأحاديث مكونة من بضع كلمات، عملية سهلة..

فهل هؤلاء المحرفون الجدد لهم الشجاعة الأدبية ليضحوا بالتبعات السياسية والاجتماعية والفكرية لأحاديث كثيرة، انقلبوا عليها اليوم، والتي صاغت عقائد ومواقف للمسلمين من أنفسهم وإزاء غيرهم طوال أربعة عشر قرن؟؟

لا يريدون ذلك مع الأسف.. لأن ذلك معناه إخضاع التراث، كل التراث، والتاريخ الإسلامي، كل التاريخ إلى مشارح العلم الحديث،

وإلى المساءلة.. وإلى العودة الجماعية من ردّة الدين إلى رحاب الإنسان.. وإلى تعويض المتضررين أيضا ولو بالاعتراف بأخطائنا المقدسة...

لا يريدون ذلك.. لأن ذلك معناه أيضا، إعادة النظر في منظوماتنا التربوية وإحداث ثورة بمعنى الكلمة بمناهجنا في المدارس والجامعات.

لا يريدون ذلك، لان ذلك معناه صحوة ضمير، وربيع إنساني باهر يعم مجتمعاتنا، ويجعل الناس يخرجون من قبضة الحكام والكهان أفواجا.

ولذلك نفضل التعتيم والتعمية.. وهذا التعتيم.. يجعل من المسلمين، كل المسلمين إرهابا... ظاهرا ومستترا.. لأن الحسم على مستوى الوعي في مسلماتنا لا نريده الآن.. وهذا حقنا وخيارنا على كل حال.. ولكن أخشى أن نأتي على زمن يريده لنا غيرنا بالاستعباد أو بالنسف من الوجود.

قال الأزهر بعد الزوبعة التي أثيرت حول برامجه ومقرراته "العلمية" بأنه لا علينا من كل تلك الكوارث التي أماط اللثام عنها عدد

من الذين ليس لهم " أدوات" الفهم في الدين.. والسبب هو أن فريقا جليلا من أصحاب الفضيلة قام بتغيير المناهج و الحمد لله كل شيء أصبح على ما يرام الآن.

وبيني وبينك..، واحسب أننا في حوار إسلامي/إسلامي مغلق.. فلا يوجد بيننا "صهيو-صليبو-شيوعي" حاقد..، هل فعلا مشكلة ديننا هي مناهج؟؟ ثم هل بإمكان مشايخ الأزهر أن يبدعوا وحيا جديدا؟؟

والعجيب أن أصحاب الفضيلة، يفترض على أدنى واجبات اللياقة والأدب أن يشكروا المناضلين المدققين في تراثنا. لا أفهم حتى اللحظة لماذا غيروا "المناهج" – إذا غيروها فعلا، على افتراض أن هناك مناهج من الأصل- وأقاموا في نفس الوقت حملة تشهير وتفتيش وتخوين وتكفير لجميع من نبههم إلى ذلك..

وهذا سلوك إسلامي بامتياز...

ينظرون إلى تحليلات الكتاب والمفكرين حول الإسلام، يتدارسونها، يأخذون منها كل العبرة، ويفيدون منها عظيما في " تغيير" أساليبهم في التغرير وإعادة حبكها بما يتلاءم مع العصر، ثم ينطلقون من جديد في سب أولئك الكتاب والمفكرين (الذين لم يكن جرمهم سوى أنهم نبّهوهم) بدعوى أنهم "يجهلون" على الدين، ويحاربون الإسلام، ويتقاضون من الموساد!

كان هذا ديدنهم منذ التهم العبرانية الأولى التي لحقت بالمصلح عيسى المسيح، عندما لم يمنع ذلك اليهود من استغلال التنبيهات الإنسانية التي أثارها الرجل على ديانتهم، وتدليس ديانة جديدة تأسيسا على تلك التنبيهات، تعتمد الأخلاق بدل الإرهاب... "قتلوا" الرجل، واستعملوا بضاعته.. ولذلك سرعان ما عادت كنيستهم بعد ذلك إلى التجهيل والإرهاب، واستمرأته لمدة عشرة قرون.

فليس من السهل كما نلاحظ، معالجة سرطان يسرى منذ أربعة آلاف سنة.. ولكن ليس أمامنا وليس بمقدورنا إلا القراءة غير المرتزقة، والتحليل غير المؤلف قلبه.. فعلى هذه الأرض ما يستحق الحياة.. إذا لم تكن لشعوبنا المغرر بها، فأطفالنا.. لا يمكن القبول بجريان هذا الكابوس العبراني على أجيالنا القادمة أيضا.

حديث الراعي والرعية

شر الملوك من خافه البريء...

الحكيم العربي أكثم بن صيفي

موضة هذه الأيام، أنه لا تيوقراطية في الإسلام...

وذلك خلط على المباشر...

والأصل في الحكاية.. أننا منذ صحونا على تخلفنا، ونحن نلوك عبارة ممجوجة أكل عليها الصدأ وأخصب، تقول إن هناك صراعا خاصا نشأ في الغرب بين الكنيسة والإقطاع في طرف، وبين المجتمع في طرف مقابل. أنجب هذا التناقض جملة من المفاهيم والاتجاهات من بينها المواطنة، المجتمع المدني والعلمانية.. وأن هذا الصراع الذي حدث في الغرب لم يحدث عندنا.

كذا.

وبهذا سلمت أعرافنا وتقاليدنا وجميع رعوناتنا الثقافية والعقائدية من المساءلة. مما سمح بإجراء الديكور المدني فيما بعد، طلاء فوقيا على جميع قابلياتنا للاستعمار.

ومن زاوية نظر أخرى وقعنا في خطر الحرمان المنهجي والمفصلي من استفادتنا من أعرافنا الحية، والتي أخذت في تبلورها مدا وجزرا بفعل تناقضها المفتوح – غير المغيب أو المتكتم عليه[49]-

[49] - مع الدول الوطنية بعد استقلال الشعوب العربية، بقي ذلك التناقض كما أوضحنا ولكن لم يكن محبّذا إبرازه أو حتى الهمس به، تغليبا للآمال الجديدة، وثقة مفرطة في المستقبل.

مع الاستعمار ثراء نوعيا يفسر الجانب الأكبر من الحركة الفكرية والسياسية التي عرفها العالم العربي بداية القرن الماضي.

توقف ذلك التبلور والتطور الطبيعي لأعرافنا بعد التحرر العام للشعوب،

ولأن الفُلك تجري على كل حال، سارت بنا الرياح على صعيدين:

- على مستوى المؤسسة السياسية المفارقة قمنا باستيراد قطع غيار من هناك، وركبنا منها اشتراكية عربية تؤمن بنهاية التاريخ، وبتمام النعمة في حدود سقف الكرملين.. كما تملي بذلك أية براديغما دينية وثوقية.. ومجتمع مدني عضوي مدمج فيها، ألحقنا به مجتمعا مدنيا لجوئيا فيما بعد.
- على مستوى المؤسسة الدينية قمنا باستجلاب قطع غيار من هناك أيضا، وركبنا منها حقوق إنسان إسلامية وعلم تنظيمات إسلامي وعلم اجتماع إسلامي وفقه دستوري إسلامي... الخ، هكذا بالسطو على حقوق التأليف والإبداع، ثم سب المبدعين أيضا.

طبعا لا إشكال مع مسألة السطو ثم السب هذه.. فعقوبة السطو والسب لا تقع بصرامتها المعيارية على قاصر.

الإشكال الموضوعي هنا هو مضاعفة غربة أعرافنا ومجتمعنا... فنحن لم نسائلها ولم ننطلق منها.. بل انطلقنا من شبه نماذج لأعراف جاهزة في التاريخ، إن لم تكن في كتب التاريخ المكيف وفقط، أضفيناها على قطع غيار من جغرافيا أخرى، بل ومن عصر آخر أيضا إذا أخذنا في الحسبان البعد المعرفي الذي يفصل بيننا وبين الغرب.

في هذه الحالة سوف تطبع هذه الغربة سلوك الأنظمة إزاء المجتمع في جميع مشاريعها.. ونقصد بالأنظمة هنا:

- الأنظمة المالكة لحق العنف المشروع.. السلطة السياسية مثلا.
- والأنظمة المالكة لحق التبكيت الشرعي.. المؤسسات الدينية مثلا.

وهما معا، إقطاعا وكنيسة، غريبان عن المجتمع كما أوضحنا.

فهل لا نزال بإمكاننا تصديق مقولة أن ما حصل في الغرب من تناقض بين الكنيسة وبين المجتمع لم يحصل عندنا؟

هذه واحدة تجعلنا نحسبُ بأنّا غير جادين في دعوى لا تيوقراطيةَ في الإسلام..

فلنتقدم قليلا في التحليل..

التيوقراطية في ماهيتها وفي مفهومها العام تعني إرجاع السيادة وأصل السلطة إلى الله.. وفي هذا يتساوى الإسلام مع الديانتين السابقتين.

ثم تتدرج عن المفهوم العام هذا ثلاثة أنواع من التطبيقات التاريخية للتيوقراطية:

- الطبيعة الإلهية للحاكم..
- الحق الإلهي المباشر..
- الحق الإلهي غير المباشر.

هذه الأنواع الثلاثة سادت جميعا قبل الإسلام وظل النوعين الأخيرين بعد ظهوره أيضا لبضعة قرون.. وللوهلة الأولى، يتهيأ لنا بأن الإسلام يتميز عن تلك الأصناف الثلاثة.

ولكن إذا فرزنا المفاهيم، لنرى ما وراء هذه التصنيفات البروتوكولية الشكلية، من ملموس وواقعي بنهاية الأمر.. ماذا نجد؟

جميعها بالنهاية، تعني شيئا واحدا هو إرجاع السيادة وأصل السلطة إلى الله.. فنعود إلى معانقة مفهومنا الأول العام الذي لا يخرج عنه الإسلام.. وهكذا نعاين الإسلام مرة أخرى في الحظيرة التيوقراطية.

فالأصناف الثلاثة ليست ماهية للتيوقراطية، حتى إذا ما أخطأها الإسلام خرج عن التيوقراطية. ولكنها تطبيقات تاريخية للتيوقراطية رسمتها سياقات تاريخية مغايرة عن السياق الإسلامي.

أما الإسلام، وباعتباره مرحلة متقدمة من الحبكة العبرانية، فله سياقه الخاص الذي يحدد له تطبيقه التاريخي الخاص للتيوقراطية هو أيضا.

إن الأمويين، بعد أن تخلوا عن النظرية التيوقراطية في الحكم، والتي كرّسها الإسلام الأوّل، بجعل الخلافة على طراز الإمبراطوريات الزمنية، لجأ الفكر الديني إلى تهيئة تيوقراطية أشد من الأولى، فقد أصبح مبدأ الخلافة يقوم على سيطرة الدين على رجال الحكم بعد أن كانت التيوقراطية - في تطبيقها المسيحي بالعصر الوسيط **والعصر الإسلامي الأول**، تقوم على سيطرة رجال الأديان على الحكم.

فهناك إذن:

- **تيوقراطية ما قبل إسلامية**.. (سيطرة رجال الدين، أو تحالف الإقطاع أو السلطة الزمنية، مع رجال الدين على الحكم) عرفتها المسيحية، إلى ثورات العصر الحديث.. وعرفها أيضا العصر

الإسلامي الأول إلى ما يسمى عام الجماعة... ففي هذه المرحلة، لم يجد الإسلام له نظرية خالصة بعد في الشأن السياسي للحكم وسار امتدادا على ما كان عليه التطبيق الثالث بالمجتمعات الدينية قبله..

- **امبراطورية عربية**.. (سيطرة رجال "الدنيا" على الحكم) عرفها المسلمون منذ تولي معاوية إلى سقوط الحضارة العربية الإنسانية.

- **تيوقراطية إسلامية خالصة**.. (سيطرة الدين على رجال الحكم).. عرفها المسلمون منذ سقوط الحضارة العربية الإنسانية إلى اليوم.

فقد يؤكد لك رجل الدين في هذا المرحلة المتطورة جدا في التدليس، بأنه ليس واسطة إلى السماء..

ويؤكد لك الحاكم بأنه ليس ظلا للسماء..

ولكنهما خاضعين معا إلى منظومة عبرانية، هي الظل، وهي الواسطة، وهي المدد معا.

فلا انتفاء هنا، لا للظل ولا للواسطة.. ولكن تسريح لهما بعد الشكر على المجهود، لضرورة المرحلة الجديدة التي تتطلب استبدال أساليب جديدة بها.. تمكينا للدين فوق الأفراد وفوق المؤسسات.. كي

لا تطاله رماح بعد اليوم، ولا يَرِفُ عليه سؤال، ويعلو فوق كل اختبار.

لقد كان قبل ذلك، يحدثُ أن تثور الشعوب على حكامها فتطالُ الرِّماحُ بعض الدّين أو كلّه. لأن الحكام يشتملون بالمفهوم الثيوقراطي ما قبل الإسلامي، على بعضِه أو كلِّه.

أما مع التيوقراطية الإسلامية، فلا يطال الدينَ شيء من خطر تقلّبات السياسة. والمُدان دائما وأبدا سيكون، إما الحاكم الذي لم يحسن تطبيق شرع الله، أو الكاهن الذي لم يحسن تفسير شرع الله.. أو الشعوب "الظلومة الجهولة" التي لم تنقد إلى شرع الله.. وبهذا ضمنت هذه التيوقراطية الإسلامية الخالصة لنفسها تأبيدا رهيبا عبر العصور، ولا زلنا ننعم تحت حرها الصاقع إلى اليوم.

فهذا ما أسميه، تطور الدهاء العبراني مع الزمان والمكان.. وهو ما يسميه غيري، صلاحية الدين لكل زمان ومكان..

وللحقيقة..، لا أجد في نفسي أية معارضة للتسمية الأخيرة.

لقد أخذ الإسلام شيئا من الوقت ليبلور نظريته الخاصة عن الحكم الثيوقراطي يحكم قبضتها على الواقع بعدما أضحت التيوقراطية التقليدية غير مناسبة للوعي البشري الجديد.. فمن منا يتقبل اليوم فكرة

إله في صورة حاكم، أو حاكم في نصف إله أو في ربعه، أو أن يُسيِّر الأزهر أو القرويين شؤون السياسة؟ فالتيوقراطية الإسلامية تحررت نهائيا من العبء المباشر لمسؤولية الحكم والحياة معا كما كان الحال في التيوقراطية التقليدية البسيطة.. وتجردت حاكما "روحيا" أعلى فوق الأفراد، بحكامهم وكهنتهم.. وفوق المؤسسات، دولا وممالك.. شاهرة وعيدها وموزِّعة لعناتها..

لقد انفرد الدين بالسيطرة شيئا فشيئا، بانتحال اجتهاد الإنسان، على العلوم العقلية والإنسانية.. وألغى فيها ما يريد، ليجعله كفيلا بتوجيه الحكام والرعايا معا. وبهذا أصبح بإمكانه تحقيق ما كانت ترمي إليه الخطة العبرانية منذ بدايتها، وهي نسبة الأخطاء للإنسان ونسبة النجاح للأديان، ليبقى الإنسان، حكاما وكهنة ومحكومين، في دوامة تبكيت وشعور بالتقصير والعجز والذنب والهواجس تمنعه من الانطلاق بفسيح الحياة.

فلحسن الحظ إذن، أن الخلفاء الأمويين، والعباسيين بعدهم بنسبة أقل بكثير، حافظوا على مسافة بينهم وبين رجال الدين.. والعلماء والفلاسفة في الحضارة العربية الإنسانية حافظوا على مسافة بينهم وبين الدين..، وإلا كان الحكم في عهدهم سقط في التيوقراطية الإسلامية الخالصة هذه، ولكن الخطر لم يكن مستبعدا تماما عن العالم

الإسلامي الذي استبطن هذا النوع من التفكير في علاقة الحكم بالدين بحكم تحقق الوجود بالقوة – أي الوجود الكامن- للثقافة العبرانية.. ثقافة أرادها حكام تلك الفترة ديكورا دينيا لإمبراطوريتهم على شاكلة عصرهم، ولكنها استحالت فيما بعد إلى سم قاتل.. حيث بقيت تتعاظم - على غفلة من الحكام وغفلة من العلماء- في عقول الناس إلى أن أصبح الدين بالفعل يسيطر على الحكم سيطرة كاملة منذ الدور الثاني بالعصر العباسي وبداية الإرهاصات لانحطاط الحضارة الإنسانية العربية ودخولنا في العصر الإسلامي الثاني.

فهذه إذن تيوقراطية إسلامية خالصة أنقذت الحكم الثيوقراطي من جديد، وبعثته في أشد من شوكته التقليدية التي عرفتها المسيحية قديما.. وأشاعته في العالم بعد أن قضت عليه الحضارة العربية الإنسانية.

ونحن لا نزال إلى اليوم ننعم في ظل هذه التيوقراطية البهيجة، التي يستحيل معها مطلقا أن نعرف لنا طريقا إلى تكريس المواطنة بمفهومها الإنساني الحديث.

لنحلل المسالة علنا نتبين مخرجا..

جرى في أدبياتنا السياسية تداول فكرة قصور المعنى اللغوي في العربية عن احتواء معنى المواطن بمفهومه الغربي المنحدر من أصول لاتينية وإغريقية. والذي يعني الفرد المشارك في الشأن العام. ولا أجد مسوغا وجيها لهذه الفكرة. ففي القاموس المحيط وفي الصحاح أيضا: واطنه أي وافقه. وبهذا المعنى، المواطن هو الموافق والمواطنة هي الموافقة في مدلولها العربي اللغوي الوضعي. ألا يمكن لنا اشتقاق مدلول اصطلاحي من هذا المعنى؟ في تقديري، بلا.

فالمواطنة هي تواضع الأفراد على الانسجام في منظومة علاقات تنظيمية ميسرة لتجشم أدوار وتداول وممارسة الشأن العام فيما بينهم. وهذا جوهر الموافقة والوفاق السياسيين.

فمفهوم الوفاق والتواضع السياسي، إذا حاولنا إسقاطه على شعوبنا في الماضي، يمكن استشفافه من المشاعر التي تربط الفرد بقبيلته، لنجد بأن المواطنة انتماء لقبيلة وليس لمدينة.. يعود هذا الى طبيعة الثقافة البدوية المتسمة بالترحال وتتبع الماء والكلأ.

وفي مقابل تعريفنا للمواطنة الحديثة أعلاه، نجد بأن مواطنة القبيلة هي تواتر ثقيل ومعقد من المشاعر والأماني والآلام والآمال

المشتركة، انتظمت في شكل استجابات عفوية أولا ثم واعية إزاء نظام الحياة، تحددت بها أعراف وقيم يحترمها الجميع.

والإجماع في هذا هو أن الفرق بين المواطنة الحديثة ومواطنة القبيلة هو انتفاء المكان القار مع هذه الأخيرة ليس إلا.، وما يترتب عن ذلك من جزئيات تنظيمية ومن دقة وتركيب وتعقيد تقتضيها الحياة الحضرية.

واعتقادي أن مواطنة القبيلة التي تميزنا، أكثر قابلية من نظيرتها للتكيف مع المواطنة العالمية منتهى آمال الحقوقيين بهذا العصر. وذلك لاشتراك المواطنتين في انبثاقهما عن عنصر الإنسان بنسبة أكبر من عنصر المكان. فنحن لا نجد غضاضة في إعطاء نفس تعريف مواطنة القبيلة أعلاه إلى المواطنة العالمية بإضافة سحبه على الناس جميعا.

ودخولنا بهذا التقديم عن مفهوم المواطنة، هو احتراز من الرأي القائل بأن طبيعة اجتماعنا قبلية، ولا تصلح للمواطنة بالمفهوم المعاصر.

فالقول بعدم قابلية القبيلة للمواطنة بمفهومها الحديث مطلقا، خطأ.. أما من يرى ذلك بسبب أرضيتها الثقافية المؤسسة على

الغيبيات، فله الجانب الرئيس من الصواب. وهو سبب غير طبيعي، سياقي طارئ على الفطرة البشرية التطورية وإن طال وامتد على آلاف السنين، ويمكن التخلص منه.

والاشتغال على ترقية المواطن في بلداننا يمر حصرا وأولا من باب تجميد أو تجفيف منابع ثقافتنا في أساسها الغيبي وإعادة بعثها على أساس وضعي.

إن الإيمان بالغيب يوقف التفكير ويبطل الإبداع على أساس أنّ الأمور محسومة أزلا.. أمّا التفكير وضعيّا، فيحفِّز الإبداع ويشغّل العقل.

ولا يفوتني هنا توجيه القارئ الكريم إلى مشروع الدكتور حسن حنفي الذي يعتبر عملا متفردا وبداية موفّقة في هذا المضمار.. ويسوئني كثيرا ألا أرى كبير أثر لتداوله في مواقع التواصل، كما يتداولون سفاسف ومهاترات الشيعة والسنة، وتعالُميات السلفية والصوفية، وقُنْفُذِيات التعريب والتغريب، وذِئبيات الإخوان والمصالح.

في الجانب السياسي، محاولاتنا المعاصرة في تكريس المواطنة ليست جدية.. فمنذ الطعنة الأولى في ظهر حقوق الإنسان التي دشنت عصر النخاسة ونحن نراوح في هذا العصر إلى اليوم.. المؤشر الرئيس الذي يدعنا نتبين هذا بوضوح هو مضمون ثوراتنا منذ بداية جدلنا مع العصر الحديث.. لا توجد ثورة تتعلق مضمونا وأساسا بالإنسان المواطن.

فالثورة النجدية الأولى (1744)، الوهابية، قامت من أجل محاربة ثقافة محلية (مظاهر الشعوذة) لصالح العقيدة التاريخية (توحيد القطيع) التي أنتجتها.. وليس لصالح الإنسان المواطن.

والثورة العربية الأولى (1916) قامت من أجل استعادة الخلافة من بني عثمان إلى قبيلة قريش.

والثورات الفكرية والثقافية بعدها قامت من أجل اللحاق بالغرب.

ثم الثورات التحررية من الاستعمار قامت من أجل الأوطان.

ثم الثورات التنموية للأنظمة الوطنية بعدها قامت من أجل الايدولوجيا الشمولية.. الابنة الشرعية للدين.

ثم جاءت بعدها ثورات الصحوة من أجل الدين. أي سئمنا من البنت، وعدنا إلى معانقة أمها.

وأخيرا ثورات الربيع..، صرخة مدوية في وجه فشل تراكمي للثورات السابقة استحالت إلى قنبلة هوجاء نحن الآن ومنذ سبع عجاف، نتابع فيها عبقرية شعوبنا التي تقاوم في صمت وصلابة أشباح الماضي وغيلان الحاضر.

هذا باختصار... ونقوله بأسف.. وكل قلوبنا دعاء سافر إلى الوطن الكبير.

كل الثورات السابقة، وعلى افتراض أنها حققت أهدافها كاملة فإنها ليست متعدية بالضرورة إلى المواطن.

فقد يعود القطيع إلى الحظيرة، وتنهب آلاف الرعايا في أعراضهم وأرزاقهم وتزهق أرواحهم ظلما بدعوى محاربة الشرك.

وقد تعود الخلافة إلى قريش ويضيع حق المواطن الفلسطيني فرق عملة بين المساومات.

وقد تلحق نخبنا بالغرب، ويستحيل المواطن إلى جموع مدجنة من المخلوقات.. تصلح بامتياز فرجة عجائبية للسائحين.

وقد نحرر الأوطان، ونأكل أبناءنا.

وقد نحقق تنمية، ونقمع الحريات.

وقد نقيم دينا، وهذا وحده يكفي...

فما لم نقم بثورة، سؤالها الإنسان وحقل اشتغالها الإنسان، وغايتها الإنسان، لا يمكن الحديث عن ترقية مواطنة ولا عن مجتمع مدني ولا هم يرقصون.

ومثل هذه الثورات لا ولن نرجو لها أن تقوم على العنف، لأن الآليات النفسية، بل وحتى الديكور النفسي لعنفنا مهما كانت أهدافه تقدمية، إلا أنه لا يزال ينمو ويستقي طبيعته ولونه وخصائصه من تراثنا الرجعي.

كما أن مثل تلك الثورات التي نعنيها، لا تحدث ضد الآخر، ولكنها تحدث في الذات.. مراجعات صارمة وغير متسامحة مع الموروث الذي لا يزال يوجّهنا، مع المنشطات الغيبية الغبية التي لا تزال تطعمنا بقوة وتفرد وهميين من بين باقي العالم. تليها مساءلات في واقع المواطن وشروطه الاجتماعية والسياسية، ومدى تحقيق الانعتاق الكلي بما أمكن، بمطلق إرادته وحريته من طاقاته ومخزونه الحيوي، ومن داخل أطره المجتمعية، وأبنيته المحلية مجرى الحياة العامة، وتفاعل ذلك أو عدمه مع حجم التأثير الرجعي العائد على وضعه الشخصي ورضاه وتوازنه.

ثوراتنا الفكرية والشعبية الحقيقية بدأت مع بداية القرن الماضي في أنساقنا القبلية وبنانا الفكرية المحلية وامتدت على طول القرن

العشرين إلى التحرر السياسي، حيث تركت مكانها إلى الديمقراطية الجماهيرية الشمولية والغوغائية الوطنية الصاخبة، الأشد صلفا وخطرا من شمولية النسق الاجتماعي المحلي في تأليه مصلحة "أهداف الثورة" على حساب الحقوق والحريات باسم الحقوق والحريات..

ولأن الميديا التقليدية المتحكم فيها لم تعد المصدر الوحيد للخبر وللرأي، وصلنا إلى ثورات من أجل الإنسان مطلع العقد الثاني من هذا القرن، غير أن الأنظمة التوحيدية متمكنة ومتضامنة ليس على مستوى السلطة فقط، ولكن أيضا على مستوى المؤسسة الصامتة التي تصنع الإجماع، والتي تستغرق وتغرق سوادا كبيرا من شعوبنا. ولذلك سهل اختطاف الثورات في كل بلد. والتاريخ يعيد نفسه باستمرار عندنا ما لم نجتاز الحاجز المعرفي وندخل العصر.

فقبلها بقرون لدى اكتمال الرشد العربي الأول، وازدهار الثقافة والتجارة بالحجاز، واختمار فكرة الأمة لدى العرب كإطار سياسي فوق-عشائري جامع نتيجة جدلهم المتزايد مع أطراف الشام والعراق، وعلاقاتهم مع الروم وفارس، وبالموازاة، ما حدث من نضج المسحة الإنسانية، التي أضفاها الحكماء العرب، قبل أن يقفز بانتهازية وقحة

بحيرى الراهب وورقة بن نوفل ومسلمة الحنفي والأسود العنسي ومن شاكلهم على الخط.

حيث بمكر هؤلاء، وعلى اختلاف بينهم، كان الدين متربصا لاختطاف تلك الإرادة الجبارة الناهد إلى المستقبل، وسرقة ثمرة تلك الثورة الناعمة التي يعود اختمارها اجتماعيا، ثقافيا وسياسيا وإنسانيا منذ انهيار سد مأرب وعلى مدى القرنين الخامس والسادس، ومن ثمة توجيهها إلى وثوقية شمولية عنصرية إقصائية لم يخفف من خطرها قليلا إلا حكمة الأمويين الذين كانت لا تزال فيهم "جاهلية".. ولم يقض على عُنصريّتها إلا العباسيون الذين انفتحوا على العالم وثقافاته.. ولم يبدّد عقائدها السادية إلا التصوف الفلسفي المحلّق فوق الأديان وفوق الثقافات المحلية..

كاد التصوف الفلسفي أن يدخلنا في عصر أنوار حقيقي كامل، غير مبتور كذلك الذي حدث في الغرب، لولا أن فترة ظهوره لم تتسع إلى عملية الانتقال من حقائق التجريد إلى ظواهر التاريخ، وبقي معينه في دوائر نخبة الفلاسفة الذين حوربوا ولم يتمكنوا من إنقاذ أنفسهم وحياتهم الشخصية بله أفكارهم وتطلعاتهم الوجودية التي لم تختمر سياسيا فتتحول إلى تطلعات حضارية.

والتصوف الفلسفي هنا لا علاقة له بما نسميه تصوفا بديلا للوهابية بزمننا الراهن.. فالتصوف الفلسفي كان بذرة إنسانية خالصة في فكر فلاسفة الثقافة العربية، تعلقت أطروحاته - إذا ما عفونا عن تقييدات التصوّر المتاح ولغة الإيمان والعبادة اللا متفكر بغيرها آنئذ-.، تعلقت بعبثية الأديان وحقيقة كونها حاجزا منيعا عن العلم لِنَقْلِيَّتِها (وكانوا يحدسون)، وعن الإدراك لِغَيْبِيَّتِها (وكانوا يشهدون)، وعن المطلق لتراتُبيّة ثُنائيّتها الوجوديّة (وكانوا يتماهون). وكانت هذه الأطروحات واعدة بمقاييس زمنهم العلمي.. ولو صبر عنها المكر العبراني قليلا، لما تعثرت في عالم الروحيات، ولكانت خرجت منه كقوالب فكرية متنامية بخصائص جديدة عبر المسافة الواصلة، من مجال الأفئدة إلى مجال المجتمع.. ثم كطرائق تفسير مُتحوَّلة أيضا بخصائص جديدة تناسب الحقل الجديد عبر المسافة الواصلة، من مجال المجتمع إلى مجال البحث العلمي.. ولكان أسلمنا حدسهم – طبعا بعد مراحل- إلى فرضيّات فنظريّات..، وشهودهم إلى العلوم التجريبية..، وتماهيهم إلى ... إرهاصات ما يسلم إلى نظرية الكم.

نعم عزيزي القارئ.. لولا المكر العبراني الذي حارب ما يعرف في تراثنا بالزنادقة والملحدين والباطنية، وحتى الخوارج والمعتزلة الذين أُلحقوا بوصفهم، لكنا عرفنا الأنوار قبل الأنوار.. ولعل تمعنا

جديدا في فلسفتهم - على تجاوزنا لها - يُحَدِّثُنا طويلا عن ذلك الضرب من التصوف الإنساني الذي لم يكن دينيّا إلا بما تضفيه عليه ثقافة عصره، لَبُوسًا ظاهرا في الصور والمفردات والطقوس.

... بدأنا إذن مع انتقال عربي وشيك إلى دور حضاري جديد..

قفز الدين على الخط وانتهز الفرصة باقتطاعه الثمرة، ثم وجهها إلى وثوقية عنصرية دينية إقصائية طيلة ما يسمى العهد الراشدي، وهو العصر الإسلامي الأول.

فالإسلام لم يكن سوى غزوا ثقافيا عبرانيا للفطرة العربية.. واصطحابا فتحريفا للرشد العربي الذي بلغ أوجه مطلع القرن السابع.. واستخداما مشوّها لنباهة البديهة العربية، ولفضائل الشخصية العربية، ولإمكانيات اللغة العربية.

ثم الإسلام بعد ذلك، وبعد أن حوّل العرب مع الأسف إلى أعراب غفاريين، أي بعد أن نمّط القبائل جميعا على طراز قبيلة غفار التي اشتهرت أكثر من غيرها بقطع الطريق..، لم يكن سوى غزوا عبرانيا للشعوب العربية والإسرائيلية والقبطية والكردية والأمازيغية والإسبانية والتركية بالعهد الإسلامي الأول (الراشدي وبقايا روحه

في العهد الأموي)، واصطحابا فتحريفا وتشويها لحضاراتها بالعهد الإسلامي الثاني (عصر الضعف)، ثم تبنيها إيهاما بإبداعها ابتداء بالعهد الإسلامي الثالث (عصرنا الإسلامي الإشهاري هذا).

أما ما وقع من أحداث تبدو وكأن الإسلام يعارض العبرانيات السابقة له، فذلك لان النسخة المستحدثة لا يمكنها الانتشار إلا إذا جبت ما قبلها. ولا تتمتع بالقبول إلا إذا أضافت إليها ما أضافه العصر من معطيات جديدة في المعارف خصوصا.. ولا يمكنها التقدم إلا إذا استفادت من أخطاء ما قبلها واتخذتها ذريعة لتشويه وتجريم " العهدة السابقة ".. والتعارض هنا شعر به الإسلام في مسألة من يمثل "السماء"، أما سماؤهم فواحدة، ودينهم واحد.. ولذلك كانت تصفية اليهودية من الحجاز تصفية عصبية نتنة كما وردت في مصادرنا الإسلامية .

فتقتيل وتهجير بني النضير وبني قينقاع، وكذا إبادة بني قريظة لا يمكن أن تكون لها إلا دلالة واحدة، هي أن مشكلة الإسلام مع يهود يثرب كانت:

عصبية.. أي: من ينتحل تمثيل "السماء". ولم تكن إيديولوجية.. أي: كيف نجسد مسرحية تمثيل "السماء".

يضاف مشكلة أخرى للإسلام مع اليهود.. هي أن يهود الحجاز بذلك الزمن، لم يكونوا دينيين، ولو كانوا بالفعل دينيين، لما فاتهم الإسلام ولا غفار ولا الأوس ولا الخزرج، إلى افتراش بنات، أو إلى عقال زكاة... لقد نفضوا عنهم أرومة الفكر العبراني الدخيل على فطرتهم منذ زمن، واستأنفوا حياتهم بطقوسه تدينا اجتماعيا وفقط.. فكانوا بذلك أقرب إلى قريش والقبائل العربية الأخرى بالحجاز التي أحالت دياناتها الوثنية إلى طقوس خادمة للاقتصاد والثقافة والسياحة..، يساهمون جميعا في بناء استقرار حضري وتجارة مزدهرة وحياة عربية كريمة بالمنطقة، تمهيدا وتشكلا جنينيا لدولة عربية واعدة على شاكلة إمبراطوريات وحضارات معاصريهم.

وإطلاق وصف العبرانية على الإسلام ليس بدعا، فهو بالفعل، الحلقة الثالثة والأخيرة في الديانات العبرانية الثلاثة.. بل أكثر من ذلك؛ نجد أن:

- المجتمعات من خلفية مسيحية، تخلصت في كثير من ثقافتها العبرانية.. ولذلك دخلت المعاصرة والتمدن الحديث..[50]

---

[50] - وصلنا اليوم – مع الأسف - إلى ما حذرنا منه من بوادر هجوم محتمل للعصر الوسيط على أوروبا وأمريكا. ودعك من حكاية التطوّر التكنولوجي الخاص بأدوات الإنسان وليس بالإنسان. وتذكّر دائما بأنّ انتقال المحارب، فقط من السيف إلى الرّصاص، أفقد البشرية نصف بصيرتها.

- والمجتمعات من خلفية يهودية، تخلصت هي أيضا من عبرانيتها التقليدية. ولولا ذلك ما كان بمقدورها الدخول إلى العصر مع فرض حضورها العلمي بمختلف الميادين.[51]
- إلا المجتمعات بالخلفية الإسلامية..، فإنها بقيت وفيّة إلى عبرانيتها، ولذلك صادفت توافقا مع العصر الوسيط المطل على الغرب، والمنبعث من جديد في العبرانية التوحيدية الدولية الجديدة التي أصبحت توظفها في سياساتها الدولية "الخلاقة".

وتسمية الحضارة الإنسانية التي أشرقت بعالمنا من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر بالعربية ليس تمييزا للعرب، وإنما لأنها كانت ناطقة بالعربية، ولأن الشعوب المحتلة خدمتها وفتحت بها مجالات العلوم والطب والهندسة وغير ذلك.. ثم لأنها كانت حضارة أدب وفلسفة بالدرجة الأولى، وجب وصفها توخّيا، بما يقوم بذلك عادة، وهو اللسان أو اللغة .

---

51 - نأتي اليوم – مع الأسف – إلى معاينة المحذور منه. التعبئة الدينية المتنامية في المجتمع الإسرائيلي منذ حرب 1967 والمتسارعة منذ استيلاء اليمين العبراني 2022 على الحكم.
وبطبيعة الحال مرّة أخرى، وكالعادة، ستكون هذه فرصة لعبرانيّينا في العالم العربي، للهجوم على مبادئ حقوق الإنسان والقانون الدولي والعلمانية وجميع مكاسب عصرنا، وإلحاق كلّ الكوارث التي حلّت بالشعب الفلسطيني بها. وهي حيلة من اجل التغطية على المجرم الحقيقي (العملة العبرانيّة ذات الوجهين: وجه يهودي ووجه إسلامي) الذي أوصلنا إلى هذا، ومن أجل صرف أنظار الناس عن خطر العودة القويّة للعصور الدينيّة المتوحشة العزيزة على قلوبهم.

ثم أن الشعوب المحتلة خدمت العربية لجملة أسباب تراتبية.. وأعفو عن قاعدة ولع المغلوب بالغالب الشهيرة:

الأول أن العربية أضحت أمرا واقعا باعتبارها لغة الحكم ولغة الدواوين.. أي اللغة المؤيدة بالمال وبالسلطة.

الثاني أن العرب مكثت بتلك الأمصار الجميلة وشجعت هجرات أخرى للوفود عليها مما كثف من عملية التثاقف

الثالث هو اكتشاف أن هذه اللغة الوافدة ليست في بشاعة الاحتلال بالنهاية.. فهي لغة جميلة مطواعة، فضلا عن كونها أخذت شوطا كبيرا في التقدم على نظيراتها منذ الأمويين، لتصبح أكثر قبولا خصوصا عند العلماء من حيث الجاهزية لاعتمادها لغة لأعمالهم.

الرابع هو اكتشاف أن هؤلاء الغازين، وبعد أن تحللوا تدريجيا من غفاريّتهم الأعرابية الدينية وعادوا إلى معانقة معدنهم العربي الأصيل، ليسوا في بشاعة أعراف الغزو الأول وقوانينه العنصرية.

ونسبة الإسلام إلى العبرانية ليس إيحاء عنصريا، بل هو ضبط للأمور لا غير، من أجل رؤية واضحة نقصد بها التوصيف الثقافي الشامل لديانات التوحيد.. وإن كانت الكلمة تصح أيضا توصيفا عرقيا شاملا لشعوب التوحيد الأولى، والأولى فقط.. والتي تعتبر في مقام العرب البائدة وإن عمرت بعدهم غير يسير.

ولكن كل ذلك لا يعنينا هنا...

فإذا كان بنو عدنان يصرون على الانتساب إلى إسماعيل بن إبراهيم، وكان من جهة أخرى حتى بعض القحطانيين يذهب إلى اعتبار جدهم قحطان ابنٌ لهود بن عابر العبراني[52]،من أجل تزيين "سلاسل" أنسابهم بالأنبياء، فهذا شأنهم، وهم أدرى بأنسابهم، وثبوت ذلك أو عدمه لا يضيف أو ينقص شيئا في منطقنا.

فلقد عاش بنو عدنان ما يربو على الألف سنة، أو ما يزيد على الألفي سنة - إذا وصلناهم بإسماعيل كما يحلو لهم-، عاشوا في بيئة عربية عن أصالة ظاهرة في اجتماعهم وأشعارهم وفصاحتهم وإن لم يصلوا إلى مستوى القحطانيين في ذلك، وتمثلوا الثقافة العربية الأصيلة بمحاسنها ومساوئها، وسادوا في مناخيهم بالحجاز، وإلى هنا كل الأمور تبقى طبيعية.

غير الطبيعي هو قلبهم ظهر المجن دفعة واحدة.. وتشويه الثقافة والبيئة التي احتضنتهم، بالعودة إلى تعويذات الغابرين بعدما كادت أن تندثر، واستيراد ثقافة مختلفة من التاريخ، وفرضها بقوة المكر، ثم بمكر القوة على مضيفيهم.. وعلى أنفسهم أيضا باعتبار أنهم أضحوا

[52] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.. د. جواد علي.. ج1، ص312. ط 2 . 1993.

هم أيضا – إذا صحت رواية استعرابهم- عربا أقحاحا ثقافيا، وبذلك عرفوا وسادوا .

وتلك الثقافة العبرانية المستوردة من شتات التيه، فضلا عن كونها كانت ثقافة بادية منذ بداياتها في الوقت الذي عرفت كل الشعوب من حولها معنى الحضارة والقوانين والحياة الحضرية، لم تكن في مستوى الفطرة العربية الأولى، أخلاقيا، اجتماعيا وسياسيا. ولم تكن حتى في مستوى ثقافة يهود الحجاز، والذين عرفوا الاستقرار والزراعة والتجارة بالمنطقة، وبقوا محافظين على نمطيتهم الاجتماعية وخصوصيتهم الثقافية .

ففي دراستنا للتراث، يمكن تقسيمه إلى :

أصيل.. وهو ما كان أخلاقا ومكارم واضحة ومبادئ إنسانية نبيلة وعلوم وحضارة رائدة في زمنها ساهمت فيها كل الشعوب التي احتلها الغزو العبراني الأول.. ونعود هنا فنؤكد على أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحسب للغازين، هو أنهم سرعان ما بدأوا يعودون إلى أصالتهم الإنسانية الأولى كما شرحنا في مسالة تحول الدين إلى تدين.. ويتحللون تدريجيا من أعرابيتهم الغفارية المكتسبة ومن تعاليم الدين البربرية.. ولو لم يفعلوا ذلك، لاندثروا وذهبت لغتهم وذابوا تماما في ثقافة الشعوب المحتلة كما حدث للتتار، ولم يتصدر اسمهم ورسمهم

ولغتهم عنوان الحضارة الجديدة..، فلقد كان خضوعهم إلى مقتضيات حضارات الشعوب المحتلة والتعلم والإفادة منها عاملا أساسا في بقائهم، وإن كان هذا لا يسقط الحق في عدالة انتقالية وإن أدبية رمزية، تعود على التاريخ، من اجل رأب تصدعات حاضر يأبى الدين العبراني إلا النفخ فيها.

دخيل.. وهو جميع ما نكتشفه اليوم تحت الدهشة من لا إنسانية في الجانب الديني من تراثنا ماضيا، ومن كذب وانتهازية وميوعة وكوارث اجتماعية وسياسية في الإسلام المنبعث من جديد، منذ نكسة 1967 إلى اليوم.

والخلاصة هي أن مصدر الأصيل والمشع والنبيل من تراث الحضارة العربية هو البداهة والعرف الإنساني الأول وامتداده الحضاري بتعدد مشاربه الإثنية في مجتمعاتنا من فارسية وأمازيغية وقبطية وتركية وكردية وعربية وعدنانية إسماعيلية وإسرائيلية، وليس الثقافة الدينية العبرانية الدخيلة على هذه الشعوب ..

فالديانة العبرانية الدخيلة..،

عمدت إلى محو الفترة العربية وتشويهها ما استطاعت وسمّتها جاهلية، محوا لمصادر سرقاتها في الحكمة والأخلاق والمبادئ النبيلة بعد تشويهها.

ثم عمدت في عصرها الثاني بعد سقوط الحضارة العربية، أي فيما نسميه عصر الضعف، إلى ثقافات الشعوب- التي خضعت فاندمجت وأثرت وأبدعت الحضارة العربية-..، عمدت إلى محوها هي الأخرى وشوهتها ما استطاعت.. ويكفي في ذلك دراسة موضوعية مقارنة بين مكانة الشعوب المعربة في الحضارة العربية الإنسانية وبين مكانتها في العصر الإسلامي الثاني، أي عصر الضعف.. وابعد من ذلك، مع مكانتها بالعصر الإسلامي الثالث، وهو حاضرنا منذ التحرر العام لشعوبنا إلى اليوم.. وبنحو عائد على التاريخ أيضا، مع مكانتها بالعصر الإسلامي الأول أي ما يسمى بالعهد الراشدي.

وأشدد هنا على مكانة الشعوب وليس على امتيازات النخب التي يعتمد عليها المسلمون من أجل قلب تلك الحقائق. فامتيازات النخب تتعلل بالمصالح الآنية النفعية المباشرة في دوائر السلطة والنفوذ، ولا تنظر البتة إلى لون الهوية.. وكم من نخبة مستفيدة في هذا النظام أو ذاك، وأهلها وعشيرتها والشعب المنحدرة منه يرزح تحت خط الفقر أو حتى تحت نير الاستعباد.

كما اشدد على حضارة الشعوب لا على استبداد القصور الذي يعتمد عليه المسلمون من اجل تشويه عصر بحماقة قصر.

فلا علاقة إذن للثقافة العبرانية الدخيلة مع الأصيل والمشع من تراثنا ولا تحتاج إليه البتة إلا في دفاعها عن نفسها بمعرض تمجيد ذاتها وتاريخها المنتحل من لحمة وسدى الحضارة العربية الإنسانية متعددة المشارب والإثنيات، في حين تستخدم بكل مكيافيلية (جوهرها الحقيقي) في هجومها على الإنسان وعلى التطور البشري ..

فإذا ما ثار الإنسان عليها، تتهم أخاه الإنسان بعملية " تصريف غضب" بسيطة، بحيث يتوجه الغضب الآتي إليها بتحريف وجهته إلى هدف مرصود بعنايتها.

فإذا كان الثائرون عربا، تتهمهم بحزب البعث العروبي الذي ينكر ثقافتنا المحلية بزعمها وتحرض الأمازيغ عليهم..

وإذا كانوا أمازيغا، تتهمهم بالاستغراب وبالتمسح بزعمها وتحرض عليهم العرب.

وإذا ثار عليها الوطن كله، تتهم العلوج والغرب "الصليبي الحاقد"، تشكوه إلى الوطن وتحرض عليه.

وإذا ثار عليها جيل كله، كما هو حال الشباب المتسائل عن حقيقتها والباحث في كوارثها اليوم، تتهم إسرائيل "الماسونية".. أو التيارات اللوسيفيرية وما شابهها. وإذا ثارت عليها إسرائيل، تلعن مع

العرب، بلفور وتجرم بريطانيا.. أما إذا ثارت عليها أمريكا مركز الخلافة الراشدة، فحسب السياق:

إذا ثارت أمريكا على الروافض، يتهم الروافض النواصب

إذا ثارت أمريكا على النواصب يتهم النواصب الروافض.]

فهذه ثقافتنا العبرانية.. تضرب الإنسان، ثم تشكو أخاه إليه. تلدغ هذا الأخ، ثم تنسب فعلها إلى الأول.. لا تعدم الحيلة أبدا، ولا تعدم أنصارا مجانين أبدا.

المهم بالنسبة لها هو خلق المزيد من الأحقاد والضغائن والحروب بين الإنسان وأخيه الإنسان.

مثال بسيط من حياتنا السياسية..،

لدى استقلالنا السياسي سنة 1962، وعملا بواحديّة الحقيقة ومطلق الرؤية وشمولية الحكم كقاعدة عبرانية مقدسّة، حوّلنا الثراء المبثوث في جبهة التحرير إلى شتات مكبوت في حزب جبهة التحرير. ولا نزال إلى اليوم نشيد بذلك الشتات المكبوت على أنّه كان تعدّديّةً وكان ديمقراطيّة في الحزب الواحد. ثم عمدنا إلى توخّي المرجعية الباديسية، وهابية الأصل، إخوانية التحيين، داعشية المستقبل، كمرجعية ثقافية للحزب.. وانطلقنا بعدها في حرب ضروس على باقي الألوان والمرجعيات.

من جهة أخرى، كان لهزيمة فرنسا سياسيا وإفلاسها مدنيا وفكريا وحقوقيا بالجزائر، أثر سيّئ على المرجعية الواحدية العبرانية الكولونياليه. فعمدت إلى تحويل الثراء المبثوث في جيل المتعلمين الحداثيين إلى تكتل مكبوت في الإدارة والتسيير. وبنفس الوقت، تحويل الثراء المبثوث في جيل المتعلمين المحافظين إلى تكتل مكبوت في الثقافة والتعليم.

وهكذا تشكلت لدينا منذ السنين الأولى للاستقلال عبرانيتان متقابلتان في الشكل متطابقتان في مضمون تأجيج الصراع والفتن بالجزائر.. تتقاسمان الدور وتحفظان لأنفسهما مسافة النأي عن تلطيخ أيديهما مباشرة بدماء الأبرياء.

(أدُكُّك دكّا.. وإذا ما لا قدّر يَهْوَه حاولت الردّ، سأوجه ضربتك بمكري وخبثي إلى نظيرك في مجموعتي الذي قاومني وحاربني قبلك).

فمن مسّه ضرّ فرنسا العبرانية، له "فقط" أن يهاجم العلمانية وحقوق الإنسان وفولتير وسارتر وأمثالهم اللذين ناهضوا العبرانيات الفرنسية.

ومن مسّه ضرّ عبرانيتنا الوطنيّة، له **"فقط"** أن يهاجم الأدب العربي وأعلام النهضة العربية، والكُتّاب العرب التقدّميين بعدهم، الذين ناهضوا العبرانيات الموغلة فينا...

(أضيّق عليك في كلّ شيء، وأحتال في أن يكون ردّ فعلك ضدّ مَنْ أريدُ تصفيته من صفوفي). [53]

تطور الصراع بعد ذلك من إيديولوجي إلى عرقي، وانتهى إلى دخولنا في موسم شتم أعراق بعضنا البعض ولغاتنا ولهجاتنا.

وسلم المجرم الحقيقي من التهمة...

وأختم هنا بتوضيح أخير لعملية محو مصادر السرقات. فهي تكرار لما قامت به اليهودية كما أسلفنا القول، حين استعملت أخلاق المسيح الذي لم يكن نبيّا ولا هم يعرجون... وإنما كان مواطنا إنسانيا أنكر على الفريسيين ديانتهم-، استعملت أخلاقه في تدليس ديانة جديدة تستدرك بها استخدام شعبية الأخلاق التي لم تنتبه إلى قوتها في حشد

---

53 - ولذلك تمّ في بداية التعدّدية قران "شرعيّ" ثمّ رسميّ، بين مناضلي الكتلتين الصديقتين اللّدودتين، بدى غريبا ولا يكاد ينسجم مع المنطق الظاهري السائد يومئذ، فكتبت عنه مقالا مطوّلا بمقاربة أنثروبولوجية لكلا الكتلتين لبيان بداهة الأمر والانسجام التاريخي والسياسي بينهما، لكن مع الأسف، لم يُجاز للنشر في أيّة صَحِيفة لِجِدَّتِهِ أو لصداميّته آنذاك.
أنجب ذلك القِرانُ ولداً (الفيس). فكان إسمًا على مسمّى.
وللعلم، تلكما الكتلتان لا تزالان إلى اليوم – بأثواب الموضة الحالية طبعا - تلعبان بالعقل الشعبي السائد.

الناس إلى البرامج السياسية إلا مع ظهور هذا المناضل الإنساني الوديع، بدليل أن أنبياء العهد القديم، إذا ما قرأنا العهد القديم، لا يركزون على الأخلاق.. بل لا يعرفون الأخلاق من الأصل.. والعهد القديم كان يعتمد على القوة والإرهاب بالحرب والتخويف بالكوارث الطبيعية في تعبئة الناس وليس على الأخلاق. فمن غير المعقول أن "الله" – إذا كان "الله"- ينسى الأخلاق لمدة ما يقارب عشرين قرن، ثم يعود فينقلها استدراكا عن عيسى.

فهل يتعلم "الله" – إذا كان "الله"- عن الإنسان؟؟

طبعا بالطور العبراني الثالث (الإسلام)، تم الأخذ بعين الاعتبار لهذه المسألة، استفادة من أخطاء سلفه مع إيهام أتباعه بأنها تحريف.. وأدرجت شعارات ومقولات في الأخلاق سرعان ما طمست إلى غير رجعة أمام أول غنيمة.

وعود على موضوعنا..

بدأنا إذن، مع انتقال عربي وشيك إلى دور حضاري جديد.

قفز الدين على الخط وانتهز الفرصة باقتطافه الثمرة، ثم وجهها إلى وثوقية عنصرية دينية إقصائية طيلة ما يسمى العهد الراشدي، وهو العصر الإسلامي الأول.

بعد ذلك، تدخل الضمير الإنساني من خلال الأمويين الذين لم يستسلموا تماما لدين **كانوا أعلم العالمين بحقيقته**، وكانوا حديثي عهد بالرشد العربي، ليجري على الدين، المستشري على جسد الأمة كالسرطان بدرجة متقدمة، ما أمكنه من تلطيف وتهذيب. وبوشر في عهدهم تأسيس الدواوين وبعث اللغة العربية للتطور مع الإدارة، وبشكل جنيني، مع باقي العلوم الفلسفية والسياسية.. وتمديد رقعة الإمبراطورية الواعدة على علات وهنات عصرهم الذي كانت الشعوب به لا تزال محكومة ببراديغما دينية حربية تنافسية، فلم يمنع ذلك، بل أغرى الأمويين على توظيفه في سياساتهم التوسعية - وهم سياسيون قبل كل شيء، وليسوا مناضلين.. يتأسفون على ضياع أرض أكثر من أسفهم على ضياع حق. والتي لسنا نبررها، بل ندينها، ولن نحتاج إلى تبريرها لسبب بسيط هو أننا لسنا في منطق عبراني. فلا نؤمن بنزول تعليمات عبد الملك بن مروان أو غيره، على صورة قضاء حكم به الله من فوق سبع سماوات كما في قصة سعد بن معاذ مع بني قريظة.

فمع الأمويين امتد شيوع عصبية أعرابية مقيتة، زادتها العصبية العبرانية **التي ابتدعت نجاسة المختلفين** حدّة، والتي أضرت كثيرا بالشعوب المحتلّة.. وبوصفها عصبية عرقية في الأصل، غدت بذلك مرحلة مخففة عن العصبية الدينية.. وساعد ذلك التدرج من عصبية دينية إلى مجرد عصبية عرقية إلى سهولة اندثارها فيما بعد بفضل تعامل الشعوب وتآلفها.

ثم جاء العصر العباسي وانفتح على العالم وثقافاته فأهدى العالم حضارة عربية اللسان إنسانية الجنان، لا يزال إشعاعها إلى اليوم، وقضى على العنصرية الدينية وعمّت المناظرات والمطارحات الفكرية بين المذاهب في كل دعة وتعايش، وانشغل الناس بحرفهم وصنائعهم وازدهرت الحواضر.

ثم في أوج ذلك العصر نمت فلسفة صوفية إنسانية خالصة حررت الفكر، ولكنها مع الأسف خطت خطواتها الأولى فقط في مباحث الوجود الكلية ولم يسعفها مكر التاريخ وكيد فقهاء السلطان لأن تطرُقَ مجال السياسة والشأن العام في اجتماع الناس وعلاقاتهم .

فمع الأسف، كان سدنة الثورة المضادة يستفيدون من جو التسامح والرخاء وسعة العلاقات التي وفّرتها الحضارة الإنسانية العربية، واستخدموا ذلك لخدمة أهدافهم المدمرة للحضارات.. فحدث أن تلك

المسيرة التقدمية، والتي أعادت مع الأمويين عجلات الثورة بعض الشيء إلى سكتها الأولى الحقيقية، ثم وصلت مع العباسيين إلى ما أبهر العالم وملك عليه خياله بالجانب الأدبي والفلسفي، عاد عليها التاريخ أثرا رجعيا بالمسخ والتشويه؛

ونرصد الأمر في نقاط من اجل الوضوح:

العصر الإسلامي الأول:

من الهجرة إلى تدخل معاوية وضم الحجاز.

كان المجال في الحجاز خالصا للدين وحده يعبث فيه كما يشاء بحكم بُعد السلطة العربية الأموية عنه وتواجد ثقلها بالشام.. وبحكم أن السلطة العربية الأموية لا تزال تحتاج إليه من أجل تعريب الدين تماما وتمييزه لدوافع محض ديكورية تماشيا مع موضة العصر.. لم تتدخل تلك السلطة على رعاياها بشبه الجزيرة إلا:

في الحرب الأهلية التي نشبت في خلافة أبي بكر لتحسم الأمر إلى صالح حنيفية الحجاز على حساب حنيفية اليمامة، ثم تعود إلى تحفظها مع الشأن الداخلي لشبه الجزيرة.

أو في الحرب الأهلية التي نشبت عهد خلافة علي لتحسم الأمر نهائيا هذه المرة وتضم الحجاز وامتداده التوسعي على اليمامة ونجد واليمن إلى الإمبراطورية العربية الناشئة انطلاقا من الشام.

ولكون الدين كان لاعبا مطلق اليدين آنئذ وبعيدا عن الرقابة المباشرة للسلطة العربية الأموية بالشام، تميزت هذه الفترة (العصر الإسلامي الأول) بالاغتيالات والجرائم والإبادات والفتن بين القبائل وتعطل التجارة والتنمية وزعزعة النظام القبلي وكثرة السبي وغياب الأخلاق العربية الأصيلة وتغيير جدري بالمنظومة القيمية العربية التي كانت سائدة واستبدال منظومة دينية وقفية لا إنسانية بها .

كما تميزت بحالة من عدم الاستقرار لا يمكن معها استشفاف رتابة عرف، بله استخلاص نظام حكم كما يحاول المتنطعون الجدد.

دور الأمويين:

- تأسيس الكيان السياسي (على ديكور العصر بالطبع، وهو دين الكيان)
- ضبط دستور للكيان السياسي يتميز على الأبيونية (القرآن)
- توسع الكيان وتحوله إلى إمبراطورية مع عبد الملك.
- ترقية اللغة العربية وتعميمها في الدواوين.

أهم ما فات الأمويين، وما يعتبر خطؤهم الجوهري والقاصم هو إهمال كتابة التاريخ ليكتبه غرماؤهم السياسيون فيما بعد(العباسيون) مركزين على مغالطة كبيرة.. وهي أن الإمبراطورية الناشئة انطلقت من الحجاز بدلا من الشام، وأن حضارتها انطلقت من الدين بدلا من

حضارات الإنسان، تغييبا لدور الشام ودور الثقافة العربية الأصيلة وتفاعلها مع الحضارات السابقة.

دور العباسيين:

- كتابة السيرة النبوية على طراز الأناجيل.
- جمع وغربلة وفرز ووضع الأحاديث كنصوص شارحة للدستور
- كتابة تاريخ الإسلام.. (وهنا تدخل العوامل السياسية في تغييب دور الأمويين الريادي والقيادي في تأسيس وصنع ملمح الدين الجديد المُعَرَب)

ما يميز العصرين الأموي والعباسي:

- عدم اهتمام عموم الحكام وعموم الأدباء والعلماء وعموم المواطنين بالدين إلا بوصفه مظهرا من مظاهر التمايز الثقافي الذي يزين الإمبراطوريات كديكور ومودة لذلك العصر بالنسبة للحكام.

- يميز الحياة الاجتماعية بطابع خاص يثري المجرى العام الذي تسير به باقي الشعوب والديانات، ويميزهم تمييزا ايجابيا عن الفرس وعن الروم وعن معاصريهم من ذوي الثقافات الأخرى بالنسبة للمواطن.
- يميز الثقافة العربية في مسائلها الميتافيزيقية عن "الفلسفة الأولى" لباقي الشعوب بالنسبة للأدباء والعلماء.

كان ذلك أقصى مطلبهم جميعا من الدين.

ولم يكونوا على حذر منه أو من بوائق محتملة تنجم عنه، خصوصا الحكام والعلماء ما داموا يعلمون بأنهم هم الذين رعوه.. خصوصا مع الأمويين.

ولذلك يمكن إطلاق وصف اللادينية على الحضارة العربية الإنسانية اللادينية.

فالدين دخل على العرب ليستخدمهم فاستخدموه.

ولكن للدنيا دوائر

لقد عاد الدين بعد أن أسقط في يده إلى مكره الأول، وراح ينفخ في عوامل الشحن النفسي العقائدي مستغلا أي خلاف وأية أزمة كما حدث في سقوط بغداد بفعل الفتنة بين السنة والشيعة... إلى أن وصل بنا

إلى تدشين العصر الإسلامي الثاني، أو ما درجنا على تسميته بعصر الضعف.

حيث جرفنا التاريخ إلى عصر الضعف، وهو العصر الإسلامي الثاني.. فمسخ التصوف الفلسفي إلى شعوذة وعفاريت.
ثم استفاق العرب بعد الصدمة إثر احتكاكهم بالغرب في القرن 18.. وحاولوا بخطوات متعثرة مبعثرة ولكنها مصممة نحو النهوض وكدنا أن نخرج تماما من العصر الإسلامي الثاني لولا أن الدين عاد إلى الشحن العقائدي مستغلا قضية الاستعمار "المسيحي اللعين" (وموقفنا إزاءها مبدئيا كان عادلا بغض النظر عن تفاصيل ألغى فيها الدين شحنا لعقيدته السادية) وقضية إسرائيل (وموقفنا إزاءها مبدئيا كان عادلا بغض النظر عن تفاصيل سكنها الدين ونفث فيها مكره في الطرفين) ،فالدين" شيطان "نصوح، يأتيك من أبواب قضاياك العادلة... وقضايا أخرى جزئية عديدة..، لدحرنا مرة ثالثة في جحر ما نسميه هنا بالعصر الإسلامي الثالث وهو عصرنا هذا.

فعندما استدرجنا إذن إلى عصر النهضة، مسخ التراث الحضاري العباسي إلى أيقونات أدبية كلامية نستأنس بها ونُهَوِّنُ بها من شأن

الغرب وانجازاته، ونسبّ بها غير المسلمين، ونُسفّه بها المستشرقين الذين أخرجوها إلى النور.

ثم غازلنا بالدول الوطنية بعد التحرر، ومسخ اعتدال الأمويين وواقعيتهم إلى قومية أعرابية، إسلامية الهوى يسارية المقولات، متكبرة أقصت جميع الشعوب والثقافات المحلية بالنار والحديد.

وفي النهاية بطبيعة الحال، يصل التاريخ بنا في الزمن الحاضر، العصر الإسلامي الثالث، إلى اكتمال دورته التراجعية العقابية لنا بمعانقة السلف والعودة إلى الأصل.

يؤيد هذا الطرح كون جميع الأصوليات العنصرية المعاصرة الخام (الأطفال الذين لا يكذبون) تنسب نفسها إلى سلف ما قبل الأمويين، وإن كانت الأصوليات العنصرية المعاصرة المهذبة (الذئاب المراوغون) تنسب نفسها إلى ما طاب لها من هنا وهناك، وتلتهم الكل، حتى إبداعات الغرب المعاصر ..

تلك تحركها القيمة، وهذه تحركها السياسة، وهما في النهاية بلوى واحدة .

للعصر آليات تصفية، إذا لم نحترم أحكامها لن تحترمنا عجلة التاريخ ورحى التطور الدائري المتصاعد. ولذلك لفظنا التاريخ بخطى تراجعية متسارعة مرورا بالمراحل التي اجتزناها عاملا فيها تخريبا

وتشويها وصولا بنا في الوقت الراهن إلى المربع الأول من حيث انطلقنا.. إلى الأصل الحنيف والسلف الصالح، حيث:

- السلفيات الجهادية **المغيرة للمنكر بيدها**.
- السلفيات التراثية والإخوان والأحزاب السياسية الإسلامية، **المغيرين للمنكر بألسنتهم الحداد**.
- وجموع المؤمنين "المعتدلين"، أي ما يربو عن مليار مسلم عدا الفريقين السابقين، **المغيرين للمنكر بقلوبهم**.

وفي كلٍّ خيرٌ، على كل حال، كما جاء في الأثر...

هذه جولة.. أردت منها تبيان أننا رجعنا إلى المربع الأول حيث مفاهيم المواطنة بترشيدها الحقوقي المعاصر كانت من اللا متفكر فيه.. هل يمكن تصور أهل مصر الطيبين، يحدثون عمرو بن العاص عن حقوق المواطنة كما نفهمها الآن ويستجيب لهم؟ هل كان بوسع الزعيم الوطني الأمازيغي الشهيد أكسل، أن يشرح للغازي في سبيل الله عقبة بن نافع، محاسن التعايش بين الشعوب ونبذ الحروب واستعباد الآخرين؟ أم ترى هل كان بوسع الحكيم العربي الصميم،

أبو مهاجر دينار المخزومي أن يُطهِّر عُقبة من عقيدته العنصرية؟

...

فكذلك نحن الآن. وصلنا إلى هذا المربع، وعلينا أن نعي هذا الانسداد. ليس من أجل التشاؤم وقطع الأمل، ولكن من أجل التمثل الحقيقي للخطر.. والتشخيص الحقيقي نصف العلاج في مساره، وشرطه المبدئي في نجاحه.

لقد دخلنا مطلع هذا العقد (2011) في فوضى لا نظير لها نتيجة لعدم الحسم مسبقا في حقوقنا الفطرية الأساسية.. فلا يمكن للفرد في مجتمعاتنا أن يكون مواطنا بالمفهوم الحديث، إلا إذا حقق في ذاته أولا حرية سلوكه وحرية ضميره. والدولة التي تبنى على أفراد لم يحققوا ذلك لا يمكن أن تكون دولة لمواطنين ولكن مؤسسة عقابية لقاصرين.. وقد ترتقي تدريجيا إلى وصف المؤسسة التأهيلية لقاصرين.

فإذا أضاع المواطن العربي ضميره مع الدين، وأضاع إرادته مع الحاكم.. ماذا يتبقى من إنسانيته؟؟

إذا باع عقله إلى قيصر وباع قلبه إلى يهوه، ماذا بقي من آدميته ؟؟وماذا بقي من مسؤوليته حتى يزعم بأنه يهتم بالشأن العام.. أو أغرب من ذلك، بأنه يقوم بثورة؟

قمين بمجتمع كهذا، إذا ما لا شاءت الأقدار سقطت أركان الدولة، أن ينجرف في فوضى وحشية لا مثيل لها، لأنه كما أسلفنا، أضحى لا عقل ولا ضمير.. وقد عاينا شيئا من هذا في بعض مجتمعات الربيع. وهو شيء يسير جدا من حجم المتوقع، لحسن الحظ.

فليملك المواطن العربي عليه:

- وعي ضميره.. وهذا لا يتحقق إلا بصقل مهارة الوضوح في الفكرة والمعتقد.

- وإرادة فعله.. وهذا لا يتحقق إلا باستبدال التعاقد الاجتماعي الإنساني، بالتواكل الاجتماعي العبراني.

الشأن العام يبقى دائما في أفضل حالات الانسجام وعدم التشنج، من نتائج النظام التلقائي الذي لا تصنعه الدول، ولكن تؤطره وتقنن له في مجتمع يملك إليه ضميره وإرادته ولا يبيعهما لله وللقيصر... ولأن مجتمعاتنا في أغلب ما تحظى به اليوم من تمدّن لم تصل إليه بالتطور الذاتي، فمن الطبيعي أن تجد الدولة نفسها ملزمة بالتدخل في التخطيط له وفي تمكينه. وهذا ما يجعل الحلم الليبرالي بالعالم العربي بعيد المنال حتى في دوله التي تسمى ليبرالية...، حيث يستبدل تخطيط المافيا (العادلة، ولم لا.. كما يقول تناحرنا الذي صنع منافذ لها) أو الأوليغارشيا (المسئولة، ولم لا.. كما تقول استقالتنا التي صنعت جرأتها) أو عصابة الشورى (المؤمنة، ولم لا.. كما يقول غباؤنا الذي صنع تعالمها)..، يستبدل بتخطيط الحكومة.

لماذا لم نصل إلى تمددنا الحالي بالنظام التلقائي؟؟ هل السبب هو عدم تحرير ثقافتنا لكي تستوعب العصر وتعود على أنساقنا المحلية بالتهذيب والمراجعة حتى يسير المجتمع تلقائيا إلى الحداثة

بدل جلبها له واستبدالها هكذا بطريقة فجة بأعرافنا وأنساقنا التلقائية القديمة.

ثم هل قدرنا أن نتبع الغرب في انتقاله من مقولات الدولة إلي مقولات المجتمع المدني قبل أن نمارس الدولة، ممارسة سياسية وليست سلطوية؟

برأيي لا بأس من ذلك.. لسبب بسيط هو أن الغرب بصدد العودة بالتعهد على المجتمع المدني، وليس الانتهاء إليه.. أما نحن، فلم ننطلق بعد... كيف؟

ظلمنا مجتمعنا مرتين..

مرة عندما أسّسنا السلطة السياسية بتعسف فوقي على البنى التقليدية لمجتمعاتنا التلقائية.

ومرة عندما أسّسنا المجتمع المدني العضوي (مختلف الاتحادات العمالية والنسوية والشبابية والفلاحية والأندية الرياضية والاجتماعية التابعة للأنظمة الوطنية الشمولية) بمعزل عنها.

وها نحن الآن مع بداية هذا القرن، وبوحي من إلهام العولمة، نظلم مجتمعنا للمرة الثالثة بتأسيس مجتمعٍ مدنيٍّ لجوئيّ[54]؛ مختلف المنظمات والجمعيات المهتمة بقضايا البيئة والتلوث والمخدرات والطفولة والمواطنة وحقوق الإنسان وقضايا الهجرة والأقليات وضحايا العنف والجوع.. الخ، بمعزل عنها أيضا.

لست هنا بصدد نفي الحاجة إلى مضامين وأهداف هذه المؤسسات.. ولكنني آخذ عليها عدم تأسسها انطلاقا من آليات تطويرية داخل منطق بنانا المجتمعية الراسخة .

- سلطة سياسية مفارقة.، تؤول حتما إلى تسيير وتدعيم قوامها، وليس قوام الدولة. لأنها بكل بساطة من أصل نموذج معرفي لتأطير السياسةِ، مُتمايز عن بُنى المجتمع الأصلية. وبالتالي تحتاج باستمرار إلى تدعيم وجودها بسياسات القمع، أو إلى تبريره بسياسات التقسيم، أو في أحسن الإمكان تزيينه بسياسات الإسراف والرفاه غير المقدرة لعواقب ما بعد العهدات في أنظمة شورى العصب، أو لما بعد الأجيال في أنظمة الأبوة السياسية .

---

[54] راجع: المجتمع المدني. دراسة نقدية. للدكتور عزمي بشارة.

- مجتمع مدني عضوي.، كيَّفتْهُ الأنظمة الوطنية، لا معنى له.. لأنه تابع لطرف وليس وسيطا. والمتعارف – على اختلاف تمظهرات المفهوم عبر تاريخيته- أن المجتمع المدني هو الوسيط بين السلطة والمواطن .

- مجتمع مدني لجوئي، من أصل سياسيين أو أكاديميين أو نقابيين أو متقاعدين أو مثقفين أو مبعدين عن امتيازات النظام عموما احترفوا الوساطة العابرة للقارات مع مجتمع لم يسبق له تجربة وساطة حية وفاعلة وحقيقية بينه وبين سلطته السياسية المباشرة أولا... يزيد من تعقيد هذه العلاقة السريالية تدخلات للسلطة السياسية المباشرة المحلية، ومحاولات منها لمراقبة نشاط ضراتها الكبريات مع رعاياها وضبطه، أو حتى تعطيله في بعض الأحيان. علما بأن جميع هذه الأنشطة تمس السيادة الوطنية على المنظورين المتوسط والبعيد، وقد تؤطر بعض التدريبات وبعض التكوين في التنظيم والخدمة الاجتماعية إلا أنها لا تنفذ إلى عمق الأسئلة الحيوية للمجتمع باعتبار أن الغرب السياسي بأكاديمياته العلمية معه – كما أسلفنا - لمّا يسائلنا معرفيا بعد.. و لا يزال يعتبر التمايز المعرفي تمايزا ثقافيا ليس إلاّ... ومن هنا بدأت مأساته – وفي ترابه – مع مضاعفات ومآلات الهجرة، وتفاعلات أزماتنا مع سياساته. وعدم نفاذ برامجه إلى عمق أسئلتنا

الحيوية يجعل من أي عمل في بُنانا المحلية ضربا من العبث غير المقصود مع بعضها، وضربا من الاستدراك وذر الرماد في العيون - في أجمل الظنون- مع أخرى..

أما أسوء الظنون، فأفضل تركه إلى خيال القارئ.. تخيّل ما شئت، فسوف لن تكون بعيدا...

ماذا أخذت هذه المؤسسات من محليتنا؟

أول ما حدث، أن جردت من كثير من صلاحياتها لتضاف إلى صلاحيات الدولة باعتبار أن دولة اليوم، وطنية وليست استعمارا.

ثم عمدت إلى سياسة تجميد بناها الأولى على حالتها ما قبل الوطنية – أي قتلها بالتقطير- بسياسة التوازن في تنصيب المسيرين و النافذين عن طريق اختيارهم بمباركة العشائر، أو بسياسة ندبها إلى حملات انتخابية أو إلى إسكات مناوشات شعبية..، بدل الذهاب إلى سياسة تطوير بُنى هذه العشائر نفسها عن طريق توريطها في لعب أدوار مدنية و ليست سياسوية في المجال العام - تلك الأدوار التي أخذتها المؤسسات المنفصلة إياها، مؤسسات المجتمع المدني المكيفة من طرف السلطة- و التي كانت ستحيلها بفعل التطور الطبيعي من الحس القبلي إلى الحس المؤسّسي و تحول بذلك مع الزمن أطرها و استجاباتها التقليدية إلى اطر و استجابات حديثة مواطنية بكل مرونة.

يوجد تصور مبدئي على الأقل، لتطور بُنانا المحلية..

يكفي أن نتمثل عقلنا الأداتي الاجتماعي.. ولسنا بحاجة إطلاقا إلى النسخ واللصق من هناك.. لقد ساعدتنا فترة الاستعمار وظلمه، على التعويل على أنفسنا وتطوير مجتمع أهلي بكل مؤسساته موازيا

للإدارة الاستعمارية.. وقبل ذلك كانت مجتمعاتنا ذات تجربة عميقة في هذا المضمار، ضاربة في التاريخ إلى الأمويين الذين لم يرضوا بالحكم الثيوقراطي الدخيل على المجتمع آنذاك.. وتوخوا حكما زمنيا ينسجم مع الفطرة العربية الناهد إلى الوضوح.. وإن بهنات ونقائص عصرهم، وبالحجب الدينية التي لم يتخلصوا منها تماما.

فافتراق السياسة عن الشرع كما يلاحظ ابن خلدون، لم يكن سوى جدلا خصبا للمجتمع المدني مع الدولة بمفهومنا المعاصر. وعلى هذا الأساس، تطور الفقه وقواعده وأصوله، وهو إبداع حضاري إنساني أصيل أنقذ الثقافة العبرانية وخدمها وجعل لها شأنا، لولا أنها نالت منه كثيرا بدورها "ردا للجميل"، وأخلدته أرضا.. وأدخلته سفاسفها في كثير من أبوابه ومسائله[55]..

وكذلك كان العرف الاجتماعي والثقافة الشعبية التي انتهت إليها روافد حضارات وثقافات شعوبنا الأصلية العريقة. لم يغب هذا الوضع الواعد سياسيا عن العالم العربي إلا في فترتين:

---

55 مثال على ذلك، نظام الوقف مثلا، وهو معلم ومأثرة فقهية للعقل الفقهي الإنساني بالحضارة العربية نعتز بها. ومع ذلك لا يخلو مما تدسّه الثقافة العبرانية الدّخيلة عليه.. يقول الإمام محيي الدين بن شرف النووي الدمشقي في روضة الطالبين- الجزء الرابع- صفحة 379:

"- الثانية: يجوز وقف ما يراد لعين يستفاد منه، كالأشجار للثمار، والحيوان للبن والصوف والوبر والبيض، وما يراد لمنفعة تستوفى منه، كالدار، والأرض. ولا يشترط حصول المنفعة والفائدة في الحال، **بل يجوز وقف العبد والجحش الصغيرين...**"

من بداية عصر الضعف (العصر الإسلامي الثاني) إلى دخول الاحتلال الغربي.

من تحررنا السياسي المعاصر إلى اليوم (العصر الإسلامي الثالث).

فالفترة الأولى فقد فيها رجال العلم والفقهاء والأدباء وعموم "الدهماء" كما يحلو لمتعلمي ذلك العصر أن يقولوا، استقلاليتهم تماما.. وأصبحوا "لدى الباب مصفودين في قرن"... لأنهم فضلا عن تكفيرهم للتصوف الفلسفي، رفضوا التعامل مع تراث المعتزلة الذي لم يعد المثال بنظرنا، ولكنه كان مناطا علميا واجتماعيا بامتياز لمزيد من التطور، كما رفضوا من جهة أخرى التعامل مع التراث الخوارجي المنبوذ منذ العهد الأول، والذي كان مناطا خصبا ومفتوحا لتطور الفكر السياسي.

أما الفترة الثانية، وهي الحالية التي نعيشها بدءا من الاستقلال، فرفضنا التعامل مع آخر ما نضجت به تنظيماتنا وعقلنا الجمعي العرفي الحي المناهض للاستعمار لدى استقلالنا السياسي.. كما رفضنا حتى الرجال الذين أنجبتهم تلك الفترة الحيوية، وهم جميع من صنعوا التحرر السياسي للشعوب، وليتنا فضلنا عليهم من كانوا في الصف الخلفي بالتنفيذ الميداني، ولكننا انسقنا وراء من كانوا في

الصف الخلفي بالترتيب الميداني لما بعد الاستقلال.. وهذه ورطة أخرى. كما وفضلنا في المجال المؤسساتي استعارات من الثقافة المهاجرة الغربية، واستعارات من التاريخ البعيد المنقطع في الثقافة العربية المهاجرة.. وكلا الثقافتين المهاجرتين المستعارتين يتطلبان عقلا سائدا، أو قاعدة شعبية سائدة من عيارها.

وبما أننا لم نرقب كل ذلك وإن كنا على دراية تكاد تكود دقيقة به، وبديهي أننا نملك اليوم من الإمكانيات البشرية والمعرفية والمادية والسياسية أكثر بكثير مما كان يتوفر لدينا زمن الاستعمار عندما أنشانا مجتمعا أهليا.. أو قبله بحداثية أكبر، عندما أسسنا علوما مستقلة عن الحكم، وإن كانت بدعمه في متعلقات العقائد خصوصا..، وبما أن اللوحة على هاته المفارقة، فالحصيلة هي أننا لم نبدأ بعد...

في عالم متحرك.

رغبتنا في النهوض ليست وليدة الأمس القريب، ومع ذلك نحن نراوح. ذلك أننا لم نحسم مع القضايا المثارة في هذه الصفحات.

وهي صفحات لا تضيف جديدا...

السياسيون يعرفونها جيدا، ولكنهم يقولون دائما نحن لسنا مهديين.

الأكاديميون يعرفونها جيدا أيضا، ولكنهم يقولون لسنا سياسيين.

المثقفون يعرفونها ويقولون لسنا في السلطة.

بيد أن المفارقة مع ذلك، تكمن في كون السياسي عندنا يمارس لغز النبوة المبهم على الشعب، والأكاديمي يمنهج ذلك اللغز ويموضعه معرفيا، أما المثقف فيمارس سلطة المعنى لذلك اللغز المبهم، وينشر تباخيره على الشعب.

وإذا كانت هذه الصفحات مكرسة للحديث في مجملها عن العالم العربي، فلأنه الجهة الأكثر تورطا في الأزمة على وجه الأرض. ولكنه مع ذلك، لا يتقدم على الغرب في هذا البؤس إلا ببضعة أميال.

فالعالم المتقدم، على ديمقراطيته وليبراليته وحرياته ومبادراته وعلومه لا يزال يستبطن العصور الغابرة في أحشائه. و لا يزال أفراده يحملون "عائدون" محتملين في أعماقهم.. ذلك أن الانتقال المعرفي عندهم، لم يستكمل في منعرجه الأخير إلا بتلهية سياسية سطحية اسمها مجتمع الرفاهية. وعلى امتداد هذه التلهية، دُسّت في هذه المجتمعات جميع البهارات والمنشّطات الوسيطيّة على غفلة من فلاسفتها مع الأسف. وبرأيي، فإن العلمانية، الأمريكية خصوصا، ساعدت كثيرا على ذلك.

ومع كل هذا، فنحن نسير ونتعلم..

لا أعتقد في وجود صعود وهبوط للحضارة الإنسانية بوجه عام، ولكن هناك توجه عام إلى الأمام للحضارة الإنسانية في شكل دائري متصاعد. منحنيات الدوائر توهمنا بالهبوط، ولكنها منحنيات استدراكية منتظمة ودائبة تعمل على جانب من جوانب الحياة، أو جهة من جهات جغرافيا البشر لم تلقح بالإدراك المعرفي للعصر، أو أهملت شرطا من شروطه.. حتى الاندثار أو الانقراض للحضارات أو أكثر من ذلك، ما يسمى بالحواضر المدفونة، فان ذلك ليس سوى مرحلة في تاريخ المجرى العام للحضارة الإنسانية. قد تكون مجرد كوارث طبيعية، أو قد تكون واحدة من جرائر الجنون البشري سلّمت

وأدبرت، ولكن اللا وعي البشري العام يستبطن فظاعتها مما يفسر تحريّات الإنسان العقلانية المتطورة فيما بعد.. وهنا قد تكون سببا لتصحيح في مسار لم يكشف عن كنهه بعد لعدم تكثيف البحث التاريخي حوله لأسباب تغدو في الغالب سياسية-دينية.

الحياة وعاء العلم والسياسة والتاريخ والاجتماع وما لم ندرك بعد.. ولذلك كان المواطن البسيط أكثر عنفوانا وحيوية في ممارسة حياته من غيره بالفئات الأخرى.. يمكن من هذه الفكرة تبين الخلل الملازم أبدا للمشاريع المؤسسة على إيديولوجيا. أي بتوجيه من السياسيين سواء كانوا سماسرة أرض أو سماسرة سماء. مثل هذه المشاريع، سواء كانت ثورات أو مجرد برامج أنظمة، لا تساعد على الانتظام المرن في مجرى التاريخ، ولذلك يكثر في مساراتها التصحيح وإعادة التصحيح. تماما كما أنه من جهة أخرى خاصية ملازمة أبدا للمسيرة المعرفية التي يُعَبِّدُها الاستدراك.

طبعا لا مأخذ على المسيرة المعرفية من ذلك حيث ليس لها بدّ من التقدم على هذا الشكل.. أما المشاريع المؤسسة على إيديولوجيا فالمأخذ عليها أنها تبتسر جزءا من الطموح الشعبي العام، الجزء الخاص بالنخبة، لتؤسس عليه ما يعود على الشأن العام جميعا. ولذلك كانت الديمقراطية مفهوما لم يتحقق تماما لا بأثينا القديمة ولا مع

الغرب المعاصر قهرا عن آليات التمثيل.. لأن هذه الآليات يتم التوافق فيها، في مطلق صحة العزم وصدقه، على مستوى ما تضبطه السياسة بأدواتها وصلاحياتها، وما تصل إليها المعرفة الاجتماعية بضوابطها المنهجية والاحصائية، المقتّرة بقدر ضرورة الوضوح والدقة، مما يبقي على حيوية آمال المجتمعات المختلفة متدفقة خارج الاتساق، أي خارج ما تصل إليه أدوات السياسة، وخارج مقتضى الوضوح والدقة بدراسات المجال السياسي..، فتعمل عملها الصامت في توجيه التاريخ كما تراه هي، لا كما تراه الأنظمة.. ومن ثم، فإعادة التوجيه يقوم بها التاريخ ومجرى الحياة القاهر كما تصنعه بديهة الناس البسطاء لمجرد التوجه الغالب في سواد الشعوب.. فحالنا اليوم في الوضع السياسي والثقافي والاقتصادي لا يمكن أن يحسب على تخطيط الأنظمة فحسب.. لقد صنعته الشعوب أيضا بأفكارها وجسدته بنواياها.. ولذلك ظهر بعد ذلك ما يسمى بتسيير وتوجيه التفاعلات الرمزية في صنع الرأي العام..، **وهي أسلوب الغيب الديني نفسه، متوشحا لباس العصر في النظرية.** وهنا أيضا تبقى الحياة أكبر من العلم ومن السياسة.. فجيوب التاريخ الباقية من جهة، وطبقات الأركيولوجيا النفسية للمجتمعات من جهة أخرى كانت الكفيل الدائم لخلط الأوراق

على هذه النظرية الوسيطية المتسللة بالفلسفة الأمريكية وإعادة الألعاب إلى المربعات الأولى، أو توجيهها إلى غير الوجهة.

وما نثيره هنا ليس جمبازا بالكلمات..،

فليس من عبرة في ذلك للدول الأوروبية من دعوات وسيطية ونعرات عرقية من كل الأصول، طلعت على غير موعد، مستنفرة لصالحها جميع حقوق المواطنة لتخريب ما تبقى من عصر الأنوار – إن بقي شيئا - في قلب عواصمها.

هناك تحسر المشفقون على مكاسب العصر، على زمن فاتهم فيه حماية العقلانية الكلاسيكية – على مسيس حاجتها اليوم إلى التطوير هي الأخرى- من هزات ارتداد الكوارث الوسيطية، المعلبة كالعادة في نماذج معرفية تبدو مشروعة.

وليس من عبرة في ذلك للدول العربية من سطوة تراث غابر على حاضر عاثر. لقد عاث هذا التراث فسادا، وعربد في أعلى الدوائر، متوسلا بجميع أدوات وصلاحيات المواطنة - الملعونة في عرفه - في شكلها الإجرائي من حريات وديمقراطية وانتخابات حتى وصل إلى قيادة بعض الدول.

وهنا تحسر المشفقون على الوطن على زمن فاتهم فيه، لو كان الأمر لهم، تعليم أبجديات العصر قبل فتح سوق العكاظيات السياسية.

فالمواطنة وحدة زمنية معرفية، مستقلة عما سبقها من وحدات لجماعة بشرية، قبل أن تكون مكانا وتواضعا شعبيّا.

و كما تساهم عملية محو الذهنية العلمية عن بعض الأكاديميين بتبعية بحوثهم إلى تعليمات لبؤر قرار سياسية، و عملية محو الرؤية العلمية عن دعاة الأديان بتبعية دعاواهم إلى غيب مشبوه..، أضحت عملية محو الأمية السياسية عن المواطنين بتبعية سواعدهم (إرادتهم) إلى القيصر و تبعية مشاعرهم (ضمائرهم) إلى الله، تساهم هي أيضا في تعكير الواقع بانشطار الهمة أو الإرادة الواعية لدى الإنسان، و التي وحدها، و وحدها فقط، تصنع الحياة و تصنع المستقبل... هذا صحيح جدا ما علمنا بأن الإرادة الواعية لا تتحقق لدى الفرد الحر بالفكرة فقط، و لا تتحقق بالإرادة فقط. وإنما تتحقق باجتماعهما معا.

لعلنا نجد في نفوسنا شيئا من هذا ال " ما لقيصر وما لله" الذي يشطر الإرادة الواعية إلى نصفين.. وعلى الرغم من كونها مقولة تنسب إلى المسيح عيسى، إلا أنها لم تكن في مدلولها الأول تعني المفهوم الذي تداول بعد ذلك لدى الانتقال إلى عصر الأنوار.. فالفكر العبراني أصبح عفريتا يسعى على أسفلين.. يقاوم، يداهن، يتلاون،

يخاتل ويكذب دوما في صورة الناصح.. لقد مرّر على غفلة من مناضلي ذلك العصر سما غزيرا في كؤوس من ذهب.

هل يمكن اعتبار تلك المقولة تواضعا بين إقطاعيين من نفس الطينة تقاسموا الإنسان في الإنسان.. بمعنى لم يتقاسموا إبداعه وجهده فقط، فذلك أمر محقق منذ قرون، ولكن أنابوا أنفسهم مكانه في فكره ليفكروا ويبدعوا به ما يريدونه بالضبط؟

يمكن أن تكون هي الثوب الجديد الذي دخل به الدين –على تهمته آنذاك- عصر الأنوار، ومنه انسل إلى عصرنا من دون أن يثير أية شكوك في كونه هو ذاك.

انسلال ناجح، طالما ضحك على ذقون الجمارك العقلية في تخوم العصور، يفسر بدقة تشابه سياسات سوق الشعوب في جميع الدول ذات الخلفية الثقافية العبرانية.. ونقصد بها العالم الإسلامي، أوربا وأمريكا، وشتات الكل بباقي المعمورة.

وأي نعم.. التفاوت والاختلاف وحتى الخلاف بين تلك الدول موجود، ويعود إلى رتبة ودور كل منها في مسار التاريخ أو في مسار اللعبة.. ويعود إلى تزاحمها جميعا على خدمة "المصلحة الكوكبية" ربة "المصالح الوطنية المكيافيللية إياها" لكل منها.

والحروب بينها حثيثة.. باردةٌ وهاردة.. تعود إلى المصالح الاقتصادية تماما كما يتعارك الإخوة الأطفال على ألعابهم... وكل هذا لا يمنع، بل هذا هو العامل الأساس، بأنّ هذه الدول تتكامل وتتآزر في مسألة إطالة عمر الأديان على الإنسان.. وهذا ما يميزها ويُبقي على طابعها الديني الذي لا يزال يوحد هزلها وجدها على نسف الإنسان.

فالعلمانية بوصفها امتدادا لذلك التواضع المشبوه، سواء كانت فرنسية أو أمريكية، نعتبرها مرحلة من مراحل الفكر السياسي الإنساني وليست نهاية للتاريخ.. حان الوقت اليوم، والدواعي تصم الآذان وتدمي الأبصار، لإعادة النظر في هذا التشطير الذي شطر الإنسان على مقاس الخدعة الانشطارية الأولى لما يسمى المادية والمثالية والتي جرفت الفلسفة الإنسانية في مهاترات ومضيعة للوقت وللجهد وحتى للعقل.

قد تبدو بأنها الحل الأمثل.. بهذا الزمن على الأقل.. وقد تكون كذلك بالفعل، ولكن تطورات الوضع الأخيرة بربوعنا، ووعيد العصور الوسطى المدوي بأرجاء أوربا، والوعود الخادعة للأديان الجديدة المهسترة المطبوخة بأمريكا..، كل ذلك يجعل الأمر محل مراجعة.. ليس في الأمر تعقيدا بالمستوى النظري على الأقل.. أقصى

ما يجب، هو **تسمية الأشياء بمسمياتها لا غير**.. الفكر المادي الغريزي المحبوك من أجل شل الإنسان لا يمكن أن نستمر في اعتباره فكرا روحيا أو مثالية، نستأمنه شعوبنا.. وبناء على التوصيف المناسب نصدر الإدانة المناسبة، ومنها إلى التعامل المناسب.

العلمانية الحالية تقول لقيصر: احترم الرب، وتقول للرب: احترم قيصر... ولكن لا تقول لأي منهما، احترم الإنسان... ولذلك لا يزال الناس في عز المناخ العلماني يقاتلون الناس من أجل الايدولوجيا(يهوه) أو من أجل المصالح (القيصر).

فهل سيقول التواضع القادم، لقيصر وليهوه معا: احترما العصر، واتركا الإنسان.. وغورا بعيدا عن "غايا" الوديعة؟

الملحق المفاهيمي

هذا الملحق لا يبرّر أطروحات الكتاب. ولا يفرض تأويلا واحدا له. بل يهدف إلى ضبط استعمال المفاهيم داخل هذا النص تحديدا، لا كما هي شائعة في التداول الديني أو السياسي أو الأكاديمي.

1. الدين:

لا يُستعمل هنا بوصفه تجربة إيمانية فردية ولا بوصفه علاقة روحية شخصية مع المطلق.

الدين في هذا الكتاب يعني: منظومة تاريخية–رمزية–تشريعية تُحوِّل الغيب إلى مرجعية سياسية وأخلاقية واجتماعية وتُعلّق المسؤولية الإنسانية على ما فوق الإنسان.

فالنقد موجّه إلى الدين بوصفه بنية سلطة، لا إلى الإيمان كخبرة شخصية.

2. المقدّس:

المقدّس لا يُفهم هنا بوصف المحترم أو السّامي أخلاقياّ. بل بوصفه ما أُخرج من مجال المساءلة ووُضع خارج التاريخ والنقد ثم استُعمل لتثبيت علاقات قوة.

3 .الروح:

الروح ليست جوهرًا غيبيًا ولا نقيضًا للمادة. بل فعل التفكير، والمسؤولية، والمساءلة، والقدرة على إعادة النظر.
ويغدو تعطيل التفكير بهذا المعنى تعطيلا للروح. وتقديس الجواب الجاهز قتلا لها.

4 .المادية:

المادية لا تُستعمل هنا بالمعنى الفلسفي المدرسي.

المادية المقصودة هي:

المادية الغريزية

التي تختزل الإنسان في الخوف والطمع

وتستثمرهما دينيًا أو سياسيًا أو اقتصاديًا.

ولهذا:

قد يكون الخطاب الديني أكثر مادية من الخطاب العلمي.

وقد تكون الروحانية أكثر غريزية من الموقف العقلاني

5 .الإلحاد:

الإلحاد في هذا النص لا يعني فقط إنكار وجود إله

بل يعني بنيويًا:

نفي العقل الإنساني وإحلال صورة مطلقة مكان التفكير ثم فرضها بالقوة الرمزية أو المادية.

وبهذا المعنى:

يمكن أن يكون المتديّن ملحدًا وظيفيًا ويمكن أن يكون غير المتديّن خارج هذا التعريف تمامًا.

6 .الأخلاق:

الأخلاق لا تُفهم هنا كقائمة أوامر ونواهٍ.

الأخلاق في هذا النص هي:

موقف إنساني حر ينشأ من العلاقة المباشرة بين البشر، لا من وعد غيبي ولا من تهديد أخروي.

وعليه:

ربط الأخلاق بالثواب والعقاب الغيبي = إفراغها من معناها وتحويلها إلى تجارة رمزية

7 .الإرهاب:

الإرهاب لا يُختزل في العنف المسلح أو الجماعات المتطرفة.

الإرهاب في هذا الكتاب هو:

منطق توحيد قسري للحقيقة يُلغِي التعدد ويحوّل الاختلاف إلى تهديد.

وبهذا المعنى:

قد تمارسه الدولة أو الجماعة أو الخطاب التربوي أو السوق.

8 .التيوقراطية:

التيوقراطية لا تُعرَّف هنا بوصفها حكم رجال الدين.

بل بوصفها:

نظامًا تُعاد فيه السيادة إلى الغيب بما يُعطّل السيادة الإنسانية حتى دون وجود سلطة دينية ظاهرة.

ولهذا:

يمكن أن تكون الدولة مدنية شكليًا لكنها تيوقراطية وظيفيًا.

9 .المواطنة:

المواطنة في هذا النص ليست وضعًا قانونيًا ولا مجرد حقوق سياسية بل: **وحدة زمنية معرفية.**

تتحقق حين يصبح الإنسان مرجعية نفسه ومسؤولًا عن تاريخه.

بدون ذلك تغدو الديمقراطية آلية والانتخابات إجراء والمجتمع المدني واجهة.

10 .العلمانية:

العلمانية لا تُدان هنا مطلقًا، ولا تُقدّس.

بل تُفهم بوصفها مرحلة تاريخية في تنظيم العلاقة بين السلطة والغيب

وينتقد النص تحوّلها إلى خدعة تشطير، تترك الإنسان ممزقًا بين الربّ وقيصر، دون أن يكون هو المرجعية.

11 .الإنسان:

الإنسان في هذا الكتاب ليس هوية ولا عقيدة ولا تابعًا لسماء أو سوق.

هو كائن تاريخي مسؤول لا يتحقق إلا بوحدة وعيه وإرادته.

ملاحظة:

هذا الملحق لا يطلب من القارئ الاتفاق. هو يطلب شرطًا واحدًا فقط. أن يُقرأ النص بوصفه تشخيصًا لبنية، لا هجومًا على هوية، ولا دعوة أيديولوجية بديلة.

تقاطعات فكرية

للقارئ الراغب في التوسّع، أسرد هنا تقاطعات محتملة في الأفق الفكري العام، أين تلتقي بعض القضايا التي عالجها الكتاب مع مسارات فكرية عالجها آخرون في سياقات تاريخية وثقافية مختلفة.

1 . نقد الدين بوصفه بنية سلطة

محمد أركون. صادق جلال العظم. سبينوزا. لودفيغ فيورباخ. فريدريك نيتشه.

2 .اللاهوت السياسي والسيادة

عبد الله العروي. توماس هوبز. كارل شميت. حنّة آرندت. ماكس فيبر.

3 .الأخلاق، الجسد، والعنف الرمزي

نوال السعداوي. إيمانويل كانط. إميل دوركايم. مارسيل موس. ميشيل فوكو. بيير بورديو.

4 .العقل، الروح، ونقد الثنائيات

باروخ سبينوزا. هنري برغسون. غيورغ هيغل. كارل ماركس (المبكّر).

5 .<u>الإيديولوجيا، الاغتراب، والتشييء</u>

كارل ماركس. أنطونيو غرامشي. إريك فروم. لويس ألتوسير

6 .<u>العنف، الإرهاب، والهوية المغلقة</u>

رينيه جيرار. حنّة آرندت. زيغمونت باومان

7 .<u>المواطنة، المجتمع المدني، والفضاء العام</u>

فتحي المسكيني. عزمي بشارة. جان جاك روسو. يورغن هابرماس. بنديكت أندرسون.

8 .<u>نقد الحداثة والعلمانية الوسيطية</u>

ميشيل فوكو. تشارلز تايلور. زيغمونت باومان. آلان تورين.

فهرس

هذا الكتاب ليس دفاعاً عن عقيدة، ولا دعوة إلى بديل أيديولوجي، ولا بياناً سياسياً، ولا أطروحة أكاديمية.

هو سلسلة تحقيقات فكرية في جريمة واحدة متعدّدة الأشكال:

ازدراء العقل، ومعاداة الإنسان.

كُتب هذا النص سنة 2016 بنفَسٍ واحد في لحظة واجب، بعد تراكم طويل من الملاحظات حول الدين والأخلاق والعنف والدولة والمواطنة، والعلاقة الملتبسة بين الغيب والسلطة.

إعادة نشره اليوم لا تهدف إلى المصادقة عليه بوصفه حقيقة نهائية، بل إلى وضعه في التداول، بوصفه وثيقة تشخيصية تنتمي إلى زمنها، وتخاطب عقل القارئ لا هويّته.

الطبعة المنقحة – 2026

نشر ذاتي